Converted by Tiff Combine - unregistered

إن المجلس الهندى للعلاقات الثقافية منظمة حرة تمت وزارة الشئون الخارجية للحكومة الهندية، انشئت عام ١٩٥٠م لإنشاء و تنمية العلاقات الثقافية و التفاهم المتبادل بين الهند و البلدان الأخرى، و كجزء من برنامج مطبوعاته الموجه لتحقيق هذا الحوار الثقافى بين الهند و البلدان الأخرى، ينشر، بين ما ينشر، عدة مجلات فى الانكليزية "Indian Horizons" و " Africa Quarterly" و فى الفرنسية "Rencontre Avec l' Inde" و فى الاسبانية "Papeles de la India" و فى الهندية "Gagananchal" كلها تصدر أربع مرات فى السنة. وبدل الاشتراك السنوى للمجلات فى الانكليزية و فى الهندية مطبوع فى العمود المقابل *إلا ان مجلات المجلس فى اللغات العربية و الفرنسية و الاسبانية* توزع مجاناً و المراسلات المتعلقة ببدل الاشتراك و دفع الثمن و بشئون الطباعة و النشر توجه إلى:

The Programme Director (Pub)
Indian Council for Cultural Relation,
Azad Bhavan,
Indraprastha Estate
New Delhi - 110002

و حقوق جميع المقالات المنشورة فى ثقافة الهند محفوظة فلايمكن نشرها بدون الاذن، و الآراء المظهرة فى المقالات هى للمساهمين و الكتاب، و لاتعكس سياسة المجلس بالضرورة.

بدل الاشتراك

(المجلات فى الانكليزية و فى الهندية فقط)

عدد واحد - ٥ روبيات، £1.00 - $2.50
سنويا - ٢٠ روبية، £4.00 - $10.00
٣ سنوات - ٥٠ روبية، £10.00 - $25.00

نشرها و طبعها السيدة فينا سيكرى المديرة العامة المجلس الهندى للعلاقات الثقافية ، ازاد بوان ، نيو دلهي - الهند. طبعت فى مطبعة ثاب انترپرانسيز جرين بارك ، نيو دلهي.

توزع مجاناً

رئيس التحرير: البروفسور نثار أحمد الفاروقى

Converted by Tiff Combine - unregistered

مجلـــة **ثقافة الهند** فصليـــة

المجلـــد ٤٣ العـــدد ٢

١٩٩٢م

محتويات هذا العـــدد:

٥ ـ ١٩ حياة العلامة شبلي النعماني (١)

العلامة السيد سليمان الندوي

٢٠ ـ ٣٤ مولانا حسين أحمد المدني

فضيلة الشيخ أبي الحسن علي الندوي

٣٥ ـ ٣٩ الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي و أسرته

فضيلة الشيخ نسيم أحمد الفريدي

٤٠ ـ ٦٢ الشريف الرضي (الشاعرالأبي و الأديب العبقري)

مروان العطية (ديرالزور ـ سوريا)

Converted by Tiff Combine - unregistered

٦٣ - ٨٤ مذكرة رحلة الحجاز لسمو الشيخة سلطان جهان بيكم
(أميرة بوفال)

أحسن علي خان

٨٥ - ١٠٧ ندوة العلماء عبر التاريخ (الحلقة الثامنة و الاخيرة)

أفتاب عالم الندوى

١٠٨ - ١١٩ دور تكنولوجيا المواصلات فى دمقرطة التعليم فى الهند

د/ دلنواز أحمد الصديقى

١٢٠ - ١٢٣ التنعم فى الشقاوة و الانحلال

البروفيسور نثار أحمد الفاروقي

١٢٤ - ١٢٩ حمى الدق فى ضوء الطب الاسلامى

د/ ضياء الدين أحمد الندوى

١٣٠ - ١٣٨ شـــاه عبـــد اللطيـــف
و
الثقافة المركبة من عناصر مختلفة فى الهند

ك . ك . كوللر

١٣٩ - ١٤٤ عقار الغابة (قصة قصيرة)

أمريتا بريتم

١٤٥ - استعراض الكتب

د/ شميم الحسن أمانة الله

عربي
٢٣٤ جرائد ٩٤

Converted by Tiff Combine - unregistered

الحلقة الأولى :

حياة العلامة شبلي النعماني

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي

شهد القرن التاسع عشر المسيحي في العالم الإسلامي بأسره صراعاً بين القديم و الحديث ، صراعا آذن بانصرام عهد و استهلال عهد جديد، و انقلاب الموازين الفكرية و المقاييس النظرية ، و تطور القيم و المثل و تبدل الوجهات و الآراء ، و تحول القيادة من المتزعمين للدين إلى حملة لواء التحرر و الانحلال.

أما الغرب المسيحي فقد خضع لهذا الوضع الجديد و استسلم أمام الثورة الفكرية الحديثة المعارضة للدين و المعادية له ، و لكن العالم الإسلامي - بناء على الاختلاف الجذري بين طبيعة المسيحية و طبيعة الإسلام - لم يستسلم للحضارة الإلحادية الناهضة بل حاول التوفيق بينها و بين مبادئه الأصيلة المحكمة ، و اختلف مواقف القادة المسلمين و الزعماء الدينيين نحو مواجهتهم لهذا السيل الجارف و التيار العرم للحضارة الغربية.

انقسم العلماء و القادة المسلمون في هذا الوضع العصيب القاسي نتيجة لما يواجهه العالم البشري من صراع مرير عات إلى طائفتين: طائفة تمسكت بمنهجها القديم و اعتبرت الانحراف عنه ردة و مروقا من الدين ، و طائفة أمنت بكل حديث مستورد من الغرب مهما عارض العقل و النقل و ناقض المأثور الثابت و المعهود المؤيد بالمنطق و البرهان إيمانها بالغيب ، فكان العالم الإسلامي في أمس حاجة إلى شخصية بارزة فذة تتصف بالفكر السليم و الدراسة الواسعة العميقة الناقدة لكل قديم و حديث ، تعيد إلى الطبقة المثقفة ثقتها بالدين و تعاليمه الثابتة الخالدة و تميز بين الطيب و الخبيث مما تمخض عنه العهد الحديث في عالم الفكر و الثقافة و التعليم ، و تقضي على هذا الصراع الذي وزع العالم الإسلامي و مزقه شر تمزيق.

برز العلامة شبلي النعماني على مسرح الوجود في النصف الثاني من هذا القرن بفكره الشامل الدقيق و المتزن العميق. و هو في الواقع نقطة بداية لعهد جديد لا في الهند وحدها بل في العالم الإسلامي بأسره . كان متخصصا

Converted by Tiff Combine - unregistered

فى العلوم الدينية والفنون اللغوية و الأدبية و العقلية القديمة، و خبيرا بالآراء و الأفكار و الثقافات و الصناعات الحديثة . صحب العلمـاء و الأساتذة الكبار القدامى، و المثقفين العظام و خبراء التعليم الحديث. كان محققا ، باحثا ، أديبا ، شاعرا ، منشئا، خطيبا ، كاتبا قديرا ، مؤرخا ، متكلما ، مفكرا ، مصلحا ، سياسيا محنكا، إخصائيـا فـى التعليم و ثوريا تجاه كثيـر من متطلبـات و مقتضيات العصر الراهن ، فكانه باقة أزهار منوعة ذات ألوان زاهية جميلة.

موطنه:

ولد العلامة شبلى النعمانى فى إحدى قرى مديرية "أعظم كره" بولاية اترابراديش شمالى الهند. و تمتاز أرض "أعظم كره" من بين بقاع الهند بما أنجبت من رجالات العلم و الفن و الشخصيات البارزة فى كل مرحلة من مراحل التاريخ و لاتزال أرضا خصبة منجبة.

القرية التى ولد فيها تسمى "بندول" كان يسكنها "راجبوت" (و هى طبقة الفروسية و الحكم و السيادة) ينتمى إليها العلامة شبلى.

نسبـه:

اعتنق جده الأعلى من طبقة "راجبوت" الإسلام قبل أربعة قرون تقريبا ، و كان إسمه شيو راج سينغ ، ثم سمى "سراج الدين" يتصل إليه العلامة شبلى بثلاث عشرة واسطة ، و نسبه كما يلى:

العلامة شبلى النعمانى بن الشيخ حبيب الله بن المنشى الشيخ حسن على بن الشيخ عبدالله بن الشيخ كريم الدين بن الشيخ محمّد رضا بن الشيخ محمّد فخر جهان بن الشيخ أمان الله بن .الشيخ محمّد اسماعيل بن الشيخ مهدى بن الشيخ لال محمّد بن الشيخ أحمد بن الشيخ سهراب بن شهباز بن شيو راج سينغ (سراج الدين).

قصة إسلام سراج الدين :

يحكى عن إسلام سراج الدين أنه خرج يوماً إلى بعض مقاطعاته فى صباح مبكر، و استغرق ذلك وقتا طويلا ، فتأخر رجوعه و وصل إلى بيته عند الظهيرة بعد ما قطع أميالا مشيا على الأقدام و كان قد بلغ الجوع و الظمأ منه مبلغهما فقد وعيه و قوته و نزل عن فرسه و دخل المطبخ من دون أن يخلع نعليه (يعتقد الهندوس أن دخول المطابخ فى النعال يدنس الطعام، و أما الإسلام فقد رفعه الله عنه هذا الإصر) و كانت زوجة أخيه تنتظره ، فغضبت عليه و قالت: أصبحت تركيا ؟ (و كان الهندوس يسمون المسلمين آنذاك أتراكا) حتى دخلت المطبخ فى نعليك ، قد دنست الطعام.

فغفل فيه كلام المرأة ما لا تفعله الخطب المثيرة و المناظرات و المجادلات العلمية و الدلائل البرهانية و قال : " إذا كنت ترمينني بالتركية فانا تركى

Converted by Tiff Combine - unregistered

منذ الآن" و خرج من بيته تواً ، و دخل مسجد الزاوية حيث أشبع جسمه و روحه و دخل الدين الحق ، و سمى سراج الدين.

والده :

كان لجده أربعة بنين: حبيب الله ، و مجيب الله و عجيب الله و نجيب الله. و أبوه هو الشيخ حبيب ، تعلم المقررات الدراسية البدائية ، و برع في اللغة الفارسية ، و كان يتذوق بها ، و كان يعمل مكانا مرموقا بين الناس ، و له يد كبير في إطفاء نار كثير من الحروب و الفتن ، و الإصلاح بين الناس. و كان متصفا بالكفاءة العلمية و الكرامة و الأخلاق و العزة الدنيوية و القبول بين الناس ، و كان ذا ثروة و مال يمتاز بالورع و التقوى و الصلاح.

والدته:

كانت أمه إمرأة صالحة متدينة ، تقوم الليل ، و كان العلامة شبلي يثني عليها و يشيد بذكرها ، كان يقول : إنما تعودت على النهوض مبكرا بحسن تربيتها ، و استأثرت بها رحمة الله قبل سنة ١٨٨٦م.

مولده:

ولد العلامة شبلي النعماني في شهر ذي القعدة سنة ١٢٧٤هـ الموافق لشهر مايو سنة ١٨٥٧م و صادف ميلاده الثورة الهندية الكبرى التي قادها المسلمون ضد استيلاء الإنجليز على الهند الإسلامية.

سماه أبواه محمّد شبلي، و كان العلامة كذلك يسمي نفسه محمّد شبلي ، ثم اقتصر على "شبلي" و أضاف إلى إسمه نسبة "النعماني" و لقد أخطأ من ظن أن نسبه ينتهي إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، بل الواقع أن العلامة كان في بداية أمره متصلبا في المذهب الحنفي و مفتخراً به و معتزاً. و كان يحب الابتداع و الابتكار في كل شيء فلقب نفسه النعماني بدل الحنفي.

طفولته:

عاش طفولته في نعمة و رفاهية و هناء ، و كان مطبوعا على الذكاء و الذاكرة القوية ، و كان يتذكر كثيرا من قصص طفولته و يحكيها ، ذكر مرة أنه كان مضطجعا في فناء بيته و هو صغير، في ليلة مقمرة ، فحاولوا أن يحملوه إلى المظلة و لكنه امتنع ، فقال بعضهم انهض و أسرع فالسماء تمطر، فقال : كيف تمطر و القمر طالع ، فضحكوا على ذلك و عجبوا منه .

دراسته :

كان العلامة بكرة أولاد أبيه ، و لم يكن إلى ذلك الوقت اطلع على التيار الثقافي الجديد و الحضارة الغربية الحديثة ، فوقفه على اكتساب العلوم

Converted by Tiff Combine - unregistered

و المعارف الدينية ، تعلم قراءة القرآن الكريم و اللغة الفارسية البدائية فى قريته على الطبيب عبدالله المتوفى سنة ١٣٠٧هـ الموافق لسنة ١٨٩٠م. و هو من سكان "جيراج فور" المجاورة لقريته ، ثم قرأ على المولوى شكرالله المتوفى سنة ١٣١٥هـ الموافق لسنة ١٨٩٧م.

نبوغه الطبيعى:

كان مطبوعا على الذكاء النادر و النبوغ و الفضل و حب العلم و الأدب و كان الذوق الأدبى متوافرا فيه منذ الطفولة. إذا رأى منظومة رائعة أكب على دراستها و لم يتمالك نفسه ، و اهتز و طرب لشعر بديع استمع إليه.

و كان يقضى أوقاتا طويلة فى مكتبة تجارية فى طفولته يقلب أوراق الكتب، و يتصفح دواوين الشعراء ، و كانت الأبيات الرائعة تعلق بذهنه.

بعض أساتذته:

قرأ بعض الكتب العربية على المولوى فيض الله المرحوم صاحب الشيخ سخاوت على الجونفورى الذى كان قد عين مدرسا أعلى فى مدرسة العلوم العربية بأعظم كره.

و تلمذ على المولانا علي عباس الجريـاكوتى، و كان أحد المنطقيين الكبـار و المجادلين المعروفين ، و شاعراً أديباً باللغة العربية ، و توفـى سنـة ١٣٠٢هـ و على المولوى هداية الله خان الرامفورى فى المدرسة الحنفية بجونفور لمدة قصيرة.

مولانا محمّد فاروق الجريـاكوتى:

يدين العلامة شبلى النعمانى فى تكوينه الشخصى للشيخ المربى الأستاذ المولانا محمّد فاروق الجرياكوتى ، و كان يدرّس فى مدرسة "چمشه رحمت" فى غازيفور فأرسله أبوه إليه ليستفيد منه.

كان العلامة شبلى النعمانى طالبا مطبوعا على الذكاء النادر والفهم القوى كما كان الشيخ محمّد فاروق الجرياكوتى معروفا بتبحره فـى العلـوم و اضطلاعه من الفنون ، و منهجه التدريسى البديع. و لم تمض مدة يسيرة من الزمن حتى طلع العلامة شبلى النعمانى نجما متلألئاً ، و مفخرة عظيمة لأستاذه الجليـل ، كان المولانا محمّد فاروق الجرياكوتـى يقول لـه : " أنا أسـد و أنت شبلى "

ركز مولانا محمّد فاروق الجرياكوتى اهتمامه الكبير على تعليم الفلسفة و بذل العلامة شبلى جهده المستطاع فى طلب هذا العلم. يكتب فى إحدى رسائله :

" درست الفلسفة بعنايـــة بالغـة و اجتهاد كبير و دقة عظيمـة

Converted by Tiff Combine - unregistered

و ظلت مقبلاً عليها مشغوفا بها مدة طويلة ".

رحلاته :

أتم دراسته على أساتذه الشهير مولانا فاروق الجرياكوتى ثم حمله الحنين إلى العلم و الشغف به على أن ينهل من منابع العلم المنتشرة فى أرجاء الهند حتى يوسع دراسته و يعمق نظره و فكره ، و أراد أن يرحل إلى أساتذة الأدب و الفقه و الحديث الذين ذاع صيتهم و عرفوا كمراكز علمية تشدّ إليها الرحال.

و كان من بين هؤلاء العلماء الحلة و الأعلام الأفذاذ الشيخ مولانا عبدالحيّ الفرنكى محلى المحدث الكبير فى لكناؤ ، و الشيخ أحمد على المحدث فى سهارنفور ، و الشيخ المولانا محمّد قاسم النانوتوى فى ديوبند.

اجتلبه أولا صيت الإمام اللكناوى مولانا عبدالحيّ الفرنكى محلّى إلى لكناؤ ، و لكن لم يعجبه منهجه فى التدريس. لما طبع عليه من النقد الفكرى و الإجتهاد النظرى ، و كان الإمام اللكناوى إمام الحنفية مجادلا عنهم.

فتوجه إلى رامفور و تلمذ على مولانا إرشاد حسين المجددى و درس عليه الفقه و أصوله و مكث لديه سنة.

ثم سافر إلى ديوبند و استفاد من مكتبتها العلمية ، و لانزال كثير من الكتب بها مكتوبا عليها إسمه بخطه.

كان الشيخ مولانا فيض الحسن السهارنفورى الأستاذ بالكلية الشرقية فى لاهور قد بلغ فى الأدب العربى ذورة عالية و قمة سامقة ، لم تنجب أرض الهند مثله منذ القرون ، فأراد العلامة شبلى النعمانى أن يرحل إليه و يرتوى من نميره العذب الفياض ، و شمر عن ساق الجد للسفر إلى البنجاب ، و لم يوافق أبوه على هذه الرحلة أول الأمر ، و لكن عزيمته أحرزت الانتصار. و خرج ببضاعة مزجاة ، و اقام بلاهور محتملا المشاق و المصاعب فى سبيل العلم.

كان مولانا فيض الحسن أستاذا مؤظفا فى الكلية الشرقية بلاهور ، و كان التدريس الوظيفى يستغرق معظم أوقاته . و أما بقية أوقاته فقد كان يدرس فيها عليه الطلاب الوافدون من مختلف نواحى الهند، فكانت أوقاته كلها مشغولة ، و لكن الأستاذ - نظرا إلى شوق العلامة العلمى - لم يستطع أن يرفض طلبه و يحرمه ، فأمره أن يرافقه من بيته إلى الكلية و يدرس عليه كتب الأدب طول الطريق. و استمرت الدراسة على هذا المنوال حتى جاء وقت الإجازة ، فأراد مولانا السهارنفورى أن يقضى إجازة شهرين فى وطنـــه بسهـــارنفور ، و رغب العلامة كذلك فى مرافقته حتى يواصل الدراسة.

و لاشك أن مرافقته لمولانا فيض الحسن تركت فيه آثارا كبيرة بعيدة المدى ، و أنشأت فيه ذوقا أدبيا رفيعا و نمت فيه ملكة أدبية و شعرية و نقدية لم تتوافر فى أحد من أقرانه.

كان أستاذه مولانا محمّد فاروق الجرياكوتى مولعا بالابتكار و الابتداع

Converted by Tiff Combine - unregistered

و التفلسف و التدقيق ، فكان يقدم المتأخرين من الشعراء و على رأسهم أبوالطيب المتنبى على شعراء الجاهلية ، و كان العلامة شبلى كذلك يذهب هذا المذهب.

و لكن رحلته إلى لاهور أحدثت انقلابا فى فكره و تغييرا فـى اتجاهـه و تجاوبت نفسه مع الشعراء العربى الجاهلى الصادق الواقعى حتى حفظ ديوان الحماسة و كان يتغنّى بشعره إلى آخر أيام حياته.

و اطلع على كتاب جمهرة أشعار العرب عند المولانا فيض الحسن السهارنفورى ، و استعار الكتاب منه ثم أعطاه لمولانا محمّد فاروق حتى يطالعه.

اختار الكتابة بالاسلوب العربى الساذج المترسل بعد ما طالع كتب الجاحظ فى كلية عليجره ، و لكن مرافقته لمولانا فيض الحسن السهارنفورى هى التى بذرت فيه البذرة الأولى.

من أكبر مآثر مولانا فيض الحسن السهارنفورى إدراكه للبيان القرآنى المعجز و تذوقه به ، و كان يلقى على تلامذته دروس ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية وفق منهجه الخاص المعتمد على الإشارة إلى المناحى البيانيـة ، و كان يطلعهم بنكات الفصاحة و البلاغة و دقائق البيان و الإعجاز و ظل هذا الذوق و الاتجاه مسيطرا على العلامة شبلى طول حياته ، و له خطاب مطبوع فيه إيعازات إلى هذا المنهج الفريد ، و ألقى دروسا أمام بعض طلاب دار العلوم ندوة العلماء حول دقائق الإعجاز و البيان فى القرآن الكريم.

استأثرت رحمة الله تعالى بمولانا فيض الحسن سنة ١٣٠٤هـ الموافق لسنة ١٨٨٢م ، تلقى العلامة هذا النبأ المؤلم المفجع و هو يلقى المحاضرة فى بعض الفصول فى كلية عليجره الإسلامية ففاضت عيناه و أشار على الطلاب أن يقوموا عنه ، ثم كتب رثاءً عليه باللغة الفارسية يفيض تفجعاً و ألماً.

رحلته إلى الشيخ مولانا أحمد على السهارنفورى :

كان من العادة فى ذلك الوقت أن يعنى الطلاب بالحديث النبوى الشريف و علومه بعد أن يضطلعوا من غيرها من العلوم و الفنون و الصناعات ، و طبقا لهذا المنهج فـان العلامـة اهتـم لطلب الحـديث بعد أن تخـرج من العلـوم و الصناعات السائدة فى زمنه و كما أنه اختار فى كل علم و فن عالمه الفريد الفذ المتخصص فيه ، كذلك قصد بطلب الحديث أشهر المحدثين فى عصره.

كان مولانا أحمد علي يلقب بإمام الحديث ، و لم يكن فى الحنفية أعلم منه بالحديث ، و من مآثره عدا تدريسه أنه تتبع كتب الحديث و علومه الخطية ثم قام بطبعها بعد مقابلتها و تصحيحها ، أخـرج جامـع الإمـام الترمـذى سنة ١٣٦٥هـ ، و صحيـح الإمام البخـارى سنـة ١٢٦٧هـ ، يقـول العلامـة شبلى النعمانى :

Converted by Tiff Combine - unregistered

"إنه قضى عشرين سنة بكاملها في تصحيح جامع البخاري و التعليق عليه ، و قد تلمذ عليه معظم علماء الحنفية و كان قد أوتي علما جما و عملا صالحا و رزقا واسعا ، و كان متواضعا تقيا صالحا توفي في سهارنفور سنة ١٢٩٧هـ"

المناظرة و المجادلة :

الجهد الذي بذله مولانا محمّد فاروق الجرياكوتي في سبيل تدريس العلامة شبلي المنطق على المنهج التطبيقي كان من تأثيره أنه أصبح ولوعا بمراعاة النظام المنطقي و الاستدلال المنطقي و مبادئ المناظرة و أصولها ، يضعها بين يديه في كتاباته و خطبه و محادثاته ، و كان معروفا بهذه الميزة بين الطلاب. إذا وصل إلى مجلس من مجالس الطلاب ناقشوه حول موضوع من المواضيع أو مسألة من المسائل ، و كان هذا منهجا سائدا في ذلك الزمان ، يجتمع الطلاب و يعقدون بينهم المناقشات و المباحثات العلمية ، و من فائدة ذلك أن الطلاب الأذكياء كانوا يزيدون به في تدريبهم العملي و التطبيقي و حفظ المسائل عن ظهر القلب ، و كانت هذه المنافسات و المسابقات تحمل الطلاب على دراسة شروح الكتب و تعليقاتها و المحاورات العلمية.

إكمال الدراسة :

كان المحدث الكبير الشيخ مولانا أحمد علي السهارنفوري المدرسة الأخيرة للعلامة شبلي النعماني ، كان يقرأ عليه سنن الإمام الترمذي إذ نوى أبوه و بعض أقاربه الحج إلى بيت الله الحرام. و نشأ في قلبه كذلك الشوق و الحنين إلى هذه الرحلة الميمونة المباركة فتأرجح بين حنين إلى دراسة الحديث النبوي الشريف و حنين إلى زيارة الموطن النبوي الشريف مهوى قلوب المؤمنين ، فاستشار أستاذه و شيخه فقال :

" تمكنك الدراسة و الطلب متى أردت ، لكن هذه الرحلة الميمونة لن تتهيأ دائما"

فعزم على الرحيل و غادر سهارنفور إلى بلدة بومباي ، و كان ابن تسعة عشر عاما تبلغ مدة دراسته نحو أربعة عشر عاما ، واصل الدراسة منذ سنة ١٢٧٩هـ الموافق لسنة ١٨٦٣م حتى سنة ١٢٩٣هـ الموافق لسنة ١٨٧٦م.

رحلته للحج :

سافر إلى الحجاز مع الركب الكريم من الجميع بقلب ملئ بالحب و اليقين و حنين إلى التشرف بزيارة الأمكنة الإسلامية الشهيرة و المشاهد النبوية

Converted by Tiff Combine - unregistered

و المراكز و المكتبات العلمية ، و زار جميع المكتبات في المدينة المنورة ، يقول :

"لم أر في مكان من كنوز الحديث الشريف و علومه ما رأيته في المدينة المنورة."

إعجابه بالأخلاق العربية :

و لقد أعجب خلال رحلته إعجابا كبيرا بأخلاق العرب و سخائهم و كرمهم و بساطتهم و أنفتهم و فضائلهم ، و يحكي قصة لجماله يقول فيها:

"إذا قدمت طعاماً أو شرابا إلى جمالي لم يتناوله وحده، بل قال : هلموا و دعا من حولـــه من البدو ثم وزعه بينهم و أخر نفسه ....."

و يقول العلامة :

" أردت مرة أن أختبره ، فقدمت إليه قطعة لحم صغيـرة ، فدعـا رفقتـه و زملاءه و قسمها بينهم ، فسألته ما فائدة ذلك ؟ إنها قطعة لحم صغيرة لا تكفيك وحدك فلما قسمتها لم تستلذ بها أنت و لا أصحابك ، فأجاب بالرد الكريم الذي هو منبع كرم العرب و شرفهم وقال: 'يا شبلي! هذا عار علينا أن ناكل وحدنا'."

قال مرة و هو يشرح الفرق بين لغة الكتابة و لغة الحديث :

" كنت خلال إقامتي بالحجاز إذا نطقت باللغة العربية تقيدت بقواعد النحو و الإعراب فقال لي الجمال مرة: يا شبلي ! أنت نحوي ، فظننت أنه يمدحني و يشيد بعربيتي، و لكن انكشف لي فيما بعد أنه إنما عرض بلهجتي و تكلفي بالعربية لا أنـه أشاد بها."

أول مشاركة في عمل قومي :

العهد الذي أكمل فيه العلامة دراسته كان العالم الإسلامي يشهد فيه حركة قوية كبيرة ، و هي حركة الوحدة الإسلامية (الجامعة الإسلامية) و كان السيد جمال الدين الأفغاني من أسبق الدعاة إليها، و كان أخيرا قد أقام بقسطنطنية أو كان قداضطر إلى الإقامة بها، واستغل السلطان عبدالحميد خان هذه الحركة و عرف خليفة للإسلام و أميرا للمؤمنين في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي و ذكر في الخطب و على المنابر إسمه ، و خلال هذه الفترة نشبت حرب بين روسيا و تركيا سنة ١٨٧٧م و أشعلت هذه الحرب النار في أنحاء العالم الإسلامي ، و أقبل المسلمون على الدعاء لنصرة السلطان و غلبته و جمع التبرعات و المساعدات المالية للجرحى و المصابين ، و إلقاء الخطب الحماسية المثيرة و إخراج الكتابات في تأييد السلطان ، و كان ذلك و العلامة

Converted by Tiff Combine - unregistered

شاب يافع ، فالهبت هذه الجمرة قواه ، و بذل جهده المستطاع في سبيل جمع التبرعات في أعظم كره ، و بعث بالمساعدات المالية بواسطة سفير تركيا في بومباي حسين حبيب أفندي إلى قسطنطنية.

أشغاله العلمية والأدبية قبل احتكاكه بالسيد أحمد خان :

أقام العلامة شبلي النعماني إلى سنة ١٨٨٢م في أعظم كره و نواحيها ، و أخذ خلال هذه الفترة امتحان الحقوق و اشتغل ببعض الوظائف و التجارة و عنى بالشئون الزراعية ، و لكن - رغم هذه الأعمال الشاغلة - واصل أعماله العلمية و الأدبية و الدينية و القومية.

كتب المرحوم الشاه منير عالم الغازي فوري مقالة عن حياة العلامة شبلي النعماني في مجلة " Muslim Review " في عدد أغسطس سنة ١٩١٢م يقول فيها

> *"قضى سنتين بعد إتمام دراسته مدرسًا و مناظرا و واعظًا و درّس خلال هذه الفترة ابن خاله إمام المفسرين العالم الصالح التقي مولانا حميدالدين الفراهي - رحمه الله تعالى - و المولوى محمّد سميع المرحوم ، و هو من أخص تلامذته و غيرهما."*

و كان يقول الشعر باللغتين الفارسية و الأردية ، و ناظر المعارضين للتقليد و كتب الرسائل و المقالات في الردّ على مذهبهم و ألف كتاب *"ظلّ الغمام في مسئلة القراءة خلف الإمام"* باللغة الأردية سنة ١٢٩٢هـ

كان العلامة شبلي يرى - اتباعا لعامة علماء الحنفية - قراءة الفاتحة خلف الإمام مكروهة ، فألف رسالة باللغة العربية في أربع و عشرين صفحة أسماها *"إسكات المعتدى على إنصات المقتدى"* و نالت هذه الرسالة قبولا كبيرا ، و اخترقت حدود الهند إلى مصر و الشام و الروم. و لما زار بلدان العالم الإسلامي سنة ١٣٠٩هـ أكرمه علماءها و أجلوه من أجل تأليفه هذه الرسالة ، و كان قد كتبها بلغة فصيحة قوية متينة.

و كان حريصا على البحث عن الكتب و المصادر النادرة البديعة القديمة و دراستها ، و كان يقضي معظم أوقاته في مكتبة في أعظم كره ، يطالع الكتب العلمية و دواوين الشعراء.

و كان لدى العلامة نسخة خطية للكتاب *"ديوان الصبابة"* لإبن أبي حجلة التلمساني الحنفي المتوفى سنة ٧٧٦ هـ جمع فيه أفضل ما قاله المحبون و المتيمون العرب في النسيب و الغزل ، و هذه النسخة موجودة الآن في مكتبة دارالمصنفين و في طياتها رسالة للعلامة نقدمها فيما يلي حتى يطلع القراء على أسلوبه في اللغة العربية في العهد الذي كانت الصناعة تغلب عامة الكتابات :

Converted by Tiff Combine - unregistered

سلام عليكم:

"هذا ديوان الصبابة يحمل إليكم ، و أما أنى فلا يمكننى حضور لديكم ، لأنى اشتغلت بأمور غيـر طائلـة ، و قصـرت همتـى ، و صرفت عيون العناية إلى العنبا الخسيسة و برات من تحصيل كمال العلم و الأدب ذمتى ، فأنى بحمدالله خلقت و حسب الفضل محيط من دمى، فهو لا يفارقنى إن شاء الله تعالى فـى حالتـى وجودى و عدمى ، بل أنى لعزيمتى هذه السمحة الرحيلة أدوم اتفكر فى حالتى فيزيد همى و يزعاد مؤلتى ، وبيدهم الإنصاف ، مـا هذا إلا الجور و الاعتساف ، فصبر جميل ، و هو حسبى و نعم الوكيل."

(١٢- ش النعمانى)

دراسة الحقوق :

أخذ امتحان الحقوق خلال سنتى ١٨٧٩م و ١٨٨٠م و اشتغل بوظيفة المحاماة لمدة يسيرة.

رحلته إلى عليجره :

كانت حركة عليجره التعليمية قد نالت قبولا كبيرا فى ذلك الوقت فى الأوساط العلمية و الثقافية ، و كان من هدفها تعلية المسلمين بالثقافة الحديثة و صبغهم بالحضارة الغربية الراقية و رفع مستواهم العقلى و الفكرى استقاء من المنابع العقلية و الفكرية الأوربية و إلحاقهم بركب العلماء الأوربيين ، كان هذه الحركة كانت محاولة لعزل المسلمين عن ماضيهم التليد و حضارتهم الإسلامية العريقة و جعلهم متطفلين على مائدة الغرب.

كان أخو العلامة شبلى مهدى حسن يدرس فى كلية عليجره ، فسافر أبوه مرة معه إليها للقاء ابنه ، و كتب العلامة بهذه المناسبة قصيدة فى مدح السير سيد أحمد خان . أعجب بها إعجابا بالغا ، و أشاد بها و طبعها فـى صحيفة "على كره جازيت" فى عدد ١٥/أكتوبر سنة ١٨٨١م، ندرج هذه القصيدة فيما يلى:

المجد يصحب علمـا حيث يحصـل ... و العلم من قومنا لا يـزال يرتحـل
نالوا من الـذل مـالا ناله أحـد ... إذ لا يـرى فيـهم علـم و لا عمـل
و لا تـزال ترى ينشـت شملـهم ... فى كل يوم و قد ضـاقت بهم حيـل
لا يرغبـون إلـى مـا كان ينفعهم ... فجـل صنعتهم للقـى و الخطـل
تراهم اليوم فى كـاب و فى قلق ... فلا أفـاد فتيـلا مـا بـه اشتغلـوا
لا ينتهـون و قـد ذاقـوا وبالـهم ... عن سوء صنع فقد باءوا بما عملـوا
و هـل يجازيهم إلاّ بمـا اكتسبـوا ... من كان من عنده الأحكام تنفصـل

Converted by Tiff Combine - unregistered

فمن سعى اليوم في إصلاح بالهم ... فالله جازيه يوما يقطع الأمل
إن كنت تسألني من هذه صفته ... قلت الإمام الهمام السيد البطل
هو الذي فاق في الأفاق منزلة ... و نال ما لم تنله الأعصر الأول
من أقبل الدين و الدنيا عليه معا ... و الآن في نجح ما قد رام مشتغل
نال المكارم من آبائه و مشى ... في المكرمات على آثار ما فعلوا
فجده سيد الأعراب و العجم ... قد قال يا أمتي لما دنا الأجل .
و هكذا صنع هذا السيد العلم ... يقول يالهف قومي يسيء ما عملوا
يا خير من سيط حب القوم من دمه ... أحسن ولاتبتئس من سوء ما عملوا
أحسن إليهم و لو جازوك سيئة ... و لا تبال بما قالوا و ما فعلوا

كلية عليجره :

و بعد سنة و نصف من زيارته لعليجره شعرت الكلية بحاجة إلى أستاذ للغات الشرقية ، فقدم العلامة طلبه ، و اختاره السيد أحمد خان لسابق معرفته و الاطلاع على مواهبه.

عين العلامة شبلي أستاذ مساعدا للغة العربية في يناير سنة ١٨٨٣م. على راتب أربعين روبية شهريا ، و أخذ يدرس اللغة الفارسية و اللغة العربية في الكلية.

احتكاكه بالسيد أحمد خان :

كان العلامة نازلا في البلدة خارج محيط الكلية فقلما يتيسر له لقاء السيد أحمد خان ، و لكن منذ أن تعارف كل واحد منهما على صاحبه عرف فضله ، و أدرك مكانته و قيمته و كان العلامة يحب مكتبة السيد أحمد خان و كان السيد أحمد خان يبحث عمن يحل له عقد المسائل العلمية الصعبة. فانزله السيد أحمد خان بمكان قريب من مقره ، و أصبحت المجالس تدور بينهما كل يوم ، يتبادلان الأفكار و الآراء العلمية و الثقافية و الأدبية. يقول العلامة شبلي النعماني :

" كان السيد أحمد خان ذات مرة ينظر في كتاب "الإشارات" لابن علي سينا ، و اعترضت له مشكلة عجز عن حلها ، إذ وصلت إليه ، فقال السيد : أهلا ، هذه مشكلة أعياني حلها ، يقول العلامة: فابتدر لساني قائلا: و أني تستطيع ذلك ؟ قلت ذلك ثم ندمت على نفسي ، ثم شرحت له المسئلة ، فتهلل وجهه بشرا."

رأيه في الثقافة الحديثة :

كان العلامة حتى الآن يسمع عن الثقافة الحديثة و محاسنها و مثالبها و هو بعيد عنها و عن مراكزها ، و لكن لما وصل إلى عليجره تهيئت له الفرصة

Converted by Tiff Combine - unregistered

أن يشاهدها عن كثب و يختبره ما فيها من محاسن و مثالب، كتب بعد إقامته بعليجره شهور، رسالة إلى عزيز له يقول فيها:

" قد تأكد لي و تحقق عندي أن الطبقة المثقفة بالثقافة الإنجليزية و دراسة اللغة الانجليزية طبقـــة فارغـــة ، دع الديـــن و علومـــه و شعائره ، لا عهد لها كذلك بسعة الفكر و تنوره و الحرية الصادقة و الطموح و الهمة العالية ، و حماس الرقي ، و التقدم ليس هنا إلا معرض للملابس و المظاهر الجوفاء كان الناشئون في بلدنا يزعمون لنا أن الفائزين بدرجة البكالوريوس يفقدون المعتقدات الدينية و يدحضون المسلمات الإسلامية ... إن هؤلاء البؤساء المساكين لا يفهمون حركة الأرض و دورانها ، و قد قال لي السيد أحمد خان غير مرة أنه ليس بين المسلمين المثقفين بالثقافة الإنجليزية الحديثة شخص واحد يقدم رأيا له أو فكرة في محفل من المحافل خطابة أو كتابة."

يتبين من هذا الانتقاد الحر الواضح الصريح أن بريق الثقافـــة الحديثـــة و الحضارة الغربية المادية لم يبهر عينيه ، و لم يسلبه لحظة واحدة بصيرته للتمييز بين الحق و الباطل ، الأمر الذي يدل على أن العلامة شبلي النعماني إنما أخذ من الثقافة الحديثة جانبها النافع للبشرية من علومها و معارفها التجريبية ، ثم ضمه إلى التراث القديم الصالح ، و فكره هذا المعتدل المتزن المتسم بالدقة و الشمول تجسد في صورة دار العلوم لندوة العلماء.

الشعور بالحاجة إلى الثقافة الإنجليزية :

و كان من فضل إقامته بعليجره أن اتضحت له ضرورة الثقافة الإنجليزية، فاستلفت أنظار أقربائه و استرعى انتباههم نحوها و أسس مدرسة إنجليزية في بلده أعظم كره في ٢٠/يونيو سنة ١٨٨٣م.

و إنما صمت مادة اللغة الإنجليزية في مقررات المنهاج الدراسي لدار العلوم ندوة العلماء بإلحاح منه سنة ١٩٠٣م.

الذوق التاريخي :

يعتبر العلامة شبلي النعماني أول رائد للتاريخ المتفلسف في العصر الحديث في الهند ، و لكنه يدين في ريادته هذه لكلية عليجره ، فلم يكن ذوقه التاريخي بارزا قبل اتصاله بعليجره ، و لما وصل إلى الكلية نمى ذوقه التاريخي و هذبه و أضفى عليه لون الفلسفة ، و لعل مرد ذلك إلى اطلاعه على كتاب الدكتور " G.W. Laitnen " عن التاريخ الإسلامي ، و كان مؤسسا و أستاذا للكلية الشرقية بلاهور و عالما باللغتين العربية و الفارسية ، و كان العلامة شبلي يطالع هذا الكتاب و يفرح معجبا بمآثر التاريخ الإسلامي.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و اطلع خلال إقامته بعليجره على مكتبة السيد أحمد خان الحافلة بالكتب القريدة النادرة من الجغرافيا و التاريخ الإسلامي و العربي المطبوعة في أوربا و مصر و الشام و استنبول . و من هنالك ابتدأ عهد جديد لدراسته للتأريخ الإسلامي.

ذوق التاليف :

كان مطبوعا على ذوق للتاليف . و كان من قبل قد طبعت له رسالة "إسكات المعتدي" و الرسائل الأخرى . و لكن لما وصل إلى عليجره تهذب ذوقه للتاليف و ذلك بفضل مكتبة السيد أحمد خان.

و كان السيد أحمد خان أذن له بالاستفادة من مكتبته فكان يقوم بين يدى الرفوف ساعات . و قد يجلس على الأرجل . فلما رأى السيد أحمد خان ذلك أمر له بمقعد يجلس عليه و يدرس الكتب.

الاطلاع على البحوث و الدراسات العلمية الغربية :

كانت الكلية مجمعا لأساتذة الشرق و الغرب . و كانوا يتبادلون بينهم أحدث ما وصلت إليه المعارف و البحوث و الدراسات . فكانه أتيحت له الفرصة للاطلاع على أفكار الغرب و بحوثه و دراساته العلميه و ساعدته على ذلك مكتبة السيد أحمد خان و حظى بوجود الأستاذ أرنولد في الكلية . يقول الأمير العالم حبيب الرحمن خان الشيروانى أحد المؤسسين لندوة العلماء:

> *و من سعادة حظ العلامة شبلي النعماني أنه عاصره في الكلية الأستاذ الباحث البروفيسور أرنولد ، فامتزج هذان المفرمان بالعلم امتزاج أشعة الأضواء المختلفة الألوان التي تنشر النور في العالم ، اطلع البروفيسور أرنولد العلامة شبلي على مبادئ الثقافة الحديثة و أسسها ، و وسائل المجلس العلمي الغربي و أسبابه و الاعتراضات و الشبهات و المطاعن الموجهة نحو العلوم القديمة . و كان من ثبات العلامة شبلي النعماني و قوته العقلية أنه لم يبهره بريق المبادئ الحديث بل أعمل فكره فيها بهدوء و رزانة و أخذ بالصالح منها بل اتخذها رائدة لحياته و رفض المظاهر الجوفاء . و أما البروفيسور أرنولد فدرس اللغة العربية على العلامة شبلي ، و استفاد منه في الجوانب المضيئة من التاريخ الإسلامي و تاريخ الدعوة الإسلامية . الأمر الذي حدا به إلى تأليف كتاب "دعوة الإسلام" و تعلم العلامة شبلي اللغة الفرنسية من البروفيسور أرنولد.*

Converted by Tiff Combine - unregistered

بركات إقامته بعليجره :

لا شك أن العلامة شبلي كان منذ طفولته مطبوعا على الذكـاء و الذهـن و كفاءات الانتقاد و النظر و مواهب الكتابـة و التاليـف و الشعـر و الأدب ، و لكنه يدين في تنمية هذه الكفاءات و توجيهها نحو التقدم و الازدهار لمو عليجره العلمي و الأدبي و مجالس السيد أحمد خان ، و أقام في عليجره نحو ستة عشر عاما ، استفاد خلال هذه الفترة في نواحي الثقافة المختلفة و استقى من مصـادر الفكـر الحديثـة ، تعرف على الأوضـاع و الظـروف السياسيـة و الاجتماعية و العلمية و الحضارية للعهد الحديث و مقتضيـاته و متطلباتـه و وسع في دراساته ، و هذب صناعة الكتابة و أسلوب التاليف ، أدرك قيمة تراثه الإسلامي العلمي و الحضاري ، عرف الغـرب و درس انتاجاتـه العلميـة و الأدبية و رسم حدود محاسنها و مساوئها. ملخص القول إنه ظهر في عليجره مؤرخا ، مؤلفا ، كاتبا ، شاعرا و أديبا ، بل و شمسا للعلمـاء و علامـة للزمـان و قد صرح بذلك في إحدى خطبه التي يقول فيها:

" *الواقع أنه إذا كان جزء من حياتي يستحق أن يسمى علميا و تعليميا فان هذه الكلية هي التي يرجع إليها الفضل في مبدئه و منشئه و نموه و ازدهاره و تقدمه.*

لا أقول إني لم أدخل في مجال التاليف و الكتابة من قبل ، فقد طبع لي كتابان بل ثلثة كتب قبل مدة طويلة ، و لكنها لم تكن تهدف إلا إلى تاجيج نار الخلاف و النزاعات الدينية و المذهبية ، و تشتيت شمل المسلمـين و تمزيـق جمعـهم و الزيادة في الفوضى السائدة من قبل."

و قال :

" *فاني أدين في كل ما تعلمت أو جميع ما تقدمت به لهذه الكلية ، فاني تلميذ لهذه الكلية و طالب من طلابها كما اني أستـاذ بهـا و معلم.*"

إن ما صرح به العلامة شبلي النعماني عن نفسه لا يشوبه شيء من المبالغة ، قصد عليجره و ليس له ذكر في الدوائر العلميـة و الأدبيـة و لكـن لم تمض خمس سنوات حتى اخترق صيته حدود البلاد ككاتب ألمعي و مؤلف قدير بارع ، و بهج يراعه أحسن مقالاته التاريخية و سيره القيمة و منظوماته البديعة و هو مقيم بعليجره.

و قام العلامة شبلي بمشاركة عملية فعالة في نشاطات الكليـة العلميـة و الأدبية و الثقافية و حركة السيد أحمد خان الإصلاحية و التاليفية ، و وقف

Converted by Tiff Combine - unregistered

مؤلفاته على الكلية حتى تعود منافعها إليها ، و ظل يعمل مساعدا للسير سيد أحمد خان.

و لكن العلامة شبلي النعماني كان يحمل عقلا كبيرا و دراسة عميقة للإسلام و تاريخه ، فلم يقبل من السيد أحمد خان آراءه الشاذة التي تعارض المعتقدات الإسلامية و الأسس الدينية ، بل انتقدها انتقادا حرا أداء للفريضة الدينية و الخلقية التي تعود عليه.

كان السيد أحمد خان و أتباعه قد انبهروا بالحضارة الغربية و الثقافة الحديثة فأقبلوا عليها و أخذوها على علاتها و مفاسدها ، و قاموا بتأويل الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و المعتقدات الدينية في ضوء المعارف الغربية ، بينما كانت الطبقة القديمة للعلماء قد أغلقت على نفسها كل باب ، فحرمت على نفسها حتى الاستفادة من العلوم الغربية الإنسانية و التجريبية ، و لكن العلامة شبلي بفضل تربيته الخاصة و عقليته الإسلامية المتفتحة اختار طريقا وسطا ، فلم يحرم المعارف الحديثة و لم يؤمن بها إيمانا أعمى ، بل استفاد منها بعين مفتوحة و عقل واسع ناقد ، كأن الله تعالى تولى تربيته و إعداده في أكبر معهد علمي حديث في الهند لذلك العمل الجليل الذي حققه بمؤلفاته القيمة و مقالاته البديعة الغالية ، و أداته دورا بارزا في حركة ندوة العلماء و رسمه خطة دار العلوم لندوة العلماء ، و صياغته المنهاج التعليمي الجديد المستمد من تجارب المناهج التعليمية العالمية.

و كان من سعادة حظه أن وفقه الله تعالى لجولة للبلدان الإسلامية أكسبته تجارب واسعة و نضجا في العقل و الفكر.

* للبحث صلة .....

تعريب : محمد أكرم الندوي

Converted by Tiff Combine - unregistered

مولانا حسين أحمد المدني

بقلم : سماحة الشيخ
أبي الحسن علي الندوي

كان الزمن زمن سنة ١٩٢٨م ، و كان مؤتمر متعددي الاحزاب يمارس إجراءاته و برامجه في مبنى المعروف باره دري الابيض بلكناؤ، و كان تقرير نهرو في دور البحث و النقاش، و ألقى الشيخ تصدق أحمد خان الشرواني خطبته حول أي اقتراح، و عرض فيها بعض إحصاءات، فبرز عقب خطبته رجل وقور، عليه قباء عربي و عمامة هندية ، و لكن الذي يبعث على الدهشة و الاستعجاب أنه تناول بالضبط و التصحيح بعض الاحصاء الذي قدّمه الشرواني رغم أنه كان زعيما سياسيا محنكا، فكان الجواب المنتظر للأنظار المتفقدة هو "مولانا حسين أحمد المدني .

ثم استمعت لخطبة الشيخ و ابتدرته أبصاري في حفلة سرور و شكر بمناسبة نهاية مقدار الدرس المقرر في السنة للقرآن عقدها طلبة صف من صفوف دار العلوم لندوة العلماء في رحابها، وجدت فيها كلمته علمية دينية قيمة ، تناول فيها بذكر فضائل و آداب القرآن الكريم و التنبيه للطلبة إلى احترام القرآن و احترام الذين خدموه، و التوجيه و بيان السبب فيما أن بعض الفرق لايتأتى لها حفظ القرآن المجيد، و قراءته عن ظهر القلب، كما تناول بالتشريح و الانتقاد لزيادة قسط المنطق في منهاج الدرس القديم و توغل العلماء في هذا الفن و بخسهم لنصيب القرآن العظيم و الحديث الشريف، و كيف أدال الله بعد ذلك للقرآن و الحديث من هذا الفن الطارىء الشاغل من الفكر و الدراسة مكانا لا يستحقه، و نشرفت بزيارة الشيخ لدى عودته من الحج عند ما كنت طالبا في لاهور، رجعت إلى ذاكرتي و تفقدت أحوالي فاذا بها أول معرفتي بالشيخ وصلتي به، فطالب لايزال شبابه غضا طريا و ثوب عمره أبيض نقيا، نشأ و ترعرع بعيدا عن جو الاصلاح و التربية ، و لا يكون لديه ميل طبيعي الى المجال السياسي، و لا عمر طبيعي يقتضيه، فمثل هذا الطالب لايمكن له أن يتشرف أكثر من هذا بزيارة عالم جليل معروف جل همه و شغله الشاغل خدمة الشعب و الوطن.

Converted by Tiff Combine - unregistered

عاد بيتنا منزلا مستقلا لإقامة الشيخ في لكناؤ سنة ٣١ ـ ١٩٣٠م و كان أخ كاتب هذه السطور الأكبر الدكتور السيد عبد العلي من المتخرجين من دارالعلوم ديوبند و تلاميذ فقيه الاسلام شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي رحمه الله، و كان لبيتنا " البيت الحسني بفضل السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد أواصر و أرحاما دينية تربطه مع أفراد الحزب الديني في كل ناحية من نواحي الهند خصوصا المنتسبين منهم إلى مدرسة شيخ الاسلام ولي الله الدهلوي الدينية و العلمية و منهم علماء ديوبند، و يكتسب بها بيتنا ودّهم و التفاتهم و عطفهم و عنايتهم، فلم يزل أخي متمتعا بحدب شيخ الهند و عنايته مادام يقيم في ديوبند، و كلما أراد أن ينتمي الى مصلح ربانى لإكمال ناحية التزكية و الاحسان لم يقع اختياره الأ على شيخ الهند، و لم تحقق هذه الرغبة حتى اعترض لشيخ الهند السفر إلى الحجاز و واجه مرحلة "مالتا" و لم تسنح له الفرصة لتحقيق ذلك في العودة كذلك، فشاء الله أن تحقق هذه الرغبة بشيخ كان من المقدر أن ينجز و يحقق كثيرا من رغبات و مشاريع ذلك الشيخ.

كانت لكناؤ ـ لأسباب و خصائص عديدة ـ مركزا كبيرا بل و كبرى المراكز للحركات السياسية و القومية، فكانت تنعقد فيها احتفالات حزب المؤتمر الوطني حتى الجمعيات و الهيئات السياسية البدائية المحدودة، و كان كثيرا ما يتفق للشيخ أن يحضرها، و لم يستطع الانهماك السياسي و لا الحضور المتكرر الدائم لمؤتمرات و احتفالات حزب المؤتمر الوطني أن يغير شيئا من طبعه و أشغاله و واجباته، كانت مقررات الزعماء السياسيين و المندوبين في لكناؤ دائما هي الفنادق الفخمة أو المنازل القديمة لقيصر باغ أو أعيان البلد، لكن الشيخ لم يتلاءم طبعه مع هذا الجو الأنيق المزخرف، فكان منزل بسيط مخلص قريب من المسجد يسهل به إتمام و إنجاز مشاغله و لايكون به التصنع في المآكل و المسكن كان ذلك أحب إليه ألف مرة، و كانت حارتنا ـ سوق جهاؤلال ـ امتازت دائما بأن تسكن فيها المسلمون الأصحاء العقيدة، المتمسكون بالدين و الشريعة، و لم تزل هذه الحارة و مسجدها مركزا للعلماء و الباحثين بفضل والدنا ـ العلامة السيد عبد الحي الحسني ـ و العلاقة الندوية، فاختار الشيخ لإقامته هذه الحارة و بيتنا، و لم يتخلف عن ذلك طوال هذه الفترة، و قد اتفق أنه ساهم لساعات في مناقشات و احتفالات القصر الفخم "لسليم بورهاؤس" و" باره دري" الملكي، لكنه تناول الطعام على مائدتنا "الشيرازية" مهما أدى ذلك إلى تأخير و وقت طويل، كما حدث أنه زار بعض مناطق الانتخابات زمن الهيئة البرلمانية الاسلامية و عاد في الليل مؤخرا و هو لم يتناول الطعام بعد، فتناول عندنا "ماحضر" و استراح، هذه هي البساطة و عدم الاحتشام لبيتنا كان الباعث على إعجابه و تفضيله، و كلما حاولنا شيئا من التكلف و الاصطناع شكاه، و وجد في نفسه من ذلك شيئا.

Converted by Tiff Combine - unregistered

نزل الشيخ عندنا و أقام في بيتنا أياما و ليالي متوالية بل و أسابيع بمناسبة الهيئة البرلمانية الاسلامية و حركة مدح الصحابة و غيرها، اذا عرفت ذلك و أنت تعلم كثرة أسفاره، فلاتسأل عن حديث يدور و مجالس تنعقد و اجتماع يحصل ، و لا تسأل عن سرور و أنس و لا تسأل عن بركة و خير، و لا مما يتمنى من دراسة و مشاهدة الضيوف الكرام عن كثب في منزل محدود و عيشة بسيطة، و عن البحر حدث و لا حرج !

و الشئ الذي لاحظته بصورة خاصة هو بشاشته و طلاقة وجهه، و نشاطه و تيقظه و إعطاء كل ذي حق حقه من العناية و الالتفات، و التزام الأوراد و المشاغل و الاشتغال بالليل، و قد شاهدت عيناى مناظر مدهشة متعارضة ، حيث رأيت في جانب عاطفة الحب و الانقياد و روح التضحية و الفداء في بعض الحركات المحلية، و في جانب آخر رأيت اشتعال غضب و استياء الجماهير الذين سرعان ما ينفعلون و يتضايقون، و سمعت المسئولين يؤنبونهم و يؤبخونهم وجها لوجه ، و لكني وجدت الشيخ قائما على حالة واحدة ، و شاهدت أن الأعلام و المشاهير يحضرون إليه و يمثلون بين يديه بكل أدب و احترام و يستكتبون منه رسائل التعريف و الوسطية، و لمست فيهم طبيعة النكران للجميل و سوء الأدب و شدة اللهجة و الضراوة و التعصف، و قد شعرت -سواء عبروا عن ذلك بعقلية الناقد أو مشاهدة الواقع و وضع الشئ في نصابه -بأن الواردين و الحاضرين في مجلس الشيخ قل منهم من استفاد من نوافه الأصيل و انتفع بفضله الفاض، و إنما كان جل وقته ينقضي في ذكر الأشخاص أو الجماعات أو التعليمات الفارغة أو طلب التمائم و التعاويذ و الدعاء، و كان الشيخ يفضل كرم طبعه و أريحته المعروفة و حفاوته النادرة المثالية يتحمل كل ذلك و يتكلف الطلاقة و البشر و لايبدى أى عبوس أو غلاظة بل يبقى بهيئ الطلعة و ضيئى الجبين دائم البشر طليق المحيا، و كان لايليث أن تنبسط أساريره و يتهلل وجهه بشرا إذا ما وجّه أحد سؤالا من التزكية و الاحسان أو أثار بحثا علميا أو طرح ذكر الربانيين و الصالحين و المصلحين، فاذا به طلق الوجه مشرق المحيا ، كأنما ضرب على وتر القلب و أثيرت فيثارته.

لم يكتف هذا العاجز بمشاهدة الشيخ في الخارج و السفر فحسب و إنما شاهده في منزله كذلك ، فقد أقمت عنده في ديوبند لأربعة أشهر، أقمت حوالي شهر عنده في منزله بصورة خاصة، ثم تحولت باصراري و إلحاحي إلى غرفة لدار الشفاء تتصل بباب الشيخ و تطع على الممر، مز ذلك على الشيخ كما ظهر على وجهه، و لكنه تنازل إلي رغبتي و أذن لي بالتحول. و كانت هي الأخيرة أيضا تحت عطفه و كرمه، فقد كنت ألتقي به ذهابا و أيابا و قياما و قعودا و تنزها و تفرجا في الحديقة صباح مساء و لدى تصفح الجرائد و الحضور لشئ الصباح الذى اشترطه عليّ ، فكنت ألتزم ذلك، و رأيت بأم عيني أثناء

Converted by Tiff Combine - unregistered

إقامتي هذه أيضا أريحيته المعروفة و حفاوتـه النادرة و بشاشتـه الشهيـرة و درست كتابا جليلا و طالعت صحيفة ذات فصول و أبواب منها الديـن و منها الأخلاق و منها السياسة ، صحيفة حية ناطقة صحيفة عنوانهـا الحسن و الحمد ، و ليس لي إلاّ أن أكرر ما كتب كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان عن سيدي أحمد الشريف السنوسي في حواشيه على حاضر العالم الاسلامي : قد رأيت في السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله و حقّ لي و الله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنـــا ... عن جعفر بن فلاح أطيب الخبـر
حتى التقينا فلا و الله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

و وجدت منزل الشيخ مضيفا عامرا بالضيوف، مـن كل أصنـاف الناس و طبقاتهم من علماء و سياسيين و متصوفين و متطوعين يذهبون إلى السجون - و الزمن زمن الحكومة الانجليزية و الأيام أيام حركة التحرير و الجلاء - و من أعضاء الجمعية و العاملين الشباب و رجال المغابرات و الراغبين في البيعة و الاصلاح و الطالبين للتعويذ و الدعاء، وجدت مائدة واسعة و وجدت قلبا أشمل و أوسع من المائدة ، قلبا لايعرف السآمة و الفتور و لايمل من كثرة الوفود و حشد الضيوف، و وجدت بيته زاوية دينية ومدرسة سياسية و ناديا علميا تأتيه الصحف و المجلات من جميع أنحاء الهند، و يتهافت عليها الطلبة الذين قد تأثروا و فكرته السياسية الشاملة تهافت الضمآن على الماء، لأنهم لايجدون الصحف في غير هـذا المكان ، ثم يتجاذبون بينهـم أطـراف الحديث و يتبادلون وجهات الأنظار ، و قد يستعيرون الكتب السياسية من بيت الشيخ، و هكذا يتلقون ثقافة سياسية و يخرجون رجالا متحمسين و أحرارا ثائرين.

هنالك تعارفت بالصياسي النابغ مولانا محمد سجاد البهاري نائب رئيس الإمارة الشرعية بمقاطعة بهار (BIHAR) الذي رزيء به المسلمون حديثا، رحمه الله رحمة المجاهـد الذي مات بالميدان، و كان الشيخ عظيـم الإكـرام و الإجلال له كثير الاستشارة منه، و هناك تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء، و تعارفت بأساتذة دار العلوم الذين يزورون شيخ الحديث في بيتـه، و قد كانت تنعقد مجالس منبسطة بعد صلاة المغرب في حديقة الشيخ الصغيرة و بين أشجار الزهور أمام حجرته.

وكان يحضر في بعض الأحيان عالم وقور عليه مهابـة الشيوخ الكبـار و روعة المعلمين السلف، كثير السكوت قليل الكلام إلاّ أنه إذا تكلم تكلم بكلام متين فصل، وكان ممتازا في هذا المجلس كلّه من أشد الناس حبا لصاحب البيت و أكثرهم إجلالا له و إنصاتا لكلامه، يملأ قلبه من حبه، و أذنه بكلامه و لا يكاد تملأ عينه منه ، غاض الطرف من غير مرض، مطرق الرأس من غير حياء، صامتا من غير عيّ ، سألت بعض الإخوان عنه فأخبرني أنه مولانا إعزاز علي.

Converted by Tiff Combine - unregistered

شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي بأن يقرئني شيئا، فقبل و سمح لي بالاشتراك في درس شرح النقاية، كان الشيخ مهتما بهذا الدرس جد اهتمام، و اختار عددا من الطلبة النجباء يقرئهم على منهاج خاص، و أذن لي الأستاذ أن أقرأ عليه درسا في نور الأنوار بعد صلاة العصر.

و كنت أشترك في درسين آخرين مهمين، يلقيهما مولانا حسين أحمد المدني شيخ الحديث و رئيس الأساتذة في دارالعلوم بنفسه، و يواظب عليهما، درس الجزء الثاني من سنن الترمذي و درس الجزء الثاني من صحيح البخاري، فسرعة و بداهة خاطر الشيخ و قوة ذاكرته و العلاج الشامل الكافي للمسئلة ليس حديثا على الذين يطلعون على مشاغله السياسية و كثرة أسفاره، و قد كان تقريره حول مسئلة واحدة يستمر ثلاثة أو أربعة أيام - اعتبارا من ستين دقيقة لحصة تعليمية واحدة - و يعالج مرتجلا كل ما يتعلق بثناء المسئلة و نقدها و اختلاف المذاهب و الأئمة و دلائلهم و مصادرهم و المتن و رجال الأسناد، فكانت له روعة في قلبي ، و كانت تغشى دار الحديث غاشية من الدين، و سحابة من الروحانية ، و لايزال يرن في أذني صوت الشيخ العذب الرنان و لحنه العربي الجميل.

و كانت هذه الشهور من شهور الدراسة الأخيرة و مقدار الدرس المقرر لم ينته بعد، فكانت دروس متوالية و يكاد يكون النهار كله درسا، درس بعد صلاة الصبح و كذلك درس بعد صلاة العصر و فترة بعد المغرب، و درس بعد صلاة العشاء يستمر إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليل، و ذلك في الشتاء في البرد الشديد، و لكن الطلبة قلما كانوا يملون لفكاهة الشيخ و نوادره و دعابته.

كان الزمن زمن سنة ١٩٣٢م ، و كانت برامج أسفاره تعد مسبقة، و أكثر ما يقضي جمعته في الخارج، و إن الله تعالى قد ذلل له السفر مثلما ألانَ لداؤد عليه السلام الحديد، حيث قال : و ألنّا له الحديدَ فكان مصداقا لقول الشاعر: "ما آب من سفر إلاّ إلى السفر" ، كنت مشغوفا بمطالعة تفسير القرآن الكريم، و أواجه فيها مشكلات ربما يستعصي عليّ حلها بأي كتاب، فكان الشيخ خص لي وقته بعد كل جمعة لأعرض عليه ما يشكل عليّ من مطالعة تفسير القرآن المجيد. و لكن لم يتات لي سوى بعض الجمعات، و منحني للدراسة و المطالعة بعض كتب سياسية مثل "حكومت خود اختياري" (حكومة الاستقلال) لمؤلفه طفيل أحمد و رسائل مولانا محمد قاسم نانوتوي رحمة الله عليه، و كان من بركة الإقامة في ديوبند أن اشتدت فيّ عاطفة كراهة الانجليز التي كانت تتوفر جراثيمها في قلبي وراثة، و قد تصاعدت هذه النزعة فيّ كثيرا فيما بعد حتى عدت أعتقد عن صميم القلب أن ليس إنجليزي واحد فقط بل أوربا كلها داعية للإلحاد و المادية ، و لا يمكن ازدهار الدين و الأخلاق و لا انتشار الدعوة الاسلامية و انتعاشها إلاّ إذا انهارت أوربا و دبّ فيها دبيب التدهور و الانحطاط، و ليس

Converted by Tiff Combine - unregistered

الأمر أمر حكومة و عبودية دولة أخرى فحسب، و إنما هو أمر حضارة متكاملة و منهج فكر مستقل و دعوة شاملة لها أسسها و مناهجها و أساليبها الخاصة و هي تعارض التعاليم النبوية و الوصايا الدينية و اثارها و مقتضياتها في نهاية المطاف و طول الخط، فلم أدرك و لم أتفطن للجو و البيئة التي دها فيها موسى عليها السلام بغاية من العجز و الاضطرار. ربنا إنك أتيت فرعون و ملاه زينة و أموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم و اشدد على قلوبهم الخ ' لم أتفطن لذلك إلاّ بعد ما بسطت أوربا نفوذها و سيطرتها على العالم، و أحرزت تقدمها الهائل المدهش ، لقد كان الانجليز وسيطا متحمسا و عميلا ناجحا لأوربا المادية اللادينية في الشرق، و كنا نحن أهل الشرق أول من واجهوه ، و أكثر من تعرضوا لهجماته الشرسة فاشمئزازنا و تقززنا منه أمر طبعي، لكن الكفر ملة واحدة فتتبنى هذه الحضارة و دعوتها و تتحمس لها أمريكا و روسيا و الدول و الأقطار الأسيوية اللادينية نفسها التي اعتنقت فكرة أوربا و نظام حياتها بجملته و احتضنته بحذافيره و على علاته، كما أن الواقع أن الخسارة الدينية و الإيمانية و الخلقية التي تصيب العالم الاسلامي من أوربا أعظم و أخطر مما يصيبه من الخسائر المادية من الحكومة الأجنبية، على كل فقد كان هذا التقزز الخاص يحتل أهمية خاصة في حين من الأحيان، و كان في ذلك - دونما شك - نصيب للبيئة التي عشتها و فضل كبير لصحبة الشيخ و المطالعة.

لم يكن أثناء إقامتي في ديوبند ما يبعث على السلوان و تسكين الخاطر إلاّ الشيخ وحدها، و ذلك لأن تنشئتي و تربيتي العقلية و التعليمية قد تمت في بيئة قلّت معها رغبتي في البيئة الدرسية و المدرسية هناك، و لكن نظرة عناية منه و ملاقة و بشاشة له و سؤاله عن شئ بكل عطف و كرم في حين من الأحيان كان كفيلا بأن يخفف وطأة الثقل و ضغط البيئة كله، و أتلذذ به طويلا.

رجعت إلى البيت في نهاية شهر رجب أو بداية شهر شعبان، و استمر أيابه و ذهابه و إقامته عندنا و بذلك لم تزل يتسنى لنا شرف خدمته، و اتفق لي أن صحبته في السفر فانكشفت لي ناحية مهمة من نواحي الحياة الانسانية و قرأت صفحة جديدة من صفحات حياته - أطالها الله - و الانسان في السفر غيره في الحضر، و لكن رأيته عين ما رأيته في بيته بل و أجمل ، نزاهة أخلاق و عفة بطن و علو همة و شهامة نفس، و صبر لا يعرف السآمة و الملل ، و همة لاتعرف الفتور و الكسل ، سهر في طاعة و يقظة في شغل و نومة في امتداد، و أكلة في اقتصاد، و حياة كلها جد و اجتهاد و تضحية و جهاد، اتفق لي أن صحبته في إحدى مناطق الانتخابات زمن الهيئة البرلمانية الاسلامية، و كان الشيخ من برامجه أن يقوم بالجولة في منطقتنا (راي بريلي) و كان مجهودا مكدودا قد بلغ منه الإعياء كل مبلغ للأسفار المتواصلة، و الناس إنما يهمهم شانهم أنفسهم ، لايبالون بصحة الآخرين و راحتهم، فجعلني أخي مع الشيخ -

Converted by Tiff Combine - unregistered

بعد ماشعر باعيائه و تعبه الشديد - لكى أوفر للشيخ الراحة و الاستجمام عندى في "دائرة الشاه علم الله" برأى بريلى ليوم أو يومين ، وأحاول أن يقضى الشيخ بعض أوقاته فى الراحة و الاستجمام و فراغة البال، كانت الجولة المخططة فى منطقة جائس (نصيرابادا) و السفر بالسيارة، و كان معنا كذلك المرشح الذى هو محام مسلم معروف لاترابراديش، فانكشف لي بهذا السفر أن الشيخ يمارس هذه المهمة و هو يعتقدها وظيفة دينية خالصة يدفعه الى ذلك اعتقاد جازم و عاطفة دينية قوية، يتحلى بنزاهة أخلاق و عفة بطن و يقظة ، مخاطرة تتوفر فى الجندى و هو فى ساحة الحرب، أدى صلاة الجمعة فى جامع قرية، و كان الخطيب من المكفرين لأبناء ديوبند فاغتنم الفرصة و قال عن بعض علمائها الكبار شيئا كثيرا، جلس الشيخ بعدما فرغ من البيان يستمع إلى الخطيب هادئا، و انصرف ساكتا بعدما قضيت الصلاة، و لم يتكلم عن الخطيب شيئا إلى نهاية السفر و لو سهوا، نظم المرشح طعاما لذيذا ذا ألوان و فنون ، كما هو عادة المرشحين و كما يرجوه خطباء الدوائر الانتخابية ، أشركنى الشيخ معه فى صفيحة واحدة و لم يلبث أن نزع يده حتى ظننت أنه لايعتقد حل هذا الطعام إلاّ سداً للرمق ، أقام الشيخ فى راى بريلى ليلة ، و اعتكف وحيدا فى مسجد الشيخ الشاه علم الله جد سيد أحمد الشهيد طويلا يراقب ذكر الله ، و بعد ما خرج منه وعظ فى البيت قليلا لم يكن يتصل إلاّ بالآخرة و البرزخ و عالم الأرواح ، و أبدى مشاعره و انطباعاته القلبية عن هذا المكان المتبرك التاريخى لدى المقادرة، و أعرب عن رغبته فى طول الاقامة ، الذى لم تكن تتسع له حياة الشيخ النشيطة الشاغلة إلاّ قليلا.

ثم توترت الأوضاع و الملابسات و جاء الزمان الذى كان فيه رأى الشيخ و حنكته السياسية معارضا فى طول الخط لرغبات و عواطف جماهير المسلمين و الفكر السياسى للزعامة المقبولة السائدة آنذاك، صدع الشيخ بوجهته بكل قوة و جراءة ، و بيّن الخسائر و الأخطار المحدقة بالانفصال، و لم يقتصر على ذلك، بل قام بجولات موسعة في أرجاء البلاد لبث دعوته و إنعاش حركته و ترويج آرائه و خطب في مختلف الأماكن و نشر لذلك كتيبات و مقالات عديدة، و كان المسلمون آنذاك عرضة لصراع عقلى و توتر ذهنى عنيف مرجعه سببان: أحدهما تزمت أبناء الوطن و جبانتهم و نفسية الذعر التى طالما ظهرت زمن الحكومة الإنجليزية، و لأجل ذلك لم يكن فى مقدمة هذه الحركة إلاّ الطبقة التى احتكت بهم فى المكاتب و الدوائر الرسمية و المعاهد و المرافق الحضرية الأخرى، و الثانى يرجع إلى طبيعة القيادة الوطنية للمسلمين، إن هذه الزعامة المتطرفة أشعلت عواطف المسلمين و بلغت بحماستهم مبلغا أصبحوا به يتقلبون على الجمر ثورانا و هيجانا و فقدوا كل صلاحية للاستماع إلى أى رأي معارض و تحمله و اعمال الفكر فى أى قضية بقلب سليم و ذهن فارغ و تقليبها على جميع وجوهها ، و لكن إخلاص الشيخ و عزمه الصميم و شعوره بالواجب

Converted by Tiff Combine - unregistered

أبى أن يخضع لهذه الظاهرة المؤسفة و أن يستسلم لها، و اعتبر أفضل الجهاد و عد من واجباته أن يصمد فى وجه هذه الظاهرة المتفشية و يصدع بكلمة الحق أمام قوتها الهائلة وفق ما يملى له ضميره و عقيدته الثابتة، مما أدى إلى أن حدث فى الأسفار و الاجتماعات و الحفلات ما لم يكن بالحسبان، و لقى فى ذلك ما لم يكن يليق بتاتا بشخصيته البارزة و خدماته السالفة المشكورة و مكانته العلمية الدينية، و كانت هناك طبقة يدرك حقائق الأمور الباطنة بجانب الأمور الظاهرة، و كانت هذه الطبقة تتألم و تتضايق بالأحداث التى كانت تظهر فى مختلف الأماكن، و تشهد شهادة ظاهرة بعلو مكانة الشيخ و نزاهته و اخلاصه و ربانيته، و تعتبر هذه الأحداث المؤلمة شؤما و خسارة فادحة للمسلمين، أتذكر أنه لما كان يقرأ علينا أحد منا فى أى مجلس من مثل هذه المجالس حادث محطة "سيدبور" لم يتمالك الشيخ الربانى مولانا عبدالقادر الرائى بورى و شيخ الحديث مولانا محمد زكريا اللذان كانا موجودين فى ذلك المجلس، من البكاء من شدة التأثر بهذا الحادث المفجع، و لم يبق أحد منا إلا و ابتلت عيناه ، فاصبحت الثقة آنذاك بحب الشيخ و الهيام به و خلوصه و نزاهته شبه جزيرة يحدها من كل جانب بحر زاخر من الغضب و الاستياء، و سوء السمعة و الفضاحة ، و التوسعية و الارتزاق و النقمية و المصلحية تصطدم أمواجه العاتية بشاطىء هذه الجزيرة ثم تنصرف ، و كانت هذه الجزيرة عامرة بآلاف بل عشرات الآلاف من المسلمين المتطوعين الذين كانوا يضعون الثقة - حتى فى تلك الساعات المرجة الشائكة - فى خلوص الشيخ و عفته و نزاهته التى لاترتقى إليها الشبهة ، و كانوا يؤمنون عن قرارة القلب بأن الشيخ يمكنه أن يجتهد فيخطىء شأن جميع أصحاب الاجتهاد، و لكن الله رفعه عاليا عن كل من الانتهازية و التوسعية و الاعجاب بالنفس و حب الفخفخة و الظهور، و بيتنا فى لكناؤ إنما كان يقع على نفس الجزيرة ، و بناءا على أن لكناؤ كانت من المراكز الهامة لهذه الحركة الشعبية اتفق لنا أن نحتك بهذه الموجات العاتية من الغضب و القلق و نصطلى بنيرانها الصاعدة.

و بالجملة فقد جاء الزمان الذى انسحب فيه الزعماء و القواد من الميدان و خذلوا المسلمين الذين أشعلوا عواطفهم و أثاروا حماستهم و التزموا عالمهم الذي بنوه، مما أدى إلى تعرض المسلمين للياس الشديد وقطع الرجاء عن المستقبل و عدم الثقة و الاعتداد بنفوسهم و مركب النقص فهم حائرون متشاكسون تغشاهم غاشية من الذعر و الهوان و الاهمال، لايجدون من يعزّيهم و يسليهم، حتى كأنهم أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، فنالك برز الشيخ و أتباعه ليعيدوا إلى المسلمين ثقتهم و اعتمادهم و يبعثوا فيهم الرجاء و الطمانينة إلى المستقبل و يثيروا هممهم و يشحذوا عزائمهم لمقاومة الأوضاع المرجة و الصمود في وجهها صمود الجبال الراسيات و البقاء فى

Converted by Tiff Combine - unregistered

أوطانهم، مهما أدى ذلك إلى الخسائر الروحية و المالية. و ثبات و بقاء المسلمين لشمالى الهند و لا سيما لاترابراديش - التى تحتل مكانة المركز العقلى و العلمى و السياسى لمسلمى الهند - انما كان يتوقف على بقاء و ثبات المسلمين فى المديريات المتاخمة لغربي أترابراديش أى سهارنفور، مظفر نغر، ميرت، فلو كان المسلمون لسهارنبور التى هى واسطة مديريات اترابراديش و شرقى بنجاب زلت أقدامهم و فترت هممهم لتعسر للمسلمين الثبات و البقاء فى أى مديرية. و كانت سهارنبور و المديريات المجاورة لها تشهد تحت ضغط الأوضاع المحلية و قربها من شرقى بنجاب كانت تشهد حركة عنيفة و دافعا قويا إلى النزوح و الانفصال، فمن فضل علماء ديوبند و سهارنبور و صنيعتهم الجديرة بالتقدير و الثناء أنهم قاوموا حركة النزوح أشد المقاومة، و اعتبروه احتضار المسلمين دينيا و سياسيا، و شمروا عن ساق جدهم و بذلوا قصارى جهدهم فى الأخذ بحجز المسلمين و بعث هممهم و تثبيت أقدامهم، و كان فى ذلك أيضا نصيب كبير لجهد الشيخ المتواصل، فقيامه نفسه و خطبه الملتهبة الحماسية لعبت دورا بارزا فى نفخ الروح الدينى فى مسلمى هذه المديريات و تشحيذ عزائمهم و إثارة عواطفهم، حتى هدأت الموجات و توقف النزوح. و قد يشعر كثير من الناس كنفسى أنه لو كانت فى صحة الشيخ بقية من الجد و الجهد و ساعدته الأوضاع و عاضده الرفقاء و الأتباع، و لم تكن الأوضاع و الملابسات - على العكس مما كان يرجى - أنهكت قواه و أضعفت جوارحه لاستطاع الشيخ أن يعالج الأوضاع المتغيرة المتدهورة و يوجهها توجيها رشيدا و يسدد خطاها و يقاوم الاتجاهات المنحرفة بنفس الهمة و الطاقة:

و لو أن قومى انطقتنى رماحهم نطقت و لكن الرماح أجرّت

بذل الشيخ أنفس طاقات شبابه و فتوته و أروع صلاحيات عقله و قلبه و جل شهامة نفسه و علو همته القلبية فى مقاومة الإنجليز و إجلائهم، الأمر الذى قد أعدته لذلك صحبة شيخ الهند و تجربته و دراسته، فلما ظهرت طلائع ثورة ١٩٤٧م الحديثة بمقتضياتها الطريفة و متطلباتها المتنوعة كان يواجه انحطاط السن و اضمحلال الأعصاب و القوى و تضخم الأشغال و الواجبات، و كان الرأى السائد أن مجرد بقاء المسلمين فى هذه البلاد فى خضم الأوضاع الشائكة آنذاك نوع من الفتح و الانتصار العظيم. و أنه قد جاء دور أولائك الذين يعشرون على الآثار البعيدة لهذه الثورة و يقدرون على الصمود فى وجهها علميا و فكريا.

إن شخصيته تجمع أشتاتا من الفضائل و المتناقضات من الخصائص. يتعسر علينا أن نقدر الميزة التى تتصدر المقدمة و تحتل أبرز المكانة و أروعها من بين مزاياها و خصائصها، و التى يمكننا أن نعتبرها قطبا لتلك الشخصية تدور حوله جميع مواهبها و مزاياها و تسهل به معرفة حياتها و خصائصها. إن

Converted by Tiff Combine - unregistered

كثيرا من الناس يعرفون الشيخ كعالم و محدث، و آخرون كمصلح و عارف ربانى و منهم من يعرفه كموجه سياسى و مجاهد، و لا شك أن الله تعالى وفقه أن يتحلى بأشتات هذه الفضائل و المتناقضات من الخصائص و الأعمال ، و لكن ميزتين لحياته تحتلان ـ فى رأيى الناقص ـ المكانة الرئيسية فى حياته و تميزانه من بين أقرانه و معاصريه : و هما العزيمة و الأنفة و الحمية ، و أى دليل أكبر على عزيمته أن تجاوز و تخطى دائرة العلماء و أهل التدريس ، و اعتنى بالقضية التى كانت من أهم و أخطر القضايا آنذاك، و أحرز شرف أفضل الجهاد لـ "كلمة حق عند سلطان جائر" بما أعلن الحق مدويا و رفع كلمته عاليا أمام حكومة الإنجليز و هى فى ريعان شبابها و شمسها فى رابعة النهار، قضى أيامه أسيرا فى "مالتا" و اقتفى السنة اليوسفية بأسارته فى المعتقلات الهندية شهورا و أسابيع، و صمد فى وجه أعظم و أقوى دولة العالم صمود الجبال الراسيات سنين طوالا، حتى حقق الله غايته المنشودة، ثم إن هذه العزيمة تتجلى بأروع أشكالها فى جميع نواحى حياته، فالقيام بالواجبات و المحافظة على السنن و المندوبات و التزام الأوراد و الوظائف إستقامة عظيمة فى هذا الزمان ، كما أن إيفاء العهود و المساهمة فى الاحتفالات و الاجتماعات الدائية و تحمل كل صعوبة و مشقة فى سبيلها استقامة مستقلة، ثم إن المواظبة على دروس دار الحديث و إكمال المقرر الدراسى جهاد كبير، و إكرام الضيوف و لقاء الزوار بوجه طليق و حسن معاملته مع الأشخاص المختلفى الطبائع و العادات و تحمله و صبره على خصائصهم الطبيعية المتنوعة أيضا جهاد كبير، و زد على ذلك تربيته لمعتقديه و مراقبتهم و رده على الرسائل الكثيرة، و كل ذلك فى خضم أشغاله و واجباته و ضعفه و نقاهته ، أفليس كل ذلك دليلا على عزيمته المدهشة الخارقة و علو همته المعجز الباهر؟ الواقع أنه برهن على العمل بالحديث الشريف: إن الله يحب معالى الأمور و يكره سفاسفها ، و أثبت صهر هذا الحديث فى جميع نواحى حياته.

و الحمية أروع و أزهر عنوان لصحيفة حياته، فهى التى أثارت فيه عاطفة معارضة الإنجليز و مكافحتهم التى لم يشبع منها إلاّ بعد ما طوى الإنجليز بساطهم من هذه البلاد ، و هى التى كانت تدفعه إلى الحماسة و الانتعاش فى شئون حركة الخلافة و جمعية العلماء، و هى التى جعلته شابا متحمسا و منتعشا فى كل حين و آن، و هى التى أثارت حماسة مئات بل و ألوف من الناس ، و كانت هى الحمية التى حملته على أن يقرأ القنوت شهورا ضد القوى المعادية للاسلام مدويا مجلجلا بشىء كثير من الحماسة و النشاط حتى يظهر أن المعاريب قد تتصدع و أن ليست هناك كلمات تنطق و إنما هى شررات يقذفها القلب قذفا، و كان من نتيجة هذه الحمية نفسها أن لم يتحمل قط ـ و لو للحظة ـ أن ينظر أمامه منكرا يرتكب أو عملا منافيا للسنة يقترف، و كثيرا ما كان جلساؤه و الحاضرون حوله يشعرون بحرارة هذه

Converted by Tiff Combine - unregistered

الحمية، و قد استغلّه أحيانا أناس عرفوا فيه هذه العاطفة النارية، و أدركوا مدى سراية هذه الحمية فى شرايينه و سيطرتها على نفسه، كما أن كثيرا من الناس استغلّو كرم طبع الشيخ و مروءته هى ميراث الآباء و من شيم السادات الكرام، و بذلك تسببوا فى خزى محبيه المخلصين و معتقديه البارين، و برهنوا بتحقيق أغراضهم النفسية و رغباتهم الشخصية على توسمّيتهم و انتهازيّتهم و نفعيتهم و مصلحيتهم و ألحقوا الضرر بشخصية الشيخ و أذوه.

مهما كان الشيخ رفيعا من الناحية العلمية و السياسية، فلا أنكر ذلك، و سيكتب عن ذلك الكاتبون و يتابعه المتابعون، و لكن الناحية التى هى أروع و أشرق نواحى حياته و أكثرها جدارة بالتقدير و الإعجاب إنما هى مروءته السامية و عظمته الانسانية.

إن دنيا العلم و الأدب لاتخلو من الشخصيات الفذة و الباحثين البارعين المتبحرين ، و يمكنهم أن يختلفوا في آراء الشيخ السياسية، فكم أحرز الشيخ النجاح و الصواب فيما عقد رجاءه بتحرر البلاد ببعد نظره ، و فيما قدره عن أغلبية هذه البلاد بكرمه الفطرى و نزاهته النفسية، و مالقى الشيخ اليأس و القنوط فى اخر عمره من تأمين الضمان و منح الشرعية ـ الذى ضمنه قرار حزب المؤتمر الوطنى و دستور الهند ـ للأحوال الشخصية و اللغة و الثقافة و التعليم الدينى، و مالقى تجارب مرة مؤسفة عن زملائه و رفقائه ـ بعد ما شغلوا المناصب و حصلوا على السلطة و النفوذ ـ فى المعتقدات و الجهود السياسية، كل ذلك من الظواهر التى مهما عجزنا عن إظهارها لكن قلم مؤرخ المستقبل لن يمنعه شىء عن تسجيلها و إبرازها أمام العالم عن مجاهل التاريخ، على أن الشئ الذى لاترتقى إليه الشبهة و لا يقبل أى بحث أو نزاع و جدال هو سمو خلق الشيخ و قداسة شخصيته و نزاهة نفسه وعفة بطنه و خلوص جهده و صفاء حياته و شفافية قلبه و مكارم أخلاقه التى جعلت شخصيته ذهبا خالصا و جوهرا صادقا، و بلغت به إلى قمة العظمة الخلقية و السمو الطبيعى الذى تمثل به شاعر الدور الأول العربى قائلا :

هجان الحى كالذهب المصفى صبيحة ديمة يجنيه جان

وفق الله كاتب هذه السطور أن يشاهدالشيخ عن كثب وفى مختلف الأحوال من السفر والاقامة والرضى و الغضب و الشغل و الفراغ و الخلوة و الاجتماع، وقدرالله أن يتخذ الشيخ بيتنا منزلا له فى لكناؤ منذ سنة ١٩٣٠م فى أسفاره و هى كثيرة تكاد تكون مستمرة، و هذه السعادة يرجع فيها الفضل إلى شرف بيتنا ومجد أسرتنا حضرة الدكتورالسيد عبد العلى مدير ندوة العلماء، فان له خصائص اكتسب بها ودّ الشيخ وعنايته الزائدة، كما تسنى لي أن أتعرف على كثير من نواحى حياة الشيخ و أشغاله وخصائصه الطبيعية أثناء إقامتى البدائية الطويلة فى ديوبند و مختلف الإقامات فيما بعد.

Converted by Tiff Combine - unregistered

تذوق السير و التراجم و دراستها و لاسيما المطالعة المتكررة و الخدمة المتواصلة لأكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية في السير و التراجم "نزهة الخواطر"(١) لمؤلفه والدي الجليل العلامة السيد عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء السابق عوّدني ذلك على مشاهدة الشخصيات بدقة و رصانة و دراسة سيرهم و خصائصهم بنظر دقيق و تحديد و تعيين و اختبارهم بمعايير السلف الثابتة، و انطلاقا من هذه الوجهة و الطبيعة كلما رأيت الشيخ وجدته القمة في الكرم و الشرف و المروءة و سمو النفس و هضمها و الخلوص و النزاهة و السيرة و الأخلاق . و قد ترك ذلك على نفسي أثرا عميقا لعلو ه و سموه، بحيث كلما اعتذر ذوقي و عقلي عن التجاوب مع أي رأي سياسي للشيخ أو تعليق و اتجاه علمي له و لم يستسغه عقلي تماما فقد حالت دوني جانبية شخصيته و سمو سيرته و خلقه و نزاهة نفسه و شفافية قلبه، و أطللت على حبيبي فاذا بقلبي عامر بود الشيخ و هيامه و يفيض حبا و حنانا، لم ينقص منه شيئا.

وجدت الشيخ كاملا على المعايير السامية للعظمة الانسانية و السمو الخلقي، فكان الخلوص و الصفاء جوهر حياته و الدافع لجميع أشغاله و جهوده و نشاطاته، فكما أن بعض الانتهازيين يصعب لهم أن يكونوا مخلصين على أي حال و في أي عمل مهما تكلفوا ذلك و اجتهدوا فيه . بناءا على أنه قد أصبحت الانتهازية و التوسعية و حب الظهور بمثابة الطبيعة الثانية لهم، كذلك إن المخلصين الذين طبعهم الله على النزاهة و الاخلاص يستحيل لهم أن يكونوا غير مخلصين، و تندفع طبائعهم بدافع من نفسها إلى الاخلاص و التقى . حتى أن العمل الذي تتم مزاولته مدفوعا بالأغراض في عامة الأحوال، من مزايا الصالحين المخلصين أنهم يقومون بهذا العمل أيضا مترفعا عن الأغراض الخسيسة و مدفوعين بدافع من الاخلاص و الاحتساب. فالدور الريادي المدهش الذي لعبه الشيخ في حركة تحرير الهند، و ما تحمل المشاق و الصعوبات في سبيل ذلك، إنما قام بذلك كله مدفوعا بدافع قوي من بغضه الشديد و كراهيته للإنجليز ـ الذين كان يعدهم من أعدى أعداء الاسلام و معاديه ـ و تحرير الهند . و تمهيد الطريق بذلك لتحرير الدول الاسلامية ، و زد على ذلك عاطفته ـ و لعلها كانت تعدل سابقتها ـ للطاعة و الاتباع لمشائخه و أسلافه و لاسيما مربيه و مرشده الحبيب شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي ، و لم تخطر بباله سوى ذلك أي خاطرة من النفع المادي و المصلحة الشخصية، و لذلك لما نالت استقلالها و قامت الحكومة النيابية اعتزل الشيخ السياسة العملية، و عكف على الدرس و الافادة . و أكب على الدعوة إلى الله و تربية النفوس، لايتصل بالحكومة و رجالها، كأنه قد أدى وظيفة و انتهى دوره، و أعتقد أنه لم يكن في الزعماء و قادة الدرجة الأولى إلاّ هو وحده الذي لم يتسلم أدنى قيمة لتضحيات الجسيمة و حياته السياسية السابقة، حتى أنعم عليه

Converted by Tiff Combine - unregistered

رئيس الجمهورية فى جمادى الأولى ١٣٧٣هـ برتبة فخرية. فرفض ذلك قائلا إنه لا ينسجم مع طريقة سلفه. و بقى فى ديوبند يدرس الحديث الشريف ، و يتجول فى الهند ، يدعو المسلمين إلى التمسك بالدين، و اتباع الشريعة الغراء و اقتفاء السنن النبوية و إصلاح الحال، و لم يقتصر الشيخ على أنه لم يتسلم أدنى قيمة لخدماته و جهوده السياسية بل لم يطلب أى قيمة لأى ميزة له و لا أى صلاحية و لا موهبة و لا براعة فنية له. و قد يشهد من يعرف الواقع و يتابع الأحداث أن الراتب الذى كان يتقاضاه فى ديوبند - و الذى كان يظهره و يعلنه كدليل على أنه دنيوىّ - لم يكن ليغطى نفقة مائدته الواسعة لأسبوع بل و لنصف أسبوع، و قد كان ينتقض جله لعدم الحضور بالأسفار و الجولات ، الواقع أنه قضى حياته كلها فى الإخلاص و الاحتساب. و إنما ألقى عليها إخفاءاً لها ستار راتب المدرسة ، و قد كان يمكن أن يتقاضى تلاميذه راتباً أضخم منه بكثير.

و كان الشيخ نسيج وحده فى التعامل بمعيار آخر للسمو الانسانى و الخلقى و هو *خُذ العفو و أمر بالعُرُوف و أعرِض عن الجاهلين* و *ادفع بالتى هى أحسن* و الصبر على انكاره و المسامحة للاعداء بل إسداء الخير إليهم و التزام الدعاء فى صالحهم ، فلم يشتك و لم يبد شيئا مما لقيه فى محطة جالندهر و بريلى و سيد بور من الأحداث المخزية المحزنة التى تخضت حتى الحدود البدائية للانسانية و الشرافة و التى بمجرد ذكرها يتندى جبين الانسانية حياءً و تكاد تتصدع الأكباد بحسبانها، بل سمعه الناس - على ما أعلم - يدعو بهولاء الكفورين فى سحره و تهجده بالضراعة و الابتهال، و كلما دعت الحاجة هولاء الطاعنين المتهمين المستهزئين و طلبوا هم أو أقاربهم من الشيخ رسالة شفاعة، لم يبخل عليهم بحفاوته و بشاشته، و وده و عنايته و شفع لهم عن طيب الخاطر و البشاشة الكاملة بكلمات ضافية عالية، و إن هاول أى خادم من خدامه أو رفيق من رفقائه بهذه المناسبة أن يعرّفهم به و يذكّره مأجرياتهم السالفة سرده طردا و أنبه تانيبا شديدا. الواقع أنه كان يقتفى بالأسوة النبوية العطرة: و أنْ أعفُو عمّن ظلمنى و أصلُ منْ قطعنى و أعْطى مَن حرمنى

لم يكن الشيخ ينتمى إلى بيت غنى و ثرى نسبيا و عائليًا، و لكن الله وهبه همة الملوك و سماحتهم - سامحنى الله لقد أخطأت - بل و سماحة الأتقياء و العارفين و ورثة الأنبياء، وسعة صدورهم و رحابة ذرعهم، فكان عمله فى الحياة بطولها طبقا لـ اليدُ العُليا خيرٌ منَ اليَد السفلى و قل أن أصبح مدينا لفضل الآخرين ، بل - على العكس من ذلك - أنعم على عالم بأسره و أفضى إليه الخير، فقد كان مضيفه من أوسع مضيفات الهند، و كانت مائدته من أوسع موائدها، و الواقع أن قلبه كان أوسع من مائدته، و يقدر أن كان يجلس حول مائدته حوالى خمسين رجلا كل يوم ، من كل أصناف الناس و طبقاتهم من علماء

Converted by Tiff Combine - unregistered

، سياسيين و متصوفين و متطوعين يذهبون إلى السجون أو منها يعودون، و كانت حفاوة الشيخ و بشاشته و نشاطه و تحمسه و نظمه و اهتمامه بنم كل ذلك عن مدى سروره و أنسه ، و انبساطه و ابتهاجه، و لذته و حلاوته الروحية.

لقد كان أصبح إكرام الضيوف و النزلاء و تأمين راحاتهم و إطعام الطعام غذاءه الروحي و طبيعته الثانية، ثم إن التواضع و الانكسار و التكريم و الاحترام و الحفاوة و البشاشة التي كان يلقى بها ضيوفه يذكرنا بشعر الشاعر العربي القديم:

و إني لعبد الضيف ما دام نازلا و ما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

و لم يكتف بذلك بل حاول في كل مناسبة و فرصة أن تكون يده عالية و تسنح له فرصة النفع و الافادة بدل الانتفاع و الاستفادة، فان أحس إليه أحد شيئا أو خدمه في أي أمر حاول بأقصى وسعه أن يسدي إليه خيرا ما و يوفي حقه ، فكل ما قرأت عن سماحة أهل البيت و شهامتهم و جراءتهم و بسالتهم وجدت عكسه و ملامحه بارزة متجلية في حياة الشيخ و سيرة بعض أقرانه و معاصريه الكبار.

إن سوء الظن بنفسه و استحضار معايبه و إعلانها مع التحلي بمحاسن الخلق و مكارمه و شهامته لدليل على سمو المروءة و كمالها و برهان على أن الانسان قد ارتفع عن سيطرة النفس الأمارة و تنزه عن الاغترار بالنفس و الاعجاب بالنفس، قد تجلت هذه الخصلة في حياة الشيخ و ازدان بها عمله دور قوله.

كان الشيخ يكتب اسمه مقرونا بـ "سبّة الأسلاف" و قد استهزأ بذلك بعض الصحفيين القساة، لكن الذين يعرفونه عن كثب و يعثرون على أحواله الواقعة لايشكون أن هذه النعوت و الأوصاف يمكن أن تكون عادات و تقاليد للآخرين لكن كان ذلك إيمان الشيخ و اعتقاده في نفسه و لم يكن يشوبه شيء من التكلف و الاصطناع، فكان يعتبر نفسه "سبة الاسلاف" و يؤمن بذلك عن قرارة النفس و بشاشة القلب، بينما جعله الله خير خلف لأسلافه و مصداقا لـ "نعم الخلف لنعم السلف".

و إضافة إلى هذا اللقب المتواضع - سبة الأسلاف - كان الشيخ كثيرا ما ينشد بشيء كثير من التلهف و التأوه و الزفرة المتصاعدة أشعارا تنم عن مدى ندامته و خجالته من نفسه و إنكار الذات و عدم اعتبار نفسه شيئا، أذكر أنني ذات مرة - و كنت آنذاك في سن صغير - أسكب الماء على يد الشيخ أو كان يتوضأ فكان ينشد البيت التالي بحسرة زائدة و لهفة كبيرة و زفرة متصاعدة:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم بقي الذين حياتهم لا تنفع

Converted by Tiff Combine - unregistered

كما كان ينشد البيت الفارسي التالي :

نه گلم نه برگ سبزم نه درخت سايه دارم
درين حيرتم كه دهقان بچه كار كشت مارا

يقول الشاعر: لست بزهرة و لا ورقة خضراء و لا شجرة مظلّلة ، فأتحير على أن الفلاح لأى غرض زرعنى و أنبتنى؟

و يمكن أن أقدم كثيرا من مقتبسات رسائل الشيخ. تـدل على أنـه كان لا يعتبر نفسه شيئا و أن الله بلغ به إلى القمـة فى التواضع و انكار الذات و كسر النفس ، لكننى التزمت فيما كتبت ما يتصل بمعرفتى الشخصية و ما شاهدته عيناى عن كثب لا عن كتب، و شتان ما بينهما.

لقد كثر المتاسفون على ماوقع بوفاته الفراغ فى نادى العلم و السياسة، لكن قل من يتألم و يشعر بالفراغ الذى وقع فى مقدمـة الأخلاق و الانسانيـة و قطبها الرئيسى، و لعل السبب فى ذلك أنهم لايعتبرون المروءة ميزة يزينون بها شيخا أو عالما فيشعروا بأى فراغ بوفاة شيخ ربانى" لكنى أعتقد ـ على العكس من ذلك ـ أن فاجعة وفاة الشيخ المدنى فى هذا العهد الذى يعانى من جفاف ينابيع الانسانية و يشكو من قحط الرجال ليس إلاّ خسارة خلقية فادحة و رزينة إنسانية لاتعوض

و ما كان قيس هلكه هلك واحد
و لكنّه بنيان قـــــوم تهدما

تعريب : أفتاب عالم الندوى

الهوامش :

١ - أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية فى تراجم الرجال الذين نبغوا فى الهند من القرن الاسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) يغطى المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجرى ، و المساحة المكانية من مرو خوبر فى الشمال الغربى من الهند إلى خليج بنغال فى الشرق. و من قلل كشمير إلى "مالابار" و "كالي كوت" فى الجنوب . و الأعيان مـن كل طبقـة علـى اختلاف مذاهبهم الفقهية و اتجاهاتهم العلمية، و اختصاصاتهم العلمية، فجاء فى ثمانية مجلدات كبار، يحتوى على أكثر مـن أربعة الاف و خمس مائة (٤٥٠٠) من التراجم، صدرت طبعتان للكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدرأباد -الهند-

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشيخ ولي اللّه المحدث الدهلوي و أسرتـــــه

بقلم: المفتي نسيم أحمد الفريدي
شيخ الحديث بالمدرسة الإسلامية امروها، انفأ

إن الشيخ ولي اللّه المحدث الدهلوي - رحمه اللّه - من عظماء الهند الذين تعتز بهم الهند بحق، و إن بركات هذه الشخصية العظيمة لم تقتصر على الهند و السند بل نفذت إلى الدول الأخرى و العالم الإسلامي بأسره أيضا. فقد كان محدثا نابغا و فقيها منقطع النظير في جانب، و خبيرا برموز علم التصوف و صوفيا محققا و مفكرا و متكلما ذا مكانة عالية في جانب اخر و كانت دائرة تلاميذه واسعة جدا، منهم مولانا نور الدين البوداني، و الخواجة أمين اللّه ولي اللّهي الكشميري، و الشيخ محمد عاشق الفولتي، و العلامة السيد مرتضى البلغرامي ثم الزبيدي مؤلف "تاج العروس في شرح القاموس"، و الحاج نواب رفيع الدين الفاروقي المراد آبادي صاحب مؤلفات جمة.

كان الشيخ ولي اللّه المحدث الدهلوي رجلا عبقريا، و يتصل نسبه عن أبيه بأمير المؤمنين عمر الفاروق - رضى اللّه عنه -، كما ينتهي نسبه عن أمه إلى خليفة الرسول أبي بكر الصديق - رضى اللّه عنه -، و قد كان في عمومته و خؤولته شخصيات مجيدة و أصحاب العلم و حملة العلم.

و قد نسي كل من تصدوا لترجمة الشيخ ولي اللّه المحدث الدهلوي أنه ولد في قرية "فولت" (PHULAT) بمحافظة مظفر نغر في عام ١١١٤هـ و كان الشيخ محمد الفولتي، جدّه لأمه، صوفيا و درويشا ملحوظ المكانة، و كان بايع الشيخ عبد الرحيم، و كانت بنته فخر النساء والدة الشيخ ولي اللّه الدهلوي، كما كان نجله الشيخ عبيد اللّه الفولتي حماه و خاله الحقيقي، و كان يتمتع بمكانة مرموقة بين مشائخ فولت.

كان الشيخ عبد الرحيم الفاروقي والد الشيخ ولي اللّه الدهلوي أيضا قد حوى فضلا جما، فقد تلقى العلم على نابغة العلوم العقلية ميرزا زاهد الهروي،

Converted by Tiff Combine - unregistered

كما أخذ عن شقيقه أبو الرضاء و الخواجه خورد. و استفاد مـن الحافظ السيـد عبد الله الأكبر آبادى فى السلسلة الأدمية المجددية، و الخليفة أبى القاسـم الأكبر آبادى فى السلسلة الأبى العلائية، والسيد عظمة الله الجشتى الأكبر آبادى فى السلسلة الجشتية. و الشيخ وجيه الدين والد الشيخ عبد الرحيم أيضا كان عالما متدينا و شجاعا ثابت الجنان. إن البيئة العلمية و الروحانية لخؤولة الشيخ ولي الله الدهلوي و عمومته قد أثرت تأثيرا حسنا فى سيرتـه و سلوكه، و لم يال والده الشيخ عبد الرحيم الفاروقى جهدا فى تعليمه و تربيته، فلم يكن يبلغ السنوات العشر من عمره حتى استظهر القرآن الكريم و فرغ من تحصيل العلوم العقلية و النقلية و هو ابن ستة عشر عاما. و لما استأثرت رحمة الله بأبيه حل محله و هو فى سنته السابعة عشرة من عمره، و نقع غلة مئات من ظامئى العلم و طلبته، و قام بترقية المدرسة الرحيمية، كما طور طرق التعليم فى دهلي، و بعد نحو اثنتى عشرة سنة منذ وفاة أبيه غادر فى عام ١١٤٣هـ إلى الحجاز للحـج و تحصيل علم الحديث، و مكث بها عامين، و قرأ على الشيـخ أبى الطاهر المدنى الكردي و غيره من المحدثين الكبار، و قد سرّ أساتذته بذكاءه الموهوب سرورا بالغا، و أثنوا عليه ثناء عطرا.

و على رجوعه من الربوع المقدسة أقبل على التدريس، و لكنه الآن أخذ يعنى بالتأليف عناية أكثر. و من مؤلفاته "*إزالة الخفاء*" و "*حجة الله البالغة*" مما يصعب أن يوجد لهما من مثيل.

و إلى ذلك ألّف عشرات من الكتب و الرسائل، و كان قد حوى براعة فى كل فن، و خاصة فى علم الحديث و التفسير و الفقه و التصوف كانت له ضلاعة أي ضلاعة. و تلوح سمات الاجتهاد التحقيقى فى كتبه التى حررّها حول التصوف، كما كتب فـى قضايـا "*التوحيد الوجودى*" و "*التوحيد الشهودي*" و جعل هذا الخلاف خلافا لفظيا. و حاول فى جميع مؤلفاته ما وسعته المحاولة أن يبعث الظن الحسن بجميع مشائخ التصوف. و إن كتبه من أمثال "*الانتباه فى سلاسل أولياء اللـه*" و "*القـول الجميـل*" و "*الهمعـات*" و "*الهوامـع*" و "*التفهيمات الإلهية*" و "*خير كثير*" و "*البدور البازغة*" و "*قرة العينين*" و ما إلى ذلك، خير شاهد على موهبته الفائقة. كما نقل القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية و سماه "*فتح الرحمن*" وهو من المستوى العالي بحيث يندر له مثيل بين الترجمات الفارسية، و لا يستطيع أن يدرك أسرار هذه الترجمة الفارسية و فوائدهـا إلاّ من درس عـدة تفاسيـر القرآن الكريم و ترجماته

و دبج رسالة صغيرة فى حجمها و جليلة فى معانيها فى أصول التفسير، و سماها "*الفوزالكبير*"، و قد ترجمت أيضا فى اللغة العربية، و هى تدل دلالة واضحة على نبوغ الشيخ ولي الله الدهلوي فى تفسير القرآن الكريم.

و عاصر الشيخ ولي الله الدهلوي عديدا من الملوك المغول، و دعاهم ببصيرته السياسية إلى إقامـة العـدل، و قدّم إليهم خطة القيـام علـى المال

Converted by Tiff Combine - unregistered

و العباد. و إن رسائله التي تنم عن سياسة ذلك العصر تدل على أنه كان أوتي حظا موفورا من النباهة الدينية و الكياسة الدنيوية.

و تكاثر المسترشدون منه، و لكنه امتاز من بينهم الشيخ محمد عاشق الفولتي. و كان الشيخ أبو سعيد الحسني الراني بربلوى جد السيد أحمد الشهيد لأمه أيضا قد أخذ عنه و تدرب عليه، و كان خليفته و مجازا منه

و حمل نجله الكريم الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي عنه جميع علومه الظاهرة و الباطنية، و انتشرت بعد على يديه و على يد الشيخ محمد عاشق الفولتي علوم الشيخ ولي الله الدهلوي أكثر فأكثر.

كان الشيخ محمد عاشق الفولتي ابن خال الشيخ ولي الله الدهلوي، كما كان أخا زوجته و تلميذه و مريده و خليفته، و كان حضر معه دروس الحديث بالحجاز. و من أكبر مآثره أنه جمع مسودات كتب الشيخ ولي الله الدهلوي و قام بتبييضه و ترتيبه بجهد جهيد في حياته و بعد مماته أيضا. و كان بدوره مؤلفا، و رسالته *سبيل الرشاد* من أحسن كتبه في علوم التصوف.

و قد عني الشيخ محمد عاشق الفولتي بجمع رسائل الشيخ ولي الله الدهلوي أيضا، و كان بادىء ذي بدء يقوم بجمعها إبنه الشيخ عبد الرحمن. و لكنه بعد وفاة إبنه أقبل على هذا العمل بنفسه، و أنجزه بجهد و تعب بالغين. و قد التزمت ندوة المصنفين بدلهي بطبع الرسائل السياسية لهذه المجموعة مصحوبة بالترجمة الأردية لهذا العبد المتواضع، و قدم لها البروفيسور خليق أحمد النظامي و وضع عليها تعليقات. و سوف تقوم المؤسسة الهندية للدراسات الإسلامية بدلهي الجديدة بطبع أكثر من منتى رسائله الدينية و العلمية الأخرى مع ترجمة هذا العبد المتواضع و مقدمته و تعليقاته. إن هذه الرسائل أيضا تلقي ضوءا على حياة الشيخ ولي الله الدهلوي، و نتعرف فيها ببعض ما لا نعثر عليه في مؤلفاته سوى هذه المكاتيب و الرسائل.

و ساهم الشيخ محمد عاشق الفولتي في تعليم الشيخ عبد العزيز و إخوته و تنشئتهم مساهمة كبيرة. فلما توفي الشيخ ولي الله الدهلوي عام ١١٧٦هـ كان الشيخ عبد العزيز آنذاك ابن ستة عشر عاما، و مع أنه كان قد أخذ عن أبيه شيئا كثيرا و لكن تنشئة الشيخ محمد عاشق الفولتي قد جلت مؤهلاته العلمية و الروحانية.

كان الشيخ عبد العزيز أكبر أولاد الشيخ ولي الله الدهلوي من زوجته الثانية، و كانت ولدت له زوجته الأولى إبنه محمد الذي استوطن (بودانا) (BUDHANA) من محافظة مظفر نغر و توفي بها و دفن في ركن من المسجد الجامع هناك.

و كان للشيخ عبد العزيز ثلاثة أشقاء آخرون، و هم: الشيخ رفيع الدين عبد الوهاب و الشيخ عبد القادر و الشيخ عبد الغني.

إن هؤلاء الإخوة كلهم كانوا أفذاذا في مواهبهم العلمية و توقد ذكاءهم

Converted by Tiff Combine - unregistered

و علو أخلاقهم و التزامهم بالشرع الحنيف. خلف الشيخ عبد العزيز أباه في مجلس العلم و قام بأداء حق خلافته خير قيام. و قد ترك عددا لا بأس به من تلاميذه و أتباعه. و الشخصيات البارزة منهم: أشقاءه الثلاثة، و ابنا أخيه الشيخ محمد اسماعيل الشهيد و الشيخ محصوص الله، و سبطاه الشيخ محمد اسحاق الفاروقي المحدث (المهاجر) و مولانا يعقوب الفاروقي المحدث (المهاجر)، و الشيخ غلام علي الدهلوي، و مولانا المفتي الهي بخش نشاط الكاندهلوي، و رشيد الملة مولانا رشيد الدين الدهلوي، و مولانا كرم الله المحدث الدهلوي، و مولانا سلامة الله كشفي البدايوني ثم الكانفوري، و مولانا حسين أحمد المليح آبادي و غيرهم - و من الذين تلقوا إجازة الحديث من الشيخ عبد العزيز الشيخ فضل رحمن كنج المراد آبادي.

إن مؤلفات الشيخ عبد العزيز و رسائله أيضا تدل على موهبته العلمية الفائقة، فإنه لايوجد مثيل لكتابيه "*التحفة الإثنى عشرية*" و "*تفسير عزيزى*" - و كتبه الأخرى أيضا مفعمة بالعلوم و المعارف. و من الأسف أن كثيرا من مسوداته و كتاباته قد سقطت من يد الزمان.

و قد عمّر الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي طويلا حتى عاش ثمانين سنة، و كان كف بصره في أخريات أيامه، و تكالبت عليه الأمراض الأخرى حتى عاقته عن التدريس، فخلفه أخواه الشيخ رفيع الدين و الشيخ عبدالقادر في مسند الدرس، و لم يدعا أن يخالط أي فتور في النشاطات التعليمية و التدريسية و التصنيفية التي كان بدأها الشيخ ولي الله الدهلوي.

و كان الشيخ عبد الغني أصغر أشقاءه الذي لم يشتهر بنفسه، و لكن طار ذكره بسبب نجله الكريم الشيخ محمد اسماعيل الشهيد الدهلوي. و ترجم الشيخ رفيع الدين و الشيخ عبد القادر أيضا معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأردية، و تملأ هذه الترجمات بنكات و مزايا ما لا تخفى على العلماء، و قد أكثرا من استخدام الكلمات الهندية في هذه الترجمات.

و الجدير بالذكر أن الذي آخر من رأى نور الدنيا بين هؤلاء الإخوة الأربعة، كان أول من انتقل إلى الدار الآخرة، و كذلك توفي الشيخ عبد القادر أولا ثم الشيخ رفيع الدين - رحمهم الله رحمة واسعة -.

و بعد وفاة الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي خلفه سبطه الشيخ محمد إسحاق المحدث الدهلوي، و قام بمهمته خير قيام، و لكنه هاجر قبل ثورة ١٨٥٧م المصادف لـ ١٢٧٣هـ بخمسة عشر عاما في ١٢٥٨هـ.

إن قائمة تلاميذه النبغاء أيضا طويلة جدا، و يدخل في عدادها المفتي عبد القيوم بن مولانا عبد الحيء البودهانوي، و الشيخ عبد الغني المهاجر المدني، و المقرى عبد الرحمن المحدث البانى پتى، و الأمير قطب الدين خان الدهلوي مؤلف "*مظاهر حق*"، و مولانا أحمد علي المحدث السهارنفوري، و مولانا شيخ محمد المحدث التانوي، و مولانا عالم علي الكنيني ثم

Converted by Tiff Combine - unregistered

المرادآبادي، و مولانا نذير حسين المحدث الدهلوي. و انتفع خلق كثير بمولانا عبد الغني الفاروقي المجددي. و قد كان تلقى منه بالذات مولانا محمد قاسم النانوتوي و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي دروس الحديث في زاوية الشيخ غلام علي.

و قد تابع تدريس الحديث الشريف إلى زمن طويل مولانا احمد علي السهارنفوري في سهارنفور، و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي في كنكوه، و مولانا محمد يعقوب النانوتوي في ديوبند، و مولانا محمد قاسم في ميرث، و مولانا عالم علي في مراد آباد، و مولانا حسن شاه المحدث ثم مولانا محمد شاه المحدث في رامفور. ثم أخذ مولانا سيد أحمد حسن المحدث الأمروهي و شيخ الهند مولانا محمود حسن المحدث الديوبندي تلميذا مولانا خليل أحمد و مولانا محمد يعقوب يروى عطشى علم الحديث من حوض الشيخ ولي الله الدهلوي. و قد عمت بجهودهم بركاته في جميع مقاطعات الهند و أقطارها حتى خارج البلاد. و في الزمن الأخير كان من المنتمين إلى أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي العلمية مولانا أشرف علي التانوي، و مولانا الحافظ عبد الرحمن الصديقي المفسر الأمروهي، و وقار المحدثين مولانا محمد أنور شاه المحدث الكشميري، و شيخ الإسلام مولانا سيد حسين أحمد المدني، و مولانا عبيد الله السندي، و المفتي محمد كفاية الله الشاهجهانفوري ثم الدهلوي، و مولانا شبير أحمد العثماني، و مولانا سيد فخر الدين أحمد المحدث، الذين نفعوا المسلمين عربا و عجما بمؤلفاتهم و خدماتهم التدريسية. و ليس عدد مسترشديهم الروحانيين بأقل من الذين أفادوهم في حقل التعليم. و إلى جانب دار العلوم في ديوبند، و مظاهر العلوم في سهارنفور، و دار العلوم لندوة العلماء في لكناؤ، و المدرسة الإسلامية العربية في أمروهة. و مدرسة شاهي في مرادآباد، إن جميع معاهد تدريس الحديث و المدارس الشهيرة في ميرث، و مظفر نفر، و جولاوتسي (GULAOTHI)، و خورجه، و سنبهل، و عليجر، ونجيبنة، (NAGINA) وبريلي، وشاهجهانفور، و مئوناث بهانجن، و غوسي، (GHOSI) و مباركفور، و سرائي مير، و بنارس، و مقاطعات بيهارو بنجال و غجرات و حيدر آباد الدكن، و بوفال و تونك (TONK) و مدراس و دولة باكستان، كلها تتدرج في سلسلة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي. و قد قال شيخ الحديث مولانا محمد زكريا-رحمه الله- : إنه لا يوجد أي معهد ديني و مؤسسة تعليمية و مدرسة لأهل السنة و الجماعة حيث يدرس القرآن الكريم و الحديث الشريف في شبه القارة الهندية لا تمت إلى الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي.

تعريب : ولي أختر الندوي

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشريفُ الرَّضي
الشّاعر الأبي والأديب العبقري

بقلم: مروان العطيّة
ديرالزور - سوريا

مقدمة:

ولد الشريف الرضي في القرن الرابع الهجري، و قد لقي هذا القرن من الباحثين في العصر الحديث عناية فائقة، و اهتماماً كبيراً، و حرصاً على كشف جوانبه المختلفة من سياسية و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية، لأسباب عدة أظهرها أنه كان العهد الذي بلغت فيه الحضارة الاسلامية ذروتها، و استوت فيه على سوقها، و الباحثون تغريهم دائماً الفترات المضيئة في حياة الأمم لأنها بضوئها و التماعها تجذبهم إليها فإذا ما فرغوا من التعرف على أسرارها ثنوا عطفهم إلى ما هو أقل التماعاً منها في سائر العصور.

و كانت حياة الرضي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري و السنوات الست الأولى من بداية القرن الخامس، في بغداد، و عاصر في تلك الفترة من خلفاء بني العباس المطيع لله و الطائع لله و القادر بالله، و لم تؤهله سنّه للصلة بالمطيع لله، و إنما كانت له أعظم العلائق بوالده الطائع لله، ثم لم يتح لعلاقته بالقادر بالله النجاح، بل قام بينهما نوع من العداء.

و كان البويهيون المتسلطون على العراق خلال هذه الفترة هم: معز الدولة و عز الدولة و عضد الدولة و صمصام الدولة و شرف الدولة، و لم تكن سن الرضي تؤهله لعلاقة بالأربعة الأول ، كما كانت علاقته بشرف الدولة بسيطة، لا تتعدى شكره على إطلاق والده من سجنه، أما بهاء الدولة، فقد كان أمله، فلما فقده لم يجد في نفسه ما يدفعه إلى علاقة مماثلة بخلفه سلطان الدولة.

و كانت الخلافة الفاطمية في غرب الدولة الاسلامية قد استقرت في مصر و شمال أفريقية، و بسطت سلطانها على مناطق من الشام و الحجاز

Converted by Tiff Combine - unregistered

و اليمن، و قد عاصر الرضي من خلفائها العزيز بالله و الحاكم بأمر الله، كما كان الحمدانيون في شمال الدولة الإسلامية بالموصل و حلب يدفعون عنها عادية الروم، و قد ضعف أمرهم، فاستولى العقيليون خلال هذه الفترة، على إمارة الموصل منهم، و استولى الفاطميون على حلب في السنوات الأولى من القرن الخامس الهجري.

و على أطراف الشام و العراق، و في نجد و سواحل الخليج، كانت تنتشر قبائل الأعراب من خفاجة و أسد و غيرهما، تسد الطريق على قوافل الحجاج، أو ينتصربها قوم على قوم، مما جعل لها ثقلاً في الميزان السياسي لهذه الفترة.

و قد أدى الصراع السياسي الذي عاشه العراق خلال هذه الفترة إلى اضطراب عظيم في شؤون الحياة، من فتن قامت بين أهل السُنّة و الشيعة، و بين الأتراك و الديلم، و من شغب يثيره العيارون و الشطار، و غلت الأقوات، و وقعت المجاعات حتى اضطر الناس إلى أكل الجيف، و بينما كانت ثروات بعض الناس مثل محمد بن عمر بن يحي العلوي عظيمة جداً، لدرجة أن بهاء الدولة صادر بعضها، فوصل إلى مليون دينار عيناً، كان البعض الآخر لا يجد قوت يومه، و قد أدى هذا التفاوت إلى مصادرات من جانب ملوك بني بويه، و ثورات من عامة الناس.

و لكن هذا العصر باضطرابه كان أحفل العصور بالرقي العلمي و الأدبي، و يكفي أنه أنجب هؤلاء الأعلام: المتنبي، و أبا فراس الحمداني، و الرضي، و المعري، و ابن العميد، و الصاحب ابن عباد و أبا حيان التوحيدي، و الصابي، و بديع الزمان، و أبا علي الفارسي، و السيرافي، و ابن جني، و الأمدي، و القاضي الجرجاني، و ابن فارس، و أبا هلال العسكري، و الثعالبي، و ابن سينا، و الباقلاني، و القاضي عبد الجبار، و أبا حامد الإسفراييني، و أبا بكر الخوارزمي، و الشريف المرتضى، و الشيخ المفيد ابن النعمان.

و منذ مقتل المتوكل سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين للهجرة، أخذت الدولة العباسية تزداد وهناً على وهن. فتمشت في مفاصلها و أوصالها عوامل الانحلال و التفكك، و تهدم المجد الباسط الظل، و لم يكد القرن الثالث يشارف غايته، حتى انتكث فتل الدول العربية، فاذا هي وحدات سياسية متباعدة لاتجمعها إلاّ أوهى الروابط، و لا تصل بينها إلاّ أوهن الصلات، و ما انقضّ هذا البناء العظيم إلاّ لأن الخلفاء العباسيين قربوا الدخلاء الأجانب، و اعتمدوا عليهم، فكان منهم الوزراء و الجند و العمال، و ضنّوا على العرب أبناء أرومتهم و أصحاب البلاد الأصلاء، أن يسوسوا بلادهم و يصرّفوا شؤونهم و يذودوا عن حماها.

ذلك مصير كل دولة تعتمد على عناصر ليست من جنسها في حياتها السياسية والادارية والحربية، ومن هذه الدويلات التي صارت إليها الدولة العباسية وأبعدها شاناً، دولة بني بويه الفارسية التي غلبت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، على بغداد مدينة الشاعر العربي البطل الشريف الرضي.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و قد تعصب بنو بويه للفرس تعصباً شديداً، فأحيوا عاداتهم و تقاليدهم و آدابهم، و احتفلوا بأعيادهم احتفالات فخمة، و لقبوا أنفسهم بألرفع الألقاب، ليس «شاهنشاه» ملك الملوك إلاّ واحداً منها، و استحال الخلفاء العباسيون دمى في أيديهم، تتحرك كيف يشاؤون، ليس لملوك بني بويه إلاّ الأمر و ليس على الخلفاء إلاّ الطاعة و التنفيذ و الخضوع.

في هذه الفترة من حياة الأمة العربية في العراق طغت الروح الفارسية طغياناً شديداً على كل شيء و كان لها أثر كبير في الأدب العربي، فقد هجر الشعراء الفخر و الاعتزاز بالنفس العربية، و التغني بالبادية، و الوقوف على أطلالها، و الإشادة بتقاليد العرب من فروسية و شجاعة و نجدة و كرم و مروءة إلى أدب الترف و الميوعة و الانحلال و المدح المفرط في الغلو، و أطلت الأفاعي الدخيلة من جحورها تفح في وجه النبل الجريح و الكرامة المهدرة و الشهامة المطعونة، معتزة بالفرس مفتخرة بآثارهم و مآثرهم، متحاملة على العرب تندى أمجادهم و تصيب منهم كل يوم مقتلاً.

حتى إن ديوان الشاعر مهيارالديلمي يوشك أن يكون جميعه - على طوله - فخراً و اعتزازاً بقوميته الفارسية، و هو الذي يقول :

قومي استولوا على الدهر فتى	و مشوا فوق رؤوس الحقب
عمـــوا بالشمس هاماتهـــم	و بنـوا أبياتهـــم بالشهـب
و أبـــي كســـرى عـــلا إيوانـــه	أين في الناس أب مثل أبي؟

إن غلبة العنصر الفارسي في العراق و شيوع الروح الفارسية في الأدب العربي، كان لها رد فعل عنيف في نفوس الأدباء العرب الأقحاح فجاء أدبهم معبراً عن الروح العربي بكل ما فيه من شجاعة و فروسية و مروءة و ترفع عن الصغائر، و رفض للواقع المهين الذي يحيا فيه الشعب العربي في العراق. من أبرزهؤلاء الأدباء الشاعر العظيم الشريف الرضي. فقد حملته سيادة الروح الفارسية، و بسط ظلها على الحياة العربية في عصره، على التعلق بقوميته تعلقاً شديداً. يدلنا عليه حنينه الأسوان إلى الوطن العربي الأول في الجزيـرة، و الوقوف على أطلاله و التغني ببواديه منبت العز و الشهامة، و الاعتزاز بالعروبة و تقاليدها و السخط الشديد على هؤلاء الملوك من الفرس الذين حجروا على خلفاء بني العباس، و تبرمه بالعيش في بغداد التي تئن تحت وطأة الدخلاء، حتى يمكن أن نعد أدب هذا الشاعر تصويراً لما كان يختلج في نفوس العرب المغلوبين على أمرهم في ميادين الحياة السياسية و الاجتماعيـة و العسكرية، من سخط على الدخلاء و مقتهم، و احتقار لمؤيديهم، و تطلع إلى مستقبل عزيز، و أحلام بالظفر، و آمال عريضة بالعودة إلى الأمجاد السابقة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

حياته و شعره:

هو أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسى الكاظم من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب. و قد كان أبوه نقيباً للطالبيين (رئيساً دينياً لآل البيت الشريف).

ولد الشريف الرضي في بغداد (٣٥٩ هـ = ٩٧٠م) و نشأ فيها و برع في علوم الفقه و اللغة و الأدب، و قال الشعر و عمره خمس عشرة سنة. و في (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) اعتزل أبوه نقابة الطالبيين فخلفه هو فيها نائباً عنه. و في ذي القعدة (٤٠١هـ = ١٠١١م) منحه الأمير البويهي بهاء الدولة لقب الشريف. ثم إنه عين نقيباً أصيلاً يوم الجمعة في (١٦ المحرم ٤٠٢هـ = أب ١٠١٢م) بعدئذ ضمت إليه الأعمال التي كان يقوم بها أبوه و هي النظر في المظالم و الحج بالناس.

و كان الشريف الرضي عالي الهمة طموحاً إلى المعالي لم يقبل صلة من أحد و لا جائزة. و قد ردّ جميع الصلات التي كانت جارية على أبيه من قبله، فخافه الخليفة القادربالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ) فاتهمه بالميل إلى الفاطميين فصرفه عن المظالم و الحج.

و توفي الشريف الرضي في السادس من المحرم ٤٠٦هـ = (١٠١٦/٦/٢٤م) و دفن في بيته في محلة الأنباريين إحدى ضواحي الكرخ (الكاظمية اليوم).

القابه و مناصبه:

لقبه بهاء الدولة سنة ٣٨٨ هـ بالشريف الأجلّ، و في سنة ٣٩٢ هـ بذي المنقبتين، و في سنة ٣٩٨ هـ بالرضي ذي الحسبين، و في سنة ٤٠١ هـ أمر أن تكون مخاطباته و مكاتباته بعنوان « الشريف الأجل » و هو أول من خوطب بذلك من الحضرة الملوكية.

إن المناصب و الولايات كانت متكثرة على عهد الشريف من الوزارة التنفيذية و التفويضية، و الإمارة بقسميها العامة و الخاصة، و العامة بضربيها: استكفاء بعقد عن اختيار، و استيلاء بعقد عن إضطرار. و الإمارة على جهاد المشركين بقسميها: المقصورة على سياسة الجيش و تدبير الحرب، و المفوض معها إلى الأمير جميع أحكامها فمم الغنائم و عقد الصلح، و الإمارة على قتال أهل الردة، و قتال أهل البغي، و قتال المحاربين، و ولاية القضاء، و ولاية المظالم، و ولاية النقابة بقسميها: العامة و الخاصة و ولاية إمامة الصلوات، و إمارة الحج، و ولاية الدواوين باقسامها، و ولاية الحسبة، و غيرها من الولايات. فمنها ما كان يخص بالكتّاب و الأدباء، و آخر بالثقات و رجال العدل و النصفة، و ثالث بالأماجد و الأشراف و المترفين، و رابع بأباة الضيم و أصحاب البسالة و الفروسية، و خامس بذوي الآراء و الفكرة القوية و الدهاة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و سادس بأعاظم الطالبيين و أعيان العترة النبوية، و سابع بالفقهاء و أئمة العلم و الدين. و هنا ما يخص بجامع تلك الفضائل، و مجتمع هاتيكم المآثر كالشريف ذلك المثل الأعلى في الفضائل كلها فعلى الباحث عن مواقفه و مقاماته و نفسياته الكريمة أن يقرأ و لو بصورة مصغرة دروس المناصب التي كان يتولاها الشريف فعندئذ يجد صورة مكبرة تجاه عينيه ممثله من العلم و الفقه و الحكمة و الثقة و السداد و الأنفة و الفتوة و الهيبة و العظمة و الجلال و الروعة و الوفاء و عزة النفس و الرأي و الحزم و العزم و البسالة و العفة و السؤدد و الكرم و الإباء و الغنى عن أي أحد قد حليت بالأدب و الشعر و لا يراها إلاّ مثال الشريف الرضي.

تولى الشريف نقابة الطالبيين، و إمارة الحاج و النظر في المظالم سنة ٣٨٠ هـ و هو ابن ٢١ عاماً على عهد الطائع، و صدرت الأوامر بذلك من بهاء الدولة و هو بالبصرة سنة ٣٩٧هـ ثم عهد إليه في ١٦ محرم سنة ٤٠٢هـ بولاية أمور الطالبيين في جميع البلاد فدعي « نقيب النقباء » و يقال. إن تلك المرتبة لم يبلغها أحد من أهل البيت إلاّ الإمام علي بن موسى الرضا سلام الله عليه الذي كانت له ولاية عهد المأمون، و اتيحت للشريف الخلافة على الحرمين على عهد القادر كما في المجلد الأول من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد و كان هو و الولايات كما قيل:

لم تُشيِّد الولايـــات مجـداً ... لا و لا قيل: رفعت مقداره

بل كساها و قد تحزمها الدهـ ... ـر جلالاً و بهجة و نضارة

شعـــره:

و أغراض الرضي الشعرية حافلة، و قد تعاظم قدر المدح في شعره حتى ليربو على ثلث ديوانه، ثم يليه الرثاء و الفخر و الشكوى و النسيب ثم بقية الأغراض.

و أول هذه الأغراض المدح و التهنئة، و مدائحه لأسرته يجمع لهم فيها بين شرف النسب و علو الهمة، و كرائم الأخلاق من مثل قوله في أبيه:

و أين مثل الحسين إن حسنت ... صنائع البيض و القنا القصد

أبلج إن ماحت المطي بـه ... فدى التنائي بعيشه الرغد

و قوله فيه:

تتزاحم الأهيـاف في أبياتـه ... فرقاً تحن إلى القرى و تتوق

و إذا رأهـم لم يقـل متمثلاً ... أبني الزمان لكل رحب ضيق

Converted by Tiff Combine - unregistered

و في مدائحه للخلفاء العباسيين، يعدد لهم صفات المجد و علو النسب و إحكام الخلافة، من مثل قوله في الطائع لله:

ملك إذا حصر السماط به ... كثر العثار و طبق الزلل

و إذا السرير سما بقعدته ... غربت بظاهر كفه القبل

جلت الأئمة عن مناقبه ... و استودعته نورها الرسل

و في مدائحه للبويهيين، يصفهم بالقوة و استلاب الملك قهراً، و البأس و الكرم، يقول في بهاء الدولة:

إذا ابتدر الرهان مبادروه ... تمطر دونهم يوم الجراء

و إن طلب الندى خرجت يداه ... خروج الورق من خلل الغماء

حذار إذا تلفع ثوب نقع ... حذار إذا تعمم باللواء

حذار من ابن غيطلة مدل ... يسد مطالع البيد القواء

و في مدائحه للوزراء و الكتاب و أصحاب الجاه و المتغلبين على البلاد و الأصدقاء و العلماء، يبين خصائص مدحه لكل طائفة، و له قدرة على تمييز ما يمدح به كل فريق.

و قصائده في الرثاء و التعزية، تظهر تفجعه على من فقدهم من أسرته، أو من الخلفاء و الملوك و الوزراء و الكتاب و الأعوان و الأصدقاء و العلماء، انظر إلى لوعته في رثاء أمه:

فارقت فيك تمسكي و تجملي ... و نسيت فيك تعزي و إبائي

و صنعت ماثلم الوقار صنيعه ... مما عراني من جوى البرحاء

كم زفرة ضعفت فصارت أنة ... تمتها بتنفس الصعداء

لهفان أنزو في حبائل كربة ... ملكت علي جلادتي و غنائي

و تفرده في هذا اللون من الفن، و امتزاجه بمأساة الموت، و بكاؤه الملتاع، كل ذلك استحق به أن يسمى النائحة الثكلى.

و كان الفخر الميدان الذي يجلي فيه الرضي و يكشف عن آماله، و يبين عن منازعه العالية، و يظهر قدرته على التصور حين يرى نفسه بطلاً يقود الفرسان، و قد كشف شعره في هذا الاتجاه عن أخلاق الفرسان كما يراها، و عن صفات الجواد الاصيل الذي لا يمتطي ظهره إلاّ صناديد الرجال و قصيدته التي يبدؤها بقوله:

نبهتهم مثل عوالي الرماح ... إلى الوغى قبل غموم الصباح

Converted by Tiff Combine - unregistered

توضح ذلك. كما كانت الشكوى متنفسا له. يبث فيها متاعبه في دنيا الأقارب و الأصدقاء و محاربة الدهر له و انتكاس أمانيه. و شعره في الفخر و الشكوى ذاتي خالص، ينبع من نفس قلقة وثابة حساسة. كما أن شعره الوجداني في النسيب و طيف الحبيب غايـــة في الرقـــة و الافصاح عن الأخـــلاق العاليـــة، و النفس التي صقلها الوجد و هذبها العشق، و أصبحت حجازياته بما تحمل من معالم فنية طريقا ممهداً للشعراء بعده و هام الناس بها لعذوبة وقعها و رقة حواشيها و قد عارض الشعراء كثيراً قصيدته الكافية.

ياظبية البان ترعى في خمائلـه ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

و قصيدته الميمية:

يا ليلة السفح ألا عدت ثانيـــة سقى زمانك هطال مـــن الديم

كما أن بكاءه الشباب و نفوره من المشيب، فتح لـه بابا مـــن القـــول الطريف و نفّس عن ما تحمله نفسه المكروبة من هم – عن طريقه – في شعره.

و كانت صداقات الرضي ميدانا رحبا لشعره، أبان فيه عن معرفة بطبائع الرجال و حرص على الصورة المثلى للمجتمع و هو يمثل واحة له في هجير صحراء الحياة كما يمثل نوعاً من الحكمة في معالجة عوج الاصدقاء يدل عليها قصيدته:

و كم صاحب كالرمح زاغت كعوبه أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

وميسم الهجاء عند الرضي حاد لاذع، لكنه غير فاحش و هو يجمع لمن يهجوه المثالب التي تبعده عن طريق العلا و لا يصفه بما يصف الهجاؤون به الناس مستن هتك لأعراضهـم، و تعريض بمعايبهـم الجسميـــة، مما يؤذي النفـــس و يجرح الحس، و لذلك فان أهاجيه تبلغ ما تريد، و لا يتحرج المرء من روايتها أو التمثل بها و انك لتحس في قصيدته:

أبيعـــك بيـــع الاديم النفيـــل و أطوي و رادك طـــي السجـــل

ثورة الغضب و لذعة الهجاء و ألم العثائب :

و الشريف الرضي شاعر وصاف ، و لكن وصفه لاياتي غالبا الاّ استطرادا و هو حين يصف يخلط الوصف بنفسه و يمزجه بخطرات قلبه و لذلك لا ترى في وصفه عناية بابراز الحسيات و قد وصف الطبيعة و ما يعيش فيها كما وصف الحرب و الصراع السياسي.

و قد اقتضته ظروفه التي عاشها أن يتقلب في أحضان السياسة و أن يشهد مؤامراتها و دسائسها و أن يكتوي بنارها و شعره في هذا الجانب يعطي ملامح عصره و يشترك مع النصوص التاريخية في الكشف عنه و ينبيء عن

Converted by Tiff Combine - unregistered

القيم السياسية التي كان الناس يتعاملون على أساسها في تلك الفترة من شراء المناصب إلى المكائد و الدسائس التي تفتك بالناس إلى الغدر بمن كان محل الثقة إلخ.

و الرضي رقيق في عتابه، يدعو إلى البقيا و لم الشمل . و لكنه عنيف في تهديده لا يبقي و لايذر و لايرعى مقام خليفة أو ملك يهدد بالقطيعة و الرحلة ، و الحرب و القراع كما يهدد بأسلات شعره و له نظرات خاصة في الحياة كونتها لديه تجاربه و هو لايبخل بتقديم نصائحه للساسة أو لعامة الناس، حتى تستقيم الحياة على وجهها . و له في هذا الجانب أبيات تسير مسير الأمثال و لكن أمثاله لم تشتهر شهرة غيره من الشعراء كالمتنبي مثلاً و يتصل بهذا قصائد و مقطوعات للرضي، يتزهد فيها و ينذر الناس بالآخرة و ينفّر من الركون إلى الدنيا بعد ما أبدت من غير و يشكر الله على نعمه و هو في هذا كله لا يعبر عن فلسفة خاصة لها منهاجها و انما هي شذرات مفرقة أقرب إلى الحكمة و الموعظة.

و الرضي ممن لايقبل على ما يعتذر منه و رغم ذلك فله مقطوعات و قصائد رقيقة في هذا الجانب و له قصيدتان في استعطاف بهاء الدولة، يشيبان الصورة التي يرسمها سائرة شعره في إبنه و أنفته ، و لعل قهرا سياسياً هو الذي دفعه إلى هذا الموقف . كما أن له بعض الشعر في الاقتضاء و انجاز الوعد وله قصائد و مقطوعات و أبيات مفردة لانستطيع ان تخضعها لغرض بعينه.

و الرضي أشعر الطالبيين حسب ما وصل إلينا من شعرهم و أشعر قريش اذا نظرنا إلى اكثاره في فنون الشعر المختلفة و اجادته لها أما في الجانب الذي اختص به عمر بن أبي ربيعة و هو وصف النساء و أحوالهن و أحواله معهن فلا تصح المقارنة بينهما

نشر الشريف الرضي :

القدر الذي بين أيدينا الآن من رسائل الرضي المطولة و القصيرة لايمكننا من الحكم على نثره و تطوره و مكانته في عصره حكما مفصلا و لكنه يتيح لنا رؤية لبعض ملامح نثر الرضي إلى أن يجود علينا الزمان بماضاع منه.

و الرسائل الطوال التي بين أيدينا تنتظم أغراضا متعددة من تهنئة و معاتبة و تعزية و عهود و نقد شعر.

و رسائل التهنئة كتبها الرضي إلى ثلاثة من الوزراء الذين عاصرهم و كانت الأولى إلى سليمان ابن أحمد الأبرقوهي يهنئه بالنجاة من حادث . ربما كان سياسيا و قد ذكر الرضي في أولها مابينهما من علائق الاخاء و غرائس

Converted by Tiff Combine - unregistered

الصفاء ، و قلقه عليه من هذا الحادث و توالي سؤاله عنه في مدته و الدعاء له حتى عاد إلى وطنه مكنوفـــا بالسلامـــة ثم يصف ســـروره الخالص بعودتـــه و سلامته.

أما الرسالة الثانية فكانت إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف المكار يهنئه بما صار إليه من العودة إلى العليا و نجاته مما ألم به ، و لعله يعني العزل عن الوزارة ثم العودة إليها و قـــد بدأ رسالتـــه ببيان برمـــه بالليـــل و النهار و سخطه بواقع الأقدار لعجزه عن الوصول إليه لمرضه و علته و كان أمله أن يبادر إليه ليقوم بالواجب نحو تهنئته بنجاته مما أصابه، و يذكره بما يفعله الزمان بعظام الرجال في تقلب أحوالهم في الخير و الشر و أن العواقب دائما لمن يصبر ، و يبشره بالأجر على ما أصابه و زيادة النعمـــة و اضطرادهـــا و يحمد اللّه على أن جعل محنته محنة أدب لا محنـــة غضب و نكبة استصـــلاح لا نكبة اجتياح و يصفه بالعلو و الأدب.

و الثالثة كانت إلى الوزير سابور بن أردشير يهنئه بعودة الوزارة إليه في الدفعة الرابعة و يذكر في أولها أن هذه نعمة شملت الناس عموماً و شملته خصوصاً و أن خلو الوزارة منه كان غمة على الخاصة و العامة و يدعو اللّه أن يديم عليه هذه المنة و لاينقله عنها إلاّ إلى ما هو أجل منها و يضعف كفايته و ما وصل إليه من تدبير الوزارة اربع مرات، مما لم يحصل عليه أحد في ذلك الزمان ثم يذكر ما جمع اللّه فيه من الخلال الحميدة و يدعو اللّه أن يتم له ما خوله و يعينه على ما قلده

و نلاحظ أن هناك معاني تتردد في رسائل التهنئة هذه مثل بيان ما بين الرضي و بين هؤلاء الوزراء من علائق و ما يشعر به نحوهم من الولاء أو الأخاء و إنها تهنئه بنعمه جاءت بعد نقمه، أو بتوليه بعد عزل، كما يلاحظ كثرة الدعاء فيها بدوام النعمة و اضطرادها.

أما رسالته إلى الصابي في الردّ على تهنئته له بعيد الفطـــر في سنـــة ٣٨٤ هـ فقد ذكر الرضي فيها أنه سعد بهذه التهنئة من بين التهاني كلها لما يعلمه من أنها تهنئة صادرة من قلب غير متقلب و يدعو اللّه له بطول البقـــاء و يواسيه عن علته بانه أرسى لنفسه على تطاول الزمن مجدا و يقبل عذره في نيابة الرسالة عن حضوره لتهنئته ، و يطلب منه الصبر لأن الزمن لا يطالب بالمناصفة و يصف مكانه المكين من قلبه و يشكره على ما أرسله إليه من الشعر و يذكر ردّه عليه.

و قد وجّه الرضي رسالته في العتاب إلى أحد أصدقائه و يذكر شوقه إليه و يعتب تأخر مكاتباته و يذكره بما بينهما من عهود و بما مضى لهما في ربيع الأيام و شباب الدنيا و يبين عذره في شدة لومه لتبدل حاله فقد كان خصيصا به و كان أقاربه يعلمون خبره عن طريق الرضي ثم انقلب ذلك إلى ضده. و يذكره بالعودة قبل أن يحول بينهما الزمان ، كما فعل في سلبه صديقه

Converted by Tiff Combine - unregistered

العميد أبا إسحاق الصابي ثم يصف صداقته له و لواعجه في فراقه و مكانته الأدبية و السياسية و مادار بينهما ، و ما رثاه به ، و يدعو الله أن يحفظ مهجة صديقه و أن يثني عطفه نحوه.

و الرسالة اخوانية رائعة تكاد تذوب رقة و وجدا:

و رسالة الرضي إلى الصابي في تعزيته عن ولده سنان في ربيع الآخر سنة ٣٨٠ هـ رسالة فريدة وضع فيها الرضي خلاصة حبه لصديقه، و حدبه و اشفاقه عليه و ذكر فيها أنه عاد من تعزيته و قد أضيف إلى حزنه على الشباب قلقه على ما صار إليه صديقه من الحزن و الحرق ثم يذكره بما لا ينساه من الصبر و ما يعرفه من تقلب الأيام و الاعتبار بمن مضى من القرابة و الخلان و أن المرء سائر إلى مصيره فلو كل هذا الحزن . وفي الأيام خلف من الغائب و يسأل الله أن يزيد سروره بمن بقي من اولاده و أن يبارك فيهم و قد عدل الرضي في هذه الرسالة إلى الحجاج في أكثر من موضع ، رغبه في أن يصل بصديقه المكلوم إلى اقتناع يسري عنه و يصرف عنه الحزن.

و قد كتب الرضي إلى الصابي رسالتين أخريين في سنتي ٣٨٠ هـ ، ٣٨١ هـ يبين له فيهما ما يريد توكيده في العهدين الصادرين من دار الخلافة و كان الأول بمناسبة تقليده نقابة الطالبيين و النظر في أمور المساجد بمدينة السلام و النيابة عن والده في المظالم و الحج و كان الثاني في تقليده بعمل جديد لم يتم أمره.

و لم يكتب الرضي إلى الصابي لقصور يعرفه فيه و انما اراد أن يوضح له أمرين :

الأول . الحفاظ على مكانة أبيه و تعظيمها فقد كانت القضية شديدة الحساسية ، ذلك أن الطائع لله ولى أبا أحمد النقابة و الحج و المظالم في أوائل سنة ٣٨٠ هـ ثم ولى ولده في رمضان من السنة نفسها و الأمر يقتضي في كتابه المرسوم كياسة لابد أن ينبه الرضي صديقه الصابي الكيس إليها زيادة في الحيطة و تبرئة للنفس.

و الثاني : رغبة الرضي في اسباغ مظاهر التكريم عليه في هذين المرسومين و قد أشار على الصابي بالاطالة في مواطن خاصة يرى فيها اظهار الكرامة و الرفعة.

و الرسائل التي بين يدي تشيع فيها ظاهرة الموازنة بين السجع و الازدواج و قلما يكتب لأحدهما الغلبة على الآخر و يدرك القارئ لها أن الرضي لم يكن يعمد إلى احدهما و انما كانت المعاني تسوقه فيضعها في القالب الذي يناسبها فبينما يلجأ الرضي إلى السجع في قوله " و بينما هذه الدنيا ترضعنا درتها و تصرح لنا عن زبدتها و تلحفنا فضل جناحها و تغرنا بركود رياحها إذ به يعود إلى المراوحة بين السجع و المزاوجة فيقول : " و تعذرنا بما

Converted by Tiff Combine - unregistered

نستمرئه برهة و نستمرّه مدة و نستحليه آوانا و نستوبيه أونة حتى تعطف علينا عطف الضروس و تضرحنا ضرح الشموس و تريق ماحلبت من النعيم بضروب ما جلبت من الهموم .

و قد يعمد الرضي إلى تضمين رسائله ببعض شعره كما فعل في ختام رسالته إلسابور فقد ضمنه الأبيات ٢٩، ٣١ ـ ٣٣ من القصيدة (١٣٠) أو تضمينه شعر غيره كما فعل في رسالته إلى الحكار حيث ضمن قول القائل

و للدهر في صم الصلاب نصيب

وضمن قول الآخر.

كل حبس يهون عند الليالـي بعد حبس الأرواح في الأجساد

و تكثر الجمل الدعائية في رسائل الرضي مثل دعائه بطول البقاء و العز و التمكن الخ. و قد يتداخل الدعاء في الكلام بما يفصل بين اجزائه مثل قوله لسابور فان رأى سيدنا الوزير ـ أدام الله علوه ـ أن يأمر ـ أعلى الله اجره ـ باجابتي . .

كما يفصـل أحيانـا بين جزءي الجملة لحشـد كـل ما يتعلق بالمعنـى و لم شتاته كما في قوله و بعد فبيننا من مناسبة الخلائق و مشاكلة الطبائع ثم من المؤدة التي ألفت بين شخصينا و صربت برواقها علينا و ما كنا نتهاداه من الطاف الفضائل و نتشاراه من اعلاق المناقب ، ما يعذرني في أن أفرط جزعي عليه . .

و كما تقدم في آخر رسالته لسابور الذي تقدم نقله

و الفصول القصار التي ساقها الشيزري في آخر جمهرة الاسلام و ساقها ابن معصوم في "*الدرجات الرفيعة*" و نشرتهـا "*مجلة العرفان*" قبل طبـع "*الدرجات الرفيعة*" لاتخرج في جملتها عن رسائله المطولة فهي في ظني فقرات من رسائله الطوال و ليست رسائل مستقلة، ذلك لأن كـل رسالة منهـا لا تستقل بغرض و انما هي نبذ من انشاء الرضي كما نص على ذلك ابن معصوم و قد فتشتها فلم أجد فيها خروجا عما سبق بيانه من المعاني في الرسائل الطوال كما انها تتضمن الخصائص الفنية التي سبقت الاشارة إليها.

شاعـــريتـــه :

نظم الشريف الرضي الشعر في عهد الطفولة و لما يزد عمره عشر سنين فأجاد و نظم في جميع فنون الشعر فاكثر ، و جاء محلقاً محرزاً قصب السبق ، بغير منازع ، و لم يكن في ناحية من نواحي الشعر أشعر منه في غيرها مما دل على غزارة مادته، و إنه كان ينظم قصائده بمنحة نفسانية قلما تؤثر بها

Converted by Tiff Combine - unregistered

العوامل الخارجية و امتاز الرضي بأن شعره على كثرته لابس كله ثوب الجودة و الملاحة و هذا قلما يتفق لشاعر مكثر ، بل لم يتفق لغيره ، فاننا نرى تلميذه و خريجه مهيار الديلمي قد أكثر من نظم الشعر و لكن قصائده لم تكن متناسقة متناسبة في الجودة بخلاف قصائد الرضي. و إذا نظرنا إلى شعر المتنبي المتقدم عليه في العصر نجده مع ما للمتنبي من المكانة السامية في الشعر يشتمل على سقطات لا تقع من آداني الشعراء فلاغرو إذا فضل مفضل شعر الرضي على شعر المتنبي.

و إذا تأملنا في شعر الشريف الرضي وجدناه منطبعاً بطابع لايوجد في غيره و يعسر علينا وصفه و التعبير عنه، فان حسن الشعر بمنزلة الجمال في الانسان، فمن نظر إلى الوجه الجميل من أهل الأذواق علم أنه جميل ، و لكن يعسر عليه أن يبين أسباب جماله، و تفاصيلها، و كذلك إذا استمع ذوالطبع المستقيم إلى القصيدة الجيدة عرف أنها من الشعر الجيد و صعب عليه أن يفصل الأسباب في جودتها و لعله إلى ذلك ينظر إلى كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سئل عن أشعر الشعراء فقال : إن القوم لم يجروا في حلبة واحدة فيعرف السابق منهم، فإن كان ولابد فالملك الضليل. فشعر الرضي مطبوع بطابع من البلاغة و البداوة و البراعة و عذوبة اللفظ و الاخذ بمجامع القلوب و غير ذلك من المميزات لاتكاد تجد في غيره و لانكون بعيدين عن الصواب إذا قلنا أن الشريف الرضي بين الشعراء أمة برأسه. و مما امتاز به شعر الشريف أنه نقي من كل مايتعاطاه الشعراء من الغزل المشين و الهجاء المقذع و التلون بالمدح تارة و الذم أخرى . و لايليق بنا أن نعدد الشريف الرضي بأن شعره خال من المجون الذي كان شائعاً في ذلك العصر فهو أجل قدراً و أرفع شاناً من أن نمدحه بذلك. كما أن شعره خال من وصف الخمرة . و إن وصفها كثير من الشعراء الذين لايتعاطونها، و لكن الشريف لم يصفها إلاّ بسئوال من سأله ذلك على لسان بعض الناس. فوصفها بعدة أبيات لم يصفها بغيرها.

و شعر الشريف الرضي مرآة تنعكس عليها الملامح السابقة فتكشف لنا بوضوح كل ما فيها من جوانب و تفصيلات و هو الذي يعطينا صورة صادقة لسمات شخصيته من ناحية ، و سمات عصره و بيئته و ثقافته من ناحية أخرى بحيث يصلح الكثير من شعره أن يكون من الوسائل القيمة التي تعين على فهم كثير من أحداث هذا العصر و أخباره.

و أول ما يطالعنا في هذا الشعر، في قوة و وضوح ، هو ارستقراطية الشريف الرضي العربية التي تحدثنا عن أسبابها و مقوماتها، و هي تطالعنا في الفنون و الأغراض التي طرقها.

Converted by Tiff Combine - unregistered

صفاته الخَلقية و الخُلُقية :

ليس بين يدي وصف خَلقي للرضي ، اللهم إلاّ ما قاله الدكتور زكي مبارك ، من أنه كان جميل الوجه جداً ، بحيث استطاع بعض أساتذته أن يقول : أنه لم يستتبع النظر إلى وجهه إلاّ بعد أن اخضرَّ شاربه، و نبت عارضاه ، و لمست أدري عمن نقل الدكتور زكي هذا القول فإنه لم يعين مرجعه في هذا، و قد نقل أديب التقي كلام الدكتور زكي ، و زاد على ما أورده أن الشيخ صاحب المقالة هو شبخه المفيد، و لم يكن له مصدر في هذا إلاّ كلام الدكتور زكي مبارك.

و قد شكا الرضي و هو في الثالثة و العشرين غزوَ الشيب لرأسه بالقصيدة:

عجلت ياشيب على مفرقي و أيّ عذرٍ لك أن تعجلا

و استنتج أديب التقي من قصة شَمْه لحيته أمام القادر بالله أنه كان مسدل اللحية حتى ليصل طرفها إلى أنفه.

و زعم الدكتور زكي مبارك أن الرضي كان يشكو مرضاً يكتمه عن الأطباء ، و عزا إليه قصر عمره. و سرد كثيراً من شعره في ذكر الموت ، الذي يتسم بنظرة متشائمه و يدل على إدراكه - في زعمه - قصر عمره ، و يدرك المتصفح لهذا الشعر أن تلك دعوى لايقوم لهذا دليل ، و إنما هي خواطر الشعراء مشى الرضي في دربها حين رثى الناس.

أما صفات الرضي الخُلقية، فإننا لوتركنا شعره و ما يحمله من إباء و عزة ، و ما يدل عليه من وفاء و اخلاص و ما ينضح به من احساس مرهف، و فرغنا إلى ما سار من صفاته في كتب المترجمين له، فسنرى أن ابن الجوزي وصفه بانه « كان عفيفاً ، عالي الهمة ملتزما بالدين و قوانينه، و لم يقبل من أحد صلة و لا جائزة حتى أنه ردّ صلات أبيه، و ناهيك بذلك شرف نفس ، و شدة خُلُف ، فأما بنو بويه فانهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل ، و كان يرضى بالاكرام و صيانة الجانب، و اعزاز الاتباع و الاصحاب» كما ذكره ابن عنبة فقال « ذوالفضائل الشائعة و المكارم الذائعة ، كانت له هيبة و جلالة و فيه ورع و عفة و تقشف ، مراعاة للأهل و العشيرة».

و نرى من خلال هذه القول ، أن الرضي يوصف بالعفة و الورع و التقشف و التدين كما يوصف بشرف النفس و علو الهمة ، و أنه لم يقبل من أحد صلة ، و يوصف أيضا بالجود و الحدب على قومه و مراعاتهم . و يروى في عفة الشريف و ورعه و تدينه ، أنه اشترى في بعض الأيام جزازاً من امرأة بخمسة دراهم ، فوجد فيه جزءاً بخط يد أبي علي بن مقلة ، فقال للدلاّ ل: أحضر المرأة ، فاحضرها ، فقال « قد وجدت في الجزاز جزءاً بخط ابن مقلة ، فان

Converted by Tiff Combine - unregistered

أردت الجزء فخذيه و إن اختـــرت ثمنـــه ســهـذه خمسـة دراهم فاخذتها ودعت له و انصرفت.

وهذا مايدل على التصون ، و مراقبة الله عزوجل . و نقل الخوانساري عن صاحب حدائق المقربين ، أنه ، كان رضي الله عنه في غاية الزهد و الورع ، صاحب حالات و مقالات و كشف و كرامات .

و يحكى أنه اقتدى يوماً بأخيه المرتضى في بعض صلاته فلما فرغ قال : لا أقتدى بك بعد هذا اليوم أبداً . قال : كيف ذلك؟ قال لأني وجدتك حائضاً في صلاتك خائضا في دماء النساء. فصدقه المرتضى و انصف و التفت إلى أنه أرسل ذهنه في تلك الصلاة إلى التفكر في مسألة من مسائل الحيض . أقـول و في بعض المواضع أنه انصرف من صلاته المذكورة ، بمحض أنه انكشف له الحال المزبورة و أخذ في الويل و العويل و أظهر الفزع الطويل في تمام السبيل إلى أن بلغ المنزل في هذه الحالة فلما فرغ المرتضى أتى المنزل من فوره. و شكا ماصنع به إلى أمه ، فعاتبه على ذلك فاعتذر عندها بما ذكر ، و أنه كان يتفكر في مسألة من الحيض سألته عنها بعض النسوة في أثناء مجيئه إلى الصلاة و هذا خيال مجنح، لفقه حول من ظن أنه لا قدر للرجال إلا إذا سيقت في سيرتهم الكرامات، و لو كانت على هـذا النحـو المقـزز من ذكـر الدمـاء و الصراخ و العويل.

إن المتتبع لحياة الرضي لايستطيع أن يجد مغمزاً في دينه ، فلم يؤثر عنه أنه انتهك حرمة من الحرم ، أو أخذ فيما كان يأخذ فيه الناس في ذلك العهد من متاع الدنيا حيث يتجاوزون ما أحله الله إلى ما حرمه، و لست أميل إلى صحة القصة التي يرويها الحصري من أن كوران المغني شرب عنه الشريف الرضي ، فافتقد رداءه ، و زعم أنه سرق ، فقال الشريف ويحك ، من تتهم منا؟ أما علمت أن النبيذ بساط يطوى بما عليه ، فقال . انشروا هذا البساط أخذ رداني و اطووه إلى يوم القيامة

ذلك أن الخبر سيق على سبيل الدعابة ، و هو يجمل في طياته عوامل تكذيبه ، فالرضي لايشغل بنقاش مع كوران المغنـي من أجـل ثوب مسروق ، و لايعقل أن يظن كوران بالشريف ـ مع جلالة قدره و عظم محله ـ أنه أو أحد جلسائه سرق الثوب . إن هذا لو قيل في مجالس الفتاك و الصعاليك لكان له محل من التصديق ، أما في مجلس الرضي فلا يرد مثل هذا. و لم يمر في شعر الرضي وصف الخمر و حين وصفها بقوله :

راح يحـــول شعاعهـــا بين الضمائـــر و العقـول

ذكر في مقدمتها أنه سئل القول في ذلك ، و كذلك حين جعل ذكر الخمر مقدمة لقصيدته في الغزل و وصف الروض ، و كانت من أول قوله فقال :

Converted by Tiff Combine - unregistered

اسقني فاليوم نشوان والربى صادٍ وريان

ذكر في مقدمتها أيضا أنه قالها على لسان بعض الناس ، مما يشعر بتحرجه من ذلك . و كان الرضي شديد النكير على من يشرب الخمر ، و قد نفى خبراً جاء في « مختصر الكرخي » مفاده أن عبد الرحمن بن أبي ليلى شرب نبيذاً عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و قال في التعقيب عليه : « و لأن المعلوم الظاهر ، و المنقول المتداول ، أن أمير المؤمنين و الأخيار من ولده عليهم السلام، لم يزنوا قط بمثل هذه الفعلة ، و لا أن عرفوا بهذه الخلة » . فكيف يخرج نفسه من زمرة هؤلاء الأخيار ؟

و قد التزم الرضي هذا الخلق الصارم منذ شبيبته ، و أعلنه في أوائل ما قال من الشعر . ففي أول قوافله كما ورد في صدر القصيدة يقول :

بُرْدي عفيف إذا غيري لفجرته كانت مناسج بُرْديه على الشُّهم

و في سنة ٣٧٧ هـ و هو في الثامنة عشرة من عمره يقول :

أنا المرء لا عرضي قريب من العدى و لا فيّ للباغي عليّ مقال

وما العرض إلاّ خير عضو من الفتى يصاب و أقوال العداة نبال

و في السنة التالية يقول :

و إنّي لمأمون على كلّ خلوة أمين الهوى والقلب والعين والفم

وغيري إلى الفحشاء إن عرضت له أشدمن الذّوبان عدواً على الدّم

و في تلك السن يصف نفسه فيقول :

و أعرض عن كأس النّديم كأنها وميض غمام غائر المزن خلّب

وفور فلا الألحان تأسر عزمتي و لا تمكر الصّهباء بي حين أشرب

و لا أعرف الفحشاء إلاّ بوصفها ولا أنطق العوراء والقلب مغضب

هكذا كان الفتى في صدر شبابه و للهوى فتون و للشاب جنون ، و قد دعته النقابة إلى أن يكون أشد صرامة مع نفسه ، لتحمد صرامته على من ولي عليهم ، و ذلك قوله لهم :

وقطعتكم بالزجر عن عاداتكم ورددت منكركم إلى المعروف

عفّ السّريرة لم تلطّ لريبة يوماً عليّ مغالقي و سجوفي

و هكذا شغله جدّه عن لهو الحياة ، و نأى به مجده عن لذائذها:

شغلت بالمجد عما يستلذ به و قائم الليل لا يلوى على السّمر

Converted by Tiff Combine - unregistered

و قد وصف الرضي بالزهد و التقشف ، فهل كان هذا الرجل الذى شغل بالسياسة منذ عقل الدّنيا ، و أرّقته هموم المجد منذ شبابه ، و اصطرع على المناصب ، خاض غمار الحوادث في سبيل الخلافة ، هل كان هذا الرجل زاهداً متقشفا؟ لقد كان زهده ينحصر في السّمت الهادىء و البعد عن البهرج الذي كان يتميز به كل من تصدر في هذا العصر ، فقد كان من علماء عصره و فضلائه . و لكنى أميل إلى أن الرضي بعد وفاة بهاء الدولة سنة ٤٠٣ هـ قصر من نشاطه الذى كان يملأ الدنيا و يشغل الناس ، و لم يعد يسعى إلى ساحة سلطان ، أو يجرى وراء مغنم سياسي ، بل إنه ترك قول الشعر ، في الملك البويهي الجديد شرف الدولة حتى اقتضاه ذلك ، و هذا الإرتداد العنيف من الإقبال على الدنيا إلى الصد عنها زهد ما بعده زهد ، و في الديوان عدة مقطوعات و قصيدة واحدة معنونة بأنها قيلت فى الزهد، و المقطوعات جميعها تتضمن معنيين ، السخرية من تعلق الناس بالدنيا ، و قرب نهاية الحياة من بدايتها . و لم تدرك هذه النقمة الرضي و هو يصارع الدنيا ، و انما هى نفمة من تركها، و مضى يبحث عن أخواه ، و قصيدته الزهدية وعظ و ارشاد. و فيها يعلن طلاقه للدنيا:

طلّقتهـــا ألفاً لأحسم داءهـــا ... و طلاق من عـــزم الطلاق ثلاث

و لايقع طلاقه هذا إلاّ في تلك الفترة القصيرة من نهاية مسيرة حياته منذ سنة ٤٠٣ هـ ، و حتى بداية سنة ٤٠٦ هـ و قد بكاه مهيار لهذا مرثيه :

أبكيك للدنيـــا التى طلّقتهـــا ... و قد اصطفتك شبابها و عرامها

و رميت غاربها بفضلة معرض ... زهداً و قد ألقت إليك زمامهـــا

و مما وصف به الرضي شرف النفس و علو الهمة و أنه لم يقبل من أحد صلة و سأبين فى علاقة الرضي بشيخه الطبري خطأ ابن أبي الحديد في النقل عندما ذكر أنه لم يقبل صلات أبيه، و بالتالي خطأه فيما بناه من أحكام على هذا . و أبادر إلى القول بأن الرضي كان يحمل نفساً عظيمة ، لم تتصاغر تصاغر غيره من الشعراء فتقف بباب الخلفاء و الملوك تنتظر جزاءً على الشعر، ذلك أنه كان لا يرضى بمبيسم الشعراء حيث يقول مخاطباً أباه :

و عـــلاك لا يرضى بأنـي شاعـــر

و إنما كـــان يخطب ود الخلفاء و الملوك و الوزراء و الرؤســـاء بشعره، و يجعله وصلة إلى مايريده من مجد، و لم نجد في أخباره أنه قصد خليفـــة أو ملكاً أو غيرهما لينال رفده و يحصل على جائزته، و إنما كانت قصائده مهوراً لعقائل المكرمات ، و طريقا توصله إلى مايريد من مكرمة و رفعة ، و قد عبّر عن أنفته من التكسب عن طريق المديح في مقطوعته التى يقول فيها:

Converted by Tiff Combine - unregistered

كم عرّضوا لي بالدنيا و زخرفها مع الهلوك فلم أرفع بها رأسا
وكيف يقبل رفد الناس محتملا ذلّ المطالب من لايمدح النّاسا

كما وعد بتجنب الشعر إذا وصل إلى آماله في قوله :

و ما قولي الأشعار إلاّ ذريعة إلى أمـلٍ قـد أن قود جنيبـه
و إنّـي إذا ما بلّغ الله منيتـي ضمنْت له هجر القريض وحوبه

هذان البيتان من قصيدة ثائرة يقول فيها.

فوالله لا القـى الزمـان بذلّـة و لوحطّ في فوريّ أمضى غروبه
قنعت فعندى كلّ ملك نزولـه عن العزّ و العلياء مثل ركوبـه

و موقف العزة هذا الذى وقفه الرضي رفع مكانته في الدولة ، و أسبغ عليه أرفع المناصب و هو في العشرين ، كما أن من يتصل بقصر الخلافة وسدة الملك على هذا النحو لابد أن تجـرى عليـه الأرزاق ، دون أن يسألهـا بشعره أو نثره ، و قد أعلن الرضي في إباء ، في مدحته لأبيه و هو بعد شاب لم يبلغ العشرين، ردّه منحة الملوك إذ كانت لاتليق بمكانته

و كنـت إذا منحتنـي الملـوك نزاراً مـن النائـل القامـــر
أبيـت القليـل و لكننـــي رددت الرّذاذ علـى الماطـــر

و قد أعلن الرضي الطامع لله منذ اتصل به ، أنه لا يبغى مالاً و لا ثروة ، و انما .

مدحت أميـر المؤمنين و إنـه لا شرف مأمول و اعلى مؤمّـم
أريد الكرامة لا المكرمـــات و نيل العلا لا العطايا الجسامـا

و كانت استجابة الطائع لله لرغبته صادقة ، فقد وصله بالكرامة قبل العطاء .

مدحت أمير المؤمنين وإنـه لا شرف مأمول و أعلى مؤمّم
فأوسعنـي قبل العطاء كرامة و لا مرحبـا بالمال إن لم أكـرّم

و كان الرضي يجمع إلى إباء النفس حسن الشكر لصنيع المنعّم ، و لذلك فقد أرسل إلى الطائع لله قصيدة يستكره على تكرمة خصه بها و ثياب و ورق ، أولها :

أنا للركائب إن عرضت بمنزل و إذا القنوع أطاعنـي لم أرحـل

و كما كانت الأرزاق تجري عليه من قصر الخلافة أيام الطائع لله ، كذلك كانت تجري عليه من بهاء الدولة الملك دون أن يسألها أيضا ، و قد بدأت صلته الرسمية به حين استخلفه على بغـداد سنـة ٣٨٨ هـ ، ثم قويت حين ولـي بهاء الدولة أبا أحمد الموسوى نقابة الطالبيين و الحج و المظالم سنة ٣٩٤ هـ ،

Converted by Tiff Combine - unregistered

فأقام ولداه الرضي و المرتضى بهذه المهام ، ثم اشتدت قوته حين ولاه بهاء الدولة النقابة و أمارة الحج سنة ٣٩٧ هـ و استحصدت بعد ذلك على مرّ السنين حتى توفي بهاء الدولة سنة ٤٠٢ هـ و في خلال ذلك كله كانت الأموال تفدق على الرضي لمركزه و مناصبه فلم يكن الرجل يقدم قصائده لينتظر من وراء إنشادها بدرة أو كيساً من المال .

وفاة الشاعر الشريف الرضي :

إن الشريف الرضي ودع آماله حين سوي على بهاء الدولة التراب سنة ٤٠٣ هـ ، و قد اتضح هذا من هجره القريض ، إلى الحد الذي جعل سلطان الدولة يواصل اقتضاءه منه ، حتى اضطر إلى أن يكتب قصيدته في صفر سنة ٤٠٤ هـ و فيها يقول :

رام منّي قود القريض و لولا ... هُ لقد جاذب الزّمام الأكفّا

هبْ من رقدة الفتور إليه ... بعدما غضّ ناظريه و أغفى

بل إنه كان يدرك أنه يودع الحياة نفسها، ففي شعبان سنة ٤٠٥ هـ رثى صديقه البتّي ، فختم مرثيته بقوله :

ما أخطأتك النائبا ... تُ إذا أصابت من تحبّ

و لم يمض على هذا إلاّ أكثر قليلاً من أربعة شهور حتى لقي ربه في بكور يوم الأحد ، لست خلون من المحرم سنة ٤٠٦ هـ / ٢٦ يونيو سنة ١٠١٦م.

المراجع و الهوامش :

(تاريخ بغداد ٢٤٧/٢ ، المنتظم ٢٨٢/٧ ، وفيات الأعيان ٤/ ٤١٩ ، الكامل حوادث سنة ٤٠٦ هـ ، المعدون من الشعراء ٢٤٤ ، إنباه الرواة ٣/ ١١٥، تاريخ ابن الوردي ١/ ٢٢٧ ، تاريخ أبي الفدا ١/ ١٤٥ ، تذكرة الحفاظ ٣ / ١٠٦٥، عمدة الطالب ٢١٠ ، روضات الجنات ٥٤٨ ، الدرجات الرفيعة ٤٧٨ . و في نسخة من وفيات الأعيان ، ٥ توفي بكرة يوم الخميس سادس المحرم .و قيل صفر .سنة ست و أربعمائة ٥ ، وعنها نقل الصفدي في الوافي بالوفيات ٣٧٨/٢ ، وابن العماد في شذرات الذهب ٣ / ١٨٤ ، و في البداية و النهاية لابن كثير ١٢ / ٣ أنه توفي في خامس المحرم سنة ٤٠٦ هـ . و تفرد ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١ / ٤٠ بأنه توفي في المحرم من سنة أربع و أربعمائة. و كذلك ذكر الخوانساري في روضات الجنات ٥٤٩ ، بعد أن ذكر التاريخ الأول من صفحة ٥٤٨. و القول الأول هو المعتمد في

Converted by Tiff Combine - unregistered

أقرب المراجع التاريخية إلى الرضي . و هو الذي يتفق مع ما جاء في ديوانه في رثائه البتّي المشار إليه فيما سبق ، و ما جاء في ديوان أخيه المرتضى و تلميذه مهيار في رثائهما له) عن سبع و أربعين سنة .

(جاء في كتاب الدكتور إحسان عباس عن الشريف الرضي ١٤٤ أنه توفي عن قرابة اثنين و أربعين عاما ، و هو خطأ).

و قد تساءل أديب التقي عن السبب في قصر عمر الرضي ، و هو من أسرة معمّرة فوالده بلغ السابعة و التسعين ، و أخوه مات عـن إحـدى و ثمانين سنـة و عزا هذا - في تقديره - إلى مرض مفاجئ دهمه بالموت قبل أن يعالج ، ثم ساق ماذكره كرنكو ، من أن الشريف كان ضعيف البنية. (الشريف الرضي ١٠٤ ، ١٠٥)

و ذكر كرنكو أيضا أنه شكا الشيب و هو في العادية و العشرين .

(دائرة المعارف الإسلامية ١٣ / ٢٨٥) و هذا خطأ لأن الرضي شكا الشيب و هو في الثالثة و العشرين ، كما جاء في قصيدته (٣٧٠) .

و لست أدري من أين استقى كرنكو قوله: إن الرضي كان ضعيف البنية. بل إنه ذكر أيضا أن المرض اشتد عليه اشتدادا خطيرا سنة ٤٠٣ هـ ، في جمادى الأولى حتى يئس الناس من حياته ، بيد أنه ما أن انقضى شهران حتى أبلّ من مرضه ، إلى حد أنه استطاع أن يرسل في شهر رجب قصيدة أخرى إلى سلطان الدولة في أرّجان . (المرجع السابق)

و واضح من هذا أن الأمر اختلط على كرنكو ، فالذي مرض حتى يئس الناس منه هو بهاء الدولة لا الرضي.

و قد ساق ابن معصوم و الخوانساري قصته في إنشاء الرضي لبيتين أكمل بهما عمل أخيه المرتضى ، (روضات الجنات ٥٤٨ ، الدرجات الرفيعة ٤٦٨ ، ٤٦٩)

ورياها عن أبي الحسن العمري ، و جاء في اخرها في رواية ابن معصوم أن المرتضى قال " يعزّ عليّ أخي ، قتله الذكاء . فما كان إلاّ يسيراً حتى مضى لسبيله " و في رواية الخوانساري : يعز على أخي ، يقتله الفهم بعد أسبوع ، فما دار الأسبوع إلاّ و جاء نعي الرضي ، و مضى لسبيله . و القصة - كما ذكر أديب التقي و الدكتور إحسان عبـاس - (الشريف الرضـي ، لأديب التقـي ١٠٢ ، ١٠٣ ، و للدكتور إحسان ٢٥٨ - ٢٦٠). صيغت على مثال قصـة أبي تمـام مع الكنـدي ، و صيغت لبيان بديهة الرضي ، و قوة حدس المرتضى . و قد ذهب الخوانساري ، بعد رواية القصة ، بعيدا في أن ذلك حدث لاحتراق خلط السوداء ، أو لتوجيه الحواس الباطنية بكليتها إلى التأمل. (روضات الجنّات ٥٤٩)

و ليس لهذا كله يوفي أجل انتهى ، لكل أجل كتاب.

و لما توفي الرضي حضـر الوزير فخـر الملك و جميـع الأشـراف و القضـاة و الشهود و الأعيان ، و صلى عليه الوزير في الدار مع جماعة أمّهم أبو عبد الله بن المهلوس العلوي ، ثم دخل الناس أفواجاً عليه ، و دفن في داره بخط مسجد الأنباريين بالكرخ. (المنتظم ٧/ ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، وفيات الأعيان ٤/ ٤١٩ ، الوافي

Converted by Tiff Combine - unregistered

بالوفيات ٢٧٨/٢ ثم بعض المراجع التي سبقت في وفاته)

و لم يستطع أخوه المرتضى أن ينظر إلى تابوته و دفنه ، فمضى إلى مشهد موسى الكاظم بمقابر قريش ، و ركب فخر الملك في آخر النهار ، فعزاه و ألزمه العودة إلى داره ففعل. و قد حفظ له المرتضى هذا الصنيع ، فقال في رثائه لأخيه .

من مبلغ فخر الملوك أننـــي ... للفضل من نعماء لست بباس

ستردّت عني كريهـــا من غمـة ... و عدلت لي الإيحاش بالإيناس

وفلستني منها و قد صمّمت علـى ... جلدي الرّواجل أيّ يوم خلاس

إن كان فرعي قد مضى و بقيت لي ... فالفرع مسدول على الأساس

(ديوان الشريف المرتضى ٢ / ٢٣٥)

و هذه الأبيات ، و ما تدل عليه من عظم المصيبة لدى المرتضى في أخيه ، تعمو الظن الذي ظنه أديب التقي ، حيث قال . « إن تعليل هذه الحادثة لا يقنع ، فالمرتضى إلى ذلك الحين ، كان قد ذرف على الخمسين ، و ما هو بالفتى الحدث الذي يجزع لرؤية الموت ينزل بعزيز عليه ، و لم يكن من ضعف الإيمان بالحالة التي لا تتحمل قضاء الله ينفذ في أخيه ، و ربما كان لهذه الحادثة باعث غير باعث الجزع ، و قد يكون الباعث نفسانيا لم نطلع عليه . و بين الرضي و أخيه وحشة سالفة، استدعت العتاب و المراسلات بالشعر و غير الشعر» (الشريف الرضي ١٠٥)

و قد دفن الرضي ـ كما سبق ـ في داره بخط مسجد الأنباريين الكرخ ، و يذكر ابن خلكان و ابن العماد نقلاً عنه ، أن الدار خربت ، و أن القبر دثر .

(وفيات الأعيان ٤ / ٤١٩ ، شذرات الذهب ٣ / ١٨٤).

بينما يذكر ابن عنبة أنه نقل بعد ذلك إلى مشهد الحسين عليه السلام بكربلاء ، فدفن عند أبيه ، و قبره ظاهر معروف. (عمدة الطالب ، ٢١٠ ، ٢١١).

و يقول ابن معصوم « ثم نقل الرضي إلى مشهد الحسين بكربلاء فدفن عند أبيه » . (الدرجات الرفيعة ٤٧٨)

أما الخوانساري فقد زاد في المنقول عن ابن عنبة بعد قوله . « و قبره ظاهر معروف » ، قوله : « هناك قريبا من الروضة المنورة » ثم نقل قول الطباطبائي : « و الظاهر أن قبر السيد ـ يعني المرتضى ـ و قبر أخيه و أبيه ، في المحل المعروف بإبراهيم المجاب ، و كان إبراهيم هذا هو جد المرتضى ، و ابن الإمام موسى عليه السلام و قبر إبراهيم المجاب في العائر معروف مشهور » ، قال الخوانساري : « و كأنه القبر الواقع في أواخر ـ كذا ـ رواق فوق الرأس من الحرم المطهر ، و قيل : إنه الآن في المسجد المتصل بالعائر من جهة خلف الحضرة المقدسة فليلاحظ ». (روضات الجنات ٥٤٩).

و في الكاظمين ببغداد قبة قائمة على قبر ينسب إلى الشريف الرضي ، و قد

Converted by Tiff Combine - unregistered

جزم السيد محسن الأميني بأن هذا القبر ليس قبر الرضي .
(أنظر الشريف الرضي لأديب النقي ١٠٨)

و قد لقب بالرضي جماعة ذكرهم ابن عنبة. (عمدة الطالب ٧٥)
فلعل القبر لواحد منهم .

ورثى الرضي أخوه المرتضى بقصيدة باكية ، مطلعها :

قدني إليك فقد أمنت شماتتي ... و كفيت مئني اليوم حدق مراسي

و فيها يقول .

يا للرجال لفجعة جذمت يدي ... و وددتها ذهبت عليّ براسي

مازلت أحذر وردها حتى أتت ... فحسوتها في بعض ما أنا حاس

ثم يصف مكارم أخلاقه ، و عظيم صفاته ، فيقول :

و ينعى إليّ وليته لم ينع لي ... عنت القروم و فاصخ المتوّاس

و معفّر النجباء خلف ترابه ... و معجّز النظراء و الأجناس

من قاد شوس الفخر بعد تقاعس ... و استاق شمّ الذكر بعد شماس

من كان مرجواً لكل حفيظة ... تدعى و مدعواً ليوم عماس

من كان يأبى فضله العالي الذرا ... من أن يقاس إلى الورى بقياس

و يشير إلى اختطاف الموت له

واهاً لعمرك من قصير طاهر ... و لربّ عمر طال بالأرجاس

كما يبلغ به الأسى مبلغه في قوله .

يا موت كيف أخذت نفسي تاركاً ... نفساً عليها جمّة الأنفاس

(ديوان الشريف المرتضى ٢/ ١٣١ - ١٣٥ . و قال الصفدي في الوافي بالوفيات ٢ / ٢٧٨ : « و رثاه المرتضى بمرات كثيرة » . و قد فتشت في ديوانه فلم أعثر له إلاّ على هذه المرثية).

كمارثاه تلميذه مهيار الديلمي بقصيدة ميمية، أبان في آخرها عن لوعته لفراقه:

لأساهرنّ الليل بعدك حسرةً ... إن ليلةً عابت حزيناً نامها

و لأشرجنّ عن العذول على الأسى ... أذناً محرمّةً على من لامها

و لأبدلنّ الصبر عنك بقرحةٍ ... في الصدر لايجد الدواء لحامها

أبكي لأطفئها و أعلم أنني ... بالدمع محتطب أشبّ ضرامها

(ديوان مهيار الديلمي ٣ / ٣٧٠)

Converted by Tiff Combine - unregistered

و هي قصيدة طويلة ، أجاد فيها مهيار في رثاء أستاذه ، فغاظ ذلك قوماً ممن كان يحسد الرضي بالفضل، و نسبوه إلى السّرف في ادّعاء علاقته بالرضي . (الدرجات الرفيعة ٤٧٩ ، و مقدمة القصيدة الدالية في ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٤٩)

فقال قصيدته الدالية

أ قريش لا بغوارك و لا يـــــد فتواكلى غاض النّدى و خلا النّدي

و قد حذا حذو استاذه الرضي في رثائه أباطاهر بن ناصر الدولة بالقصيدة .

ألقى السلاح ربيعة بن نـزار أودى المدى بقريعك المغـــوار

و يقول مهيار مخاطباً قريشاً

خلاّك ذو الحسبين انقاضاً فتـى تجذب على حبـل المذلّة تنقـد

تمر الدّنا أضعـت سماؤك بعده أرصاً تداس بعـــانر و بمهنـد

ثم يذكر أمجاد الرضي :

عادت أراكة هاشمٍ مـن بعـده خوراً لقاص العاطب المتوقّـــد

فجعت بمعجـز أبـــة مشهـودة و لربّ أيـات لها لم تشهـــد

كانت إذا هي في الإمامة نوزعت ثم ادّعت بـك حقّها لم تجحـد

رضي الموافـق و المخالف رغبـة بك و اقتدى الغاوي برأي المرشد

تبعتك عاقـدة عليـك تميمهـا وعرى تميمك بعـد لمّا تعقـد

و راك طفلاً شيبها و كهولهـا فتزحزحوا لك عن مكـان السيّد

و لاينسى مالمزه بـه اللامزون عند إنشاده القصيـدة الأولى، فيصمهم بالتقصيـر و العجز:

أحسنت فيك فساءهم تقصيرهم تذب المصيب إلى الغبير المقصد

و يختم المرثية بهذا الدعاء و تلك اللوعة

لاغيّرتك جنـاب تحـت البـلـى و كساك طيب البيت طيب المحتد

و قربت لا تبعـد و إن علالـةً للنفس زوراً قولـي لا تبعـد

(ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٣)

Converted by Tiff Combine - unregistered

و رثاه أبوالقاسم الوزير المغربي بقصيدة ، منها:

اذكرتنا يا ابن النبـيّ محمـــدٍ يوما طـوى منـــا أباك محمـــدا
و لقد عرفت الدهر قبلك سالباً إلاّ عليك فمـا أطـــاق تجـــلّدا
مازلت نصل الدهر تأكل غمـده حتى رأيتك فـي حشاه مغمـــدا

(دمية القصر ١ / ٩٧)

و رثاه سليمان بن فهد بقصيدة ، مطلعها

مذيرى مـــن حادثٍ قد طـــرق أمـــات الهـدىّ و أحيـا القلـق

(مقدمة حقائق التأويل ١١٢ ، الشريف الرضي لأديب التقي ١٠٦)

و في هذه المراثي بعض الوفاء للرجل كان يعظّم الم الفقد ، و يبكي على كل صديق فارقه ، بل إن كان يبكي على أناس لا يفتقدهم أحـــد ، رقة قلـب ، و سموّ عاطفة ، حتى عرفه الأبناء بالنائحة الثكلى. (انظر الوافي بالوفيات ٢ / ٣٧٤)

Converted by Tiff Combine - unregistered

مذكرة رحلة الحجـــــاز
لسمو الشيخة سلطان جهان بيكم أميرة بوفال

بقلم : احسن علي خان
بوفال

سلطان جهان بيكم حاكمة إمارة بوفال قد رحلت إلى أرض الحجاز المقدس، فالفت مذكرة شيقة ممتعة. بها نعرف الفرق الواضح بين حج اليوم و الأمس. كان الحاج يمرّ من المصائب العظام و الخطوب الحالكة شديدة السواد قبل قرن من الزمان ، و كان يسافر و قلبه خفقان من الخطرات المحدقة به، و فيها عبرة للحجاج الكرام الذين يظعنون إلى تلك البقعة المباركة هذه الأيام بيسر و سهولة.

إمارة بوفال الإسلامية :

أذكر قبل البدء في الموضوع الأصلي سطورا عن إمارة بوفال الاسلامية المرحومة كمدخل للبحث الشيق.

أسست هذه الإمارة بوسط الهند على يد قائد أفغاني دوست محمد خان في بداية القرن الثامن عشر و كانت دولة المغول تحتضر و تكاد أن تنمحي من الوجود. و أحوال الهند تنتقل من سيء إلى أسـواء و لم يبق من الاستقرار و النظام شئ. و كانت هذه الامارة محاطة من جميع الجهات بأقوام همهم القتال و الاغارة مثل المرهتا و البندارة.

استمرت الحروب بأقوام مجاورة حتى بعد تأسيس الإمارة بقرن. و انخرطت الإمارة في معاهدة مع شركة الهند الشرقية توقف القتال و انتهت الحروب. و لم تبق إلاّ الحرب الأهلية بين بعض أسرة الطبقة الحاكمة.

في عهد سكندر جهان بيكم و شاجهان بيكم وصلت الإمارة إلى أعلى درجات الرقي و التطور و الازدهار، و في عهد سلطان جهان بيكم تطورت الإمارة إلى أعلى معدل للحضارة و الثقافة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

عهد الأميرة سلطان جهان بيكم :

توفيت الأميرة شاجهان بيكم فى ١٦ يونيو ١٩٠١م فى الساعة الثانية عشر ظهرا ، و دفنت فى حديقة نشاط ، و كانت المرحومة قد انهت مسئلة ولاية العهد لإبنتها سلطان جهان بيكم. و بعد وفاتها اخبر المستر جي لينج الوكيل الانجليزى لدى الإمارة وزير الإمارة المولوى عبد الجبار خان ان حكومة الهند المركزية قد اعترفت بحكومة الأميرة سلطان جهان بيكم.

عزمها للحج قبل تولى السلطة :

و كانت سلطان جهان بيكم تعتزم الحج منذ ان كانت ولية للعهد، و كان وراء هذا العزم شيئان : الأول ، كانت علاقتها بأمها قد تكدرصفوها لأسباب سياسية. و الثانى: كانت متدينة و صاحبة استطاعة تخاف فى تأخير اداء هذه الفريضة، و هى تشير إلى السبب الأول فى كتابها "جوهر اقبال" فى عهد شاجهان بيكم كنت اعتزمت ان أهاجر إلى مكان آخر بضغط المشاكل و المصائب التى كنت اتحملها ، فقد اشرت إلى ذلك فى رسالـــة بعثتها إليهـــا، و كنت اعتقد أن أمن بقعة على وجه الأرض هى بيت الله الحرم".

و اشارت إلى السبب الثانى فى نفس الكتاب " كنت أناقش زوجى النواب احتشام الملك بهادر فى أكثـــر الأوقات فـــى مسئلة اداء فريضـــة الحـــج و كنت أؤكد عليه اننا مستطيعون و نسئل عن التأخير يوم القيامة " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " (١)

و لما تولت زمام الحكم لم يبق مانع من الزوج و لا حاجة بقيت للاستئذان من أمها و اشتاقت و تاقت نفسها مرة أخرى للحج ، و هى تكتب بعد وفاة زوجها " و كنت اتحرق شوقا للحج و لزيارة روضة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة " (٢).

الاستئذان من الحكومة بدلهى :

و كانت تحتاج للحج باذن من حكومة ابهند المركزية فقدمت طلبا إليها فى ٣ من مارس سنة ١٩٠٢م للاستئذان للسفر و لاصطحاب ابنيها الصغيرين محمد عبيد الله خان و محمد حميد الله خان ، و كذلك طالبت أن يرافقها مسئول طبى كبير إلى جدة كما رافق الدكتور لاسين مع الأميرة سكندر جهان بيكم. و أرسلت هذا الطلب عن طريق الوكيل السياسى إلى حاكم الهند العام.

الاذن بعد جلوس الملك على العرش :

و اطلعت الأميرة من قبل الحكومة المركزية بدلهي فى ١٦ يوليو ١٩٠٢ ، انها تجيز لها السفر إلى الحجاز بعد مهرجان جلوس الملك على العرش بدلهى ، و تسعى الحكومة ان تكون فى مرافقتك مسئول طبى إلى جدة. فعليها أن تؤخر

Converted by Tiff Combine - unregistered

سفرها، و كانت كلها شوق ، و كانت تستعجل الذهاب. و لكنها أجبرت إلى مابعد مهرجان جلوس الملك على العرش.

و عقد مهرجان الجلوس بأوائل شهر يناير ١٩٠٣م بدلهي . و اشتركت فيه وبعد الفراغ منه فورا بدأت الاستعداد للسفر و كتبت إلى الميجور ل اسى الوكيل السياسى بامارة بوفال ان الحكومة المركزية اذنت لي بالسفر للحج بعد مهرجان الجلوس على العرش. و لكن كان فى الاذن إشارة أن يطلب مرة أخرى بعد الجلوس فيناسب أن تحصل علـى الاذن الجديـد باقصى سرعـة ممكنـة و اطلعني بذلك، فاطلعت فبدأت الأميرة استعدادها.

استعداد السفر للحج :

و كان أهم شيء فى هذا المضمار من يتولى شئون الإمارة فى غيابها، فقررت تعيين ابنها الأكبر محمد نصر الله خان، و كتبت له الدستور و ذكرت فيه كيف يرعى شئون الرعية و البلاد و سلمت إليه هذه الوثيقة للعمل عليها كما أخبرت الحكومة المركزية عن هذا التعيين.

و كانت تريـد الاستعانة من الحكومة الانكليزية المركزية فى الأمور الآتية :

١ - ان تعين الحكومـة مسئولا كمرافـق لها فى السفـر إلى ينبـع و جـدة و المدينة المنورة و مكة المكرمة و الاياب منها.

٢ - طالبت الأميرة طلبا من الحكومة المركزية لإرسال بريدها هى مكان سفرها و اقامتها.

٣ - طالبت الأميرة تهيئة السفينة التى تنقلها إلى الحجاز.

٤ - مسئلة القرنطينة، كانت تجرى للمسافرين الهنود مرتين، الأولى فى ميناء المغادرة و الأخرى فى ميناء قامران تبعاً لمعاهدة الأمم المتحدة لحفظ الصحة. كانت الأميرة تريد الاستثناء من التطويل ، و قد طلبت اجراء جميع مراحلها فى بوفال لوكانت ضرورية، و كذلك كانت تبتغى الاستثناء من قرنطينة قامران، و استمـرت مراسـلات طويلـة بينها و بين الحكومة الانكليزية و السلطنة العثمانية بهذا الخصوص.

٥ - مطالبتها الحراسة من الحكومة التركية ، طالبت الأميرة من الباب العالى عن واسطة سفارة الحكومة الانكليزية ان تسمح لها باصطحاب الجنود المسلحين، و الباب العالى لم يسمح بذلك و لكنه وعد بحراستها بواسطة جنوده.

٦ - تسهيل عملية الجمرك، كتبت الأميرة إلى الميجور ايمسى ان يكتب رسالة تصديق إلى مسئول الجمرك ببومبائى أو إلى محافظ المدينة أن أمتعتى ليست بها أشياء ضارة للصحة أو المخدرات.

Converted by Tiff Combine - unregistered

الوصية قبل السفر :

الوصية شيء مهم فى الاسلام و جاءت أهميتها و تأكيدها فى الحديث النبوي، فرأت أن تملى وصيتين قبل سفرها للحج إحداها عامة و الأخرى خاصة. طلبت الأميرة للوصية العامة اثبات توقيعات كل من السادة معالى الوزير المولوى عبدالجبار خان، و قاضى الإمارة المولوى عبد الحق ، و مفتى الإمارة المولوى يحيى و أودعتها عند أبنائها الثلاثة و قاضى الإمارة و مفتيها.

أما الوصية الخاصة فقد سلمته إلى معتمده الخاص و قالت له إن رجعت سالمة فردّها إليّ و إلاّ سلمها إلى الأمير نصر الله خان.

الأمور التى لم تحل كاتبت بخصوصها مرارا و تكرارا حتى حلت معظمها و لم تحل بعضها إلى مغادرتها.

الحكومة الانكليزية المركزية عينت الميجور ر . س . ميكورات موظف شئون الصحة الهندية ليرافقها فى سفرها للحج و كان يريد ان يصطحب زوجته فى السفر فحلقت الحكومة الأمر على رضاء الأميرة ، و كتبت فى كتابها " روضة الرياحين " : "كنت استفدت كثيرا سياحيا بسبب الميجور و زوجته تمتعت بالسفر و لا أنساها مشكورة" .

و مسئلة البريد حلت كما شاءت الأميرة. أما مسئلة السفينة و أجرتها و نظافتها وغيرها من الأمور استمرت فى ذلك مراسلات طويلة بينها و بين مسئولى الحكومة فاستأجرت سفينة أكبرلنفسها و لرفاقها من الحاج قاسم و تم اتفاق فى ذلك حتى لاينشأ النزاع عند زيادة عدد المسافرين، و كان معها ثلاثمائة مسافر و أربعون فرسا و أشياء أخرى و كانت السفينة ذات ثلاث درجات الأولى و الثانية و الثالثة ، و كانت متسعة جدا.

و اطلع الميجور المسى عن حراستها من قبل الحكومة التركية و أخبر انه استلم برقية الوزير الهندى ان الحكومة التركية تهيئ لها الحراسة عن طريق جنودها و تقدم تسهيلات فى الجمرك و تستطيع أن تصطحب رجالها و شرطتها و لكن بدون أسلحة و أما اذا كانت فى حوزتهم الأسلحة فيجب أن يتركوها فى السفينة ، و كتب الميجور أيضا انك لو سلمت الشروط المتعلقة عن الشرطة فاطلب من الأميرة المحترمة أن تكتب إليّ رسالة تذكر فيها ان شرطتها تدخل بدون أسلحة و انهم كلهم مسلمون.

فكتبت الأميرة إلى الميجور التحرير التالى انا أطمئنك ان جنودى غير مسلحين إلاّ بعض مسئولى الإمارة الكبار يحملون أسلحة خفيفة و هى ضرورى لهم لأنها حلية الرجال. و لأجل اتفاق الأمم المتحدة كان يجب أن تمر الأميرة على القرنطينة و لكن ببوفال بدل بومباني و فى بورسعيد بدل قاصران.

مراسلة بعض الشخصيات الحجازية المهمة :

بعد أن تمت هذه المراحل راسلت الأميرة ببعض الشخصيات المهمة

Converted by Tiff Combine - unregistered

بالحجاز حتى لا تتعب في السفر هناك و القيام بها فارسلت الهدايا لبعضهم و كانت الأميرة أرسلت قبل سفرها المولوى نوالفقار احمد النقوى و المولوى عنايت الله و المولوى أعظم حسين و حمد شكرى أفندى الذين كانوا موظفين بالإمارة أرسلتهم إلى السادة الآتى ذكرهم :

السيد شريف عون الرفيق باشا أمير مكة ، و كانت له علاقة مع إمارة بوفال منذ عهد الأميرة سكندر جهان بيبم.

السيد دولتلو احمد راتب باشا حاكم الحجاز ، و كان قبل تعيينه حاكما زار بوفال و كانت علاقته مستمرة بها.

السيد عثمان باشا شيخ الحرم المدنى

السيد حسن مظفر شاه حاكم المدينة المنورة

كانت الأميرة كتبت إليهم الرسائل و أرسلت التحف و الهدايا و ألف روبية لكل من أمير مكة و حاكمها و شيخ الحرم المكى و حاكم المدينة.

القرنطينة الأولى :

كانت الأميرة تريد مغادرة بوفال فى ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٠٣م و لم تعلم هل تجرى القرنطينة ببوفال أو بومبائى ، و أخيرا اطلعتها حكومة بريطانيا بقرار يناسبها احتراما لها أن تهجر هى و أصحابها المدينة و تقيم فى مكان بعيد عن المدينة عشرة أيام . فلم تبق بعد ذلك ضرورة للقرنطينة ببومبائى.

و كانت القرنطينة لازمة للهنود لأن بلاد الهند كانت مشهورة بمرض الطاعون و الأوبئة الأخرى . و كانت الحكومة تحذر المسافرين أن يذهبوا إلى تلك الديار حاملين فيروس الأوبئة . فلو لم تمر بسلامة من القرنطينة التركية ترحّل إلى الهند و تتعب و تلزم عليها الانفاق و اذا أبيح لها السفر تسبب نشر الطاعون هناك.

و كانت الحكومة التركية اشترطت حيال قرنطينة القافلة السلطانية ما يلى :

- أن تجرى ببوفال .
- أن يغسل القطار لإزالة الاثرات السامة و توقد البخور به.
- يجب أن تكون السفينة بحجم الضوابط المقررة المطبقة من الحكومة التركية.
- ابادة جميع الفئران بالسفينة.
- ان كان الوباء إلى الآن فيطلع بذلك إلى الحكومة التركية.

فلما أبيح للأميرة باجراء قرنطينتها ببوفال ، قسمت أصحابها إلى فئتين . عدد الأول منها مائة شخص تقريبا. و أقاموا بحديقة نشاط افزا التى بنتها الأميرة شاجهان بيكم و حديقة حيات افزا التى عمرتها الأميرة نفسها الملحقتين و يفصل بينهما جدار فيه مدخل . أما الفئة الأخرى كان فيها بقية

Converted by Tiff Combine - unregistered

الأصحاب. و كانت قرنطينتها بقرية ديب تبعد عن بوفال اثنى عشر ميلا فى الجنوب وتمر بها سكة الحديد أيضا، و هذا الركب ذهب إلى ديب فى ١٨/ اكتوبر ١٩٠٣م و أقامت بميدان هناك لعشرة أيام حسب ضوابط القرنطينة و عين المنشى عنايت حسين و الميرزا كريم بك مسئولين عن هذا الركب.

و الأميرة انتقلت مع ابنيها عبيد الله خان و حميد الله خان من قصرها بصدر منزل إلى الحديقة بعد صلاة الفجر مباشرة، و مرافقوها وصلوا إليها من قبل.

فاقامت الأميرة مع ابنيها و النسوة فى حديقة نشاط افزا و أما بقية الرجال فاقاموا بحديقة حيات افزا.

و فتحت ادارة البريد مكتبا مؤقتا هناك، و كانت ترد إليها الرسائل تباعا. و كانت تدير شئون الإمارة من هناك و كان ممسوحا للأمير نصرالله خان و كبار رجال الحكومة لقاءها.

الطبيبة السيدة مكلان تفحص النسوة و الميجور مكورات يفحص الرجال و كذلك كانا يذهبان إلى ديب لفحص المقيمين هناك.

و هكذا انتهت مدة عشرة أيام للقرنطينة.

من بوفال إلى بومبائى : فى ٢٨/ اكتوبر ١٩٠٣م ركبت الأميرة القطار من محطة مؤقتة قرب الحديقة شيدت لأجلها ، مع ابنيها و ركبها فى الساعة الثانية عشر ليلا، و كان سبب فتح هذه المحطة مراسلتها مع وزارة المواصلات عن طريق الميجور ايمس.

الميجور مكورات و زوجته ركبا من محطة بوفال، ثم وقف القطار فى محطة ديب فركبت القافلة من هناك. و وصل القطار برعاية الله إلى بومبائى فى الصاعة السابعة صباح الجمعة فى ٣٠/ اكتوبر ١٩٠٣م.

استقبالها فى بومبائى :

و كان بمحطة وارى بندر كثير من مستقبليها من أهمهم الأمير نصرالله خان الذى وصل هناك لترتيب السفر، و الميجور ايمس الذى وصل هناك لاستقبالها و سكرتير حكومة بومبائى الكابتن جودراج و موظفو إمارة بوفال و بعض التجار و أصحاب الأعمـــال و بعض الأوروبيين و الأوروبيـات. و كانت المراسم العسكرية فى انتظارها و حينما نزلت من القطار قدم إليهـا السلام و المراسم الرسمية العسكرية و المدنية ، و اطلقت المدفعية من قلعة بومبائى طلقاتها و بعض الحضور قدموا الزهور و الباقات.

المغادرة من بومبائى :

باخرة "أكبر" التى استأجرتها الأميرة كانت ملاصقة للرصيف على الميناء فركبت هى و من معها و الوكيل الانكليزى و بعض الرجال الأوروبيين

Converted by Tiff Combine - unregistered

ودُعوها من الميناء.

المراسلات الطويلة التى تمت بين الحكومة الانكليزية و السلطنة العثمانية ما حلت جميع مشاكل السفر، و كانت تبقى الايضاحات فى بعض المشاكل و خاصة عن القرنطينة الثانية. فاطلعت ان تفاصيل ذلك ستعلمين عنها بعدن.

فى الساعة الرابعة حضر الأمير نصر الله بغية اللقاء بها، و فى الساعة الخامسة رفعت الباخرة مرساها فردت هى و مرافقوها التلبية و تلوا " بسم *الله مجريها و مرساها*".

وصو الباخرة بعدن :

و كانت النظافـة بالسفينـة تماما، فلم يحس شخص بالقـيء و الدوخ. و الأمير عبيد الله خان أحس بالقيء فى بداية السفر و لكن بتوجه الدكتور ميكوارت انتهى كل شئ.

رست الباخرة بميناء عدن فى الساعة الحادية عشر ليلا فى السابع من نوفمبر سنة ١٩٠٣م و قد استلم قبطان السفينة برقية المستر ديوى قنصل جدة محتواها ان باخرة سمو الشيخة لا توقف بلامران بل تصل إلى جدة مباشرة.

القرنطينة ببئر سعيد :

فى الحادى عشر من نوفمبر وصلت الباخرة قرب جدة و رأى الكابتن انه لايناسب وصول السفينة بجدة ليلا و تبقى تعوم فى البحر و ترسى بالميناء صباحا.

فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٠٣م الموافق ٢١ شعبان رست الباخرة بميناء بورسعيد التى كانت جزيرة جميلة و قد تقرر ان القرنطينة الثانية للأميرة تكون هناك و هى محاذية لجدة بينهما البحر الأحمر و رست باخرة الأميرة قريبة من جهة جدة حتى تسهل عملية العمل و النقل.

بابعاز من الحكومة الهندية قبلت الحكومة العثمانية بشرط التزام القواعد الصحية المقررة لاتكون حاجة للقرنطينة الثانية، و قد قبلت ذلك وزارة الصحة بقسطنطنية أيضا. و لكن بسبب وباء الطاعون ببوفال طالبت وزارة الصحة بقسطنطنية مصرة على قرنطينة عشرة أيام، و هى اما فى قامران أو فى بئر سعيد و لكن سمحوا للأميرة أن تبقى بالسفينة أو تنزل على البر حسب ما تشاء.

نائب القنصل البريطانى الدكتور محمد حسين حضر مع بعض المسئولين و اقترب من الباخرة و لم يدخلوها بسبب كونها فـى القرنطينـة. و أخبرها الدكتور أن القنصلية البريطانية بجدة ابرقت إلى الباب العالى أن يعفى سموها عن القرنطينة. فى اليوم الثانى حضر القنصل البريطانى

Converted by Tiff Combine - unregistered

بنفسه و اطلع بذلك البرقية . و لكن بسبب تأخر الردّ من القسطنطنية بقوا في القرنطينة ستة أيام، و في اليوم السابع وصله الخبر عن اعفاء القرنطينة. و الخبر الرسمي عن الاعفاء وصل إلى الميجور ميكوارت في صورة رسالة فانزل الرجال على إلبر و طهروا بالبخور.

حسب البرنامج المقرر ارسلت الأميرة خمسين شخصا في رياسة الحافظ عبد الرحمن إلى مكة المكرمة و هم أودعوا خمسة آلاف روبية معدنية امانة عند القنصلية البريطانية.

دعوة سموها إلى مكة :

كانت سمو الشيخة تريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة و من ثم إلى مكة المكرمة و بقي في حلول رمضان المبارك يومان فقط ، فلما حضر القنصل و نائبه لزيارة سموها أخبرتهما انها تريد أن تقضي معظم أيام رمضان بالمدينة المنورة و لذلك اريد أن أصل إلى جدة بسرعة ممكنة. و أخبرها القنصل ان السيد شريف وجه إليك الدعوة ان تحضر إلى مكة المكرمة أولا و من هناك يرسلك و مرافقيك إلى المدينة المنورة بالتكريم و الاعزاز ، و كان قد أرسل محملا لركوبها و أربعة لحراستها و مرافقيها.

و لكن الأميرة قالت انها نوت الذهاب أولا إلى المدينة المنورة حسب برنامجها ، و لم تحرم من " يلملم " ميقات أهل الهند ، فتريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة ، وردت المحمل ، لأنها اصطحبتها من الهند ، مشكورة و لم ترد الاشراف.

حراستها من السلطان المعظم :

حضر بعض العسكريين و السيد علي يعني القائم باعمال الحاكم بجدة و المسئول الطبي على السفينة للسلام عليها. و هؤلاء استفسروا حالها عن طريق نائب القنصل و أخبروها أن السلطان المعظم أكد لحراستها و الاهتمام بها و أمر بارسال مدهمين و سيعمائة جندي تركي معك.

و لكن لأجل اعفائك من القرنطينة لم تغادر الجنود من المدينة المنورة فاذا أردت الانتظار فانتظريهم و اذا تريدين السفر بسرعة نرسل في رفقتك مائتي جندي من جدة و مائتي جندي من ينبع.

في اليوم الثاني ركب أحمد أفندي و سليمان أفـا باخرتهـا مع خمس و عشرين مسئولا و ١٩٤ جنديا ، و كذلك الاشراف الأربعة المرسلون من قبل السيد شريف مع خمسة عشر شخصا.

وصولها إلى ينبع :

غادرت الباخرة ميناء جدة يوم الجمعة ٢٠ نوفمبر ١٩٠٣م الموافق ٢٩ شعبان

Converted by Tiff Combine - unregistered

١٣٢١ هـ، و بعد أربع و عشرين ساعة كاملة رست الباخرة فـي ينبـع البحـر، و كان هناك الهواء شديدة و تلاطم الأمواج هديرة، ابتلى الناس بالقيء و الدوخ و كان سفرها بدون اطلاع مسبق فلم يعرف أحد بقدومها و لكن المسئولين الأتراك لما رأوا الباخرة جمعوا العساكر و اصطفوا و قدموا اليها السلام الرسمي على الميناء و كان القائم باعمال ينبع السيد مصطفى أفندى جاء إلى الميناء و اجتمع كثير من الناس لاستقبالها. و لقى بها الاشراف فـي السفينـة و كان أول يوم من رمضان فلم تصم و كانت مسافرة حل لها الفطر.

الإقامة بينبع :

نزلت الأميرة من الباخرة فى عبرة ذات حجاب، و لما وصلت إلى الميناء اطلقت ٢١ طلقة من المدفعية و قدموا الجنود المصطفون تحية لها و سلاما.

و أرسلت الأميرة المولوى أعظم حسين و المولوى ذوالفقار أحمـد النقوى و المولوى عنايت الله و شكرى إلى ينبع مسبقا حتى يتعين إقامتها هناك، فهم قرروا استئجار بيت قرب الساحل بمستمائة روبية فأقامت.

و كان للحراسة جنود و لكن لابداء الاهتمام و التكريم عين الحراس من الجيش التركي. و كان مصطفى فرحت باشا أرسل إلى سموها مياه المدينة المنورة و رمانها و تمورها.

و المسئول الطبى الدكتور الميجور ميكوارت و زوجته الذين رافقاها من الهند رجعا إلى جدة بالباخرة " أكبر " بعد أن نزلت سموها بينبع ثم أقامت هناك خمسة أيام.

من ينبع إلى المدينة :

فى السابع من رمضان المبارك غادرت قافلة الأميرة إلى المدينة المنورة فى الساعة الثانية عشرة ظهرا على الإبل فقد استؤجر مائتا إبل و حضر الجنود من جدة معها، و زاد الجنود من هنا أيضا ، و كان عدد الجنود الترك أربعمائة سوى المدفعية.

الإقامة بمحصلى :

وصلت الأميرة إلى محصلى فى الساعة الرابعة فأقامت هناك و كانت صائمة ، و كان موقع محصلى على الجبل الشاهق و كان ماءها أحمر و طعمها غير جيد ، و الماء المحمول الذى كان فى معية القافلة ضربها الجميع حتى الحيوانات شربت منه. و لما أقامت القافلة هناك ضرب الجيش التركى حلقة لحراستها و نزلت الأميرة بالخيمة، فى الساعة التاسعة ليلا أطلقت المدفعية طلقتها ايذانا بعدم دخول أحد فى الحلقة. و كانت حلقة الجيش بحيث قام كل جندى تركى بعد عشرة أذرع ، و كان حاملا بندقيته و ظهره إلى القافلة، انقضى الليل بالراحة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

الإقامة ببئر سعيد :

فى اليوم الثامن غادرت قافلة الأميرة فى الساعة السابعة صباحا ، و كان الحراسة مثل السابق. كان فى الحلقة الداخلية الجنود المرافقون لها. و فى الحلقة الخارجية الجنود الاتراك. ضربت البوقات قبل بدء السفر. المنزل الثانى لم يكن مثل السابق، و كان الأرض سهلا يسهل المشىء عليها و لم تكن أرض جبلية ذات حجارة صلدة.

فى هذا المنزل حدثت حادثة ، ذهب الأمير عبيد الله خان مع خيله إلى جهة لقيه فى الطريق ثلاثة بدو ، بعد التحية قدموا إليه خبزا و بصلا و جبنة ، و الأمير قبل منهم ذلك مشكورا ، و من عادة العرب إذا لم يستجب أحد لدعوتهم يعتبرون ذلك مهانة لهم ، فقبل منهم شيئا ، قال البدو اثناء الطعام "الله لطيف بعباده". فقرا الأمير "يرزق من يشاء و هو القوى العزيز" فسالوه هل أنت حافظ قال نعم فلما همّ بالرجوع قدموا إليه هدية التمر.

القافلة اضطربت لغياب الأمير لكنه رجع بعد مدة قصيرة فاقنعه السيد حلمى افندى بأن عليك المحيطة و الحذر لأن التجول هكذا خطر.

توقفت القافلـة فـى بئر سعيـد و كان الجنـد ضاربـا حلقته كالسابـق، و اطلقت المدفعية، و جاء شيخ بئر سعيد و طالب الهدايا و العطايا و المنح فقيل له نقدم إليك فى الرجوع.

و قـال المولوى أعظم حسين إمامه: "فقد انقضى هذا السفـر بالراحـة و الأمـن و فى السنة الماضية نشبت هناك حرب كبيرة و مات سبعة أشخاص من قافلتى".

الإقامة بعين حمراء :

غادرت الأميرة فى ٩ من رمضان من بير سعيد ، و كان الطريق جبليا وعرا ملتويا و مررنا بحديقة التمر المثمرة عند العصر و كان بها بئرا حلوا. و توقفت القافلة عند المغرب فى " عين حمراء " و كانت أرضا سهلة صغيرة حولها الجبال ، و كانت بها حدائق التمر و مسجد قديم و نهر صغير ، و كان عدد السكان قليلا. و قد أرادت الأميرة أن تقيم هنا ليوم واحد لأن أرضها كانت مخضلة الربا معتلة الصبا، و لكن حدثت حادثة فغيرت رأيها و اسرعت بالخروج من هذا المكان و الحادثة هى انهم سمعوا طلقات البندقية فى الساعة الثامنة من جهات كثيرة ثم جاءت رسالة شيخ البدو إلى مرافقى الأميرة السيد شريف أحمد بن منصور و السيد أبو جود المدنى. ، كان المكتوب يشتمل على ما يأتى :

"إن كنتم من قبيلة كلب علي خان فاعلموا أنهم وعدوا باعطاء خمسمائة روبية بعد مرورهم من هنا سالمين و لكنهم بعد

Converted by Tiff Combine - unregistered

رجوعهم اخلفوا الوعد، اعطوا هذا المبلغ و أكدوا الوعد لإعطائه مستقبلا، و ان كنتم من قبيلة أخرى فارسلوا مبلغا مناسبا و إلاّ فنحن مقيمون فى ممر حذيفة و لا نترك قافلتكم تمرّ بدون قتال".

فاستشارت الأميرة بالسيد حلمى آفندى و قررت عدم اعطاء شيء لأن القبائل اذا علموا ذلك فكلهم يطلبون ، و لكن الأكثرية فى الركب كانت تريد اعطاء المبلغ المناسب ، و كانوا فى خوف و رعب . ثم قررت الغاء القيام هنـاك و أخذوا الحيطة و الحذر بقدر الإمكان.

القيام ببئر عباس :

فى العاشر من رمضان المبارك غادرت القافلة فى الساعة السابعة صباحا مـن " عين حمراء " و تغيرت طريق الحراسة . و اقترب الجنـود مـن الأميـرة و ضربوا حلقة حول القافلة ، و كان كل جنـدى مستعـدا و محتاطـا و يده على زناد أسلحته.

و كان المقدمة من الجيش التركى ركب الجبال الوعرة و قرر الجنود أن يشيروا إلى القافلة إذا كانت الطريق خالية من الخطر حتى تتقدم القافلة بعد ذلك و كانت الجبال شاهقة و لكن الجيش التركى كان ماهرا فى تسلقها. و كانت القافلة ماشية على هذا المنوال اذ رأى الناس بعض البدو يركبون جبال خيف . ثم بدأوا يمطرون الطلقات من أعالى الجبال، و مرت طلقة من قرب الأميـر عبيد الله خان كاد أن يهلكه و لكن اللّه انقذه من براثن الهلاك. و مرت الطلقات الكثيرة من قرب محمل الأميرة أيضا و لم يتضرر أحد باذن اللّه. تسلق الجيش التركى على الجبل بسرعة فائقة فهرب البدو و كتبت الأميرة فى رحلتها (٥) : " فى السنة الماضية ١٩٠٢م وقعت حرب شديدة فى نفس المكان بقبيلة حامـدة ، و لذلك كان العرس التركى حذرا جدا".

و لما زال الخوف و الخطر نزل الأتراك من أعلى الجبل فرحين مستبشرين يغنون الأغانى . و أطلعت الأميرة و عبيد اللّه خان عن المسئولين الأتراك ان المنطقة ذات خطر قد انقضى و لم يبق داع للخوف. و دعت الأميرة السيد حلمى آفندى فشكرته و الجنـود و السلطان المعظـم ، فقال إن لنا أوامـر لحراستك و سلامتك و نحن فى خدمتك و اعتبرى الجنود أولادك و نحن نخدمك هنا كما يخدمك اهلوك فى امارتك.

و كانت هنا قرية مهجورة و كان بها عيون الماء كثيرة. و الحر كان على اشده، و الجنود تعبوا و حان وقت الظهر فقررت الاستراحة قليلا هناك. ثم وصلت قافلتها إلى خيف ، و كانت قرية بها المنازل ذات الأدوار المختلفة و كانت سوقا كبيرة للشعير و لكنها لم تسترح هناك.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و وصلت القافلة إلى بئر عباس عند المغرب ، و اقامت بميدان رملى واسع، و كانت هناك قلعة بقرب البئر العميقة و كانت بها ثكنة الجيش التركى و عددها خمسون جنديا. و كانت الأميرة تريد القيام بالقلعة و لكن الجيش اشار إلى القيام بالخارج فى الميدان لأن البدو اذا نزلوا و حاصروا القلعة و اغلق الباب فسنكون مشكلة و قبلت الأميرة هذا الرأى المناسب فاقامت فى الميدان.

و جاء شيخ القبيلة و قال للأمير عبيـد الله خـان ان ذ يـوخ القبائـل و أفرادها اجتمعوا و فيهم أولائك الذين اطلقوا البنادق و هـم يريدون الهدايـا و العطايا و إلا يحاولون اتعاب القافلة.

فقال الأمير ان الذين اطلقوا النيران و تسببوا فى احراج الأميرة كيف يستحقون الجوائز و التحف فاجاب ان مطلقى النار حلفوا على تطليق زوجاتهم ان لم يطلقوا. فى هذا الاثناء دخل أحمد بن منصور الذى كان مشاركا فى جرائمهم قال للأمير عليك بوعدهم ان لم يتعبوا فاشفع لهم باربعة آلاف روبية و على حضرتك ارضاء الأميرة بوفاء وعدك . و لما علمت الأميرة بتفصيل الكلام قررت ان هؤلاء عرب يستحقون الخير و ان أساؤا فتبرعـت بالمبلـغ المذكـور و عينت منصور بن أحمد موزعا لهذا المبلغ ، بعد ذلك تعاربوا فى توزيع المبلغ. و غادرت القافلة فـى صبـاح ١١/ رمضـان من بئر عباس و كانت الطريق آمنة.

استقبالها بالعينة بالجيش التركى :

علم الأمير عبيد الله خان عن طريق مسئولى الجيش التركى ان بعض مسئولى الجيش و الجنود و المدفعية حضروا لاستقبال سموها، فذهب الأميـر و الميجور كريم بك و الكابتن محمد حسين خان للقاء بهم، و قال الأمير ان قافلة الأميرة قد اقتربت من هنا فارى أن يصطف جنودك للاستقبال ، و كان رأيا مناسبا قبله الجميع -فاصطف الجنود و وهمت المدفعية على مكانها.

فى قرية بئر عروة جاء القاضى و المفتى و غيرهم لملقاء بها و كانت الحراسة أشد من ذى قبل ، و علمت الأميرة بعد أن المكان كان قريبا من الروافض.

فى ٢ من ديسمبر ١٩٠٣م الموافق ١٣ رمضان المبارك جاء ختن شيخ الحرم للقاء بها فى الساعة الثامنة صباحا. و الكلام بينها تم عن طريق المترجم السيد يسين ، بعد السؤال عن الأحوال قال ان شيخ الحرم فرح بمجيئك - و وصلت البرقيات تباعا من السلطان المعظم انه يهتم بك كثيرا.

فشكرت الأميرة و قال ختن الشيخ ان شيخ الحرم يطلعك ان السيد شريف قرر اقامتك عند السيد صافى و هو مغضوب عند السلطان ، فلا تقيمى عنده و لو اقمت هناك سوف اعتذر من الحضور عندك.

فاجابت الأميرة اننى هيف عليكما و مقصدى زيارة المسجد فاقيم اولا

Converted by Tiff Combine - unregistered

فى بيت رتبه لي السيد شريف ، و ان كان بعيداً من الحرم و كانت مشقة فى الايتان إليه سوف انتقل إلى بيتك الذى رتبت لي.

استقبال خارج المدينة :

بعد لقائها بشيخ الحرم غيّر الركب أثوابه و وضعت الشالات على الإبل و توجهوا إلى المدينة المنورة و كلهم شوق. و كان الناس ياتون فى الطريق لاستقبال القافلة ، و جميع اتراك القافلة اجتمعوا حولها. و الطبول معهم أيضا. و دخلت مراكبهم بالمدينة محتشمة ، و مراسم الاستقبال و الزينة كان عند باب العنبرية فى الساعة الحادية عشرة.

و كان خارج الباب حاكم المدينة حسن مظفر باشا ، و مالك خزائن الحرم الشريف و هما من أهم مستقبليها - و اصطف الجنـود و قدموا اليهـا سلامـا و اطلقت المدفعية إحدى و عشرين طلقة . و كانت قافلتها تشتمل على افراد بطول ميل واحد. و فكر الأمير عبيد الله خان ان افراد القافلة ان لم يعلموا ان المدفعية اطلقت لاستقبال الأميرة ربما خافوا و تحاربوا فأرسل من يخبرهم بذلك و لكنه حصل ما كان فى حسبانه و أصحاب القافلة و المرافقون استعدوا للقتال لما سمعوا طلقات المدفعية.

و الجيش الذى حضر للاستقبال كان فيه مسئولان كبيران و ستة من المسئولين الصغار و مائة و خمسون جنديا.

اقامتها ببئر درويش :

أقامت القافلة ببئر درويش بعد العشاء ، و فى ١٢ من رمضان المبارك سنة ١٣٢١هـ غادرت تحت حراسة مشددة فى الصباح الباكر و كانت الطريق آمنة و ان كانت تلال كثيرة فى الطريق ، و لما وصلت القافلة ببئر علي آثار المدينة المنورة . و أهلها صعـدوا إلى الجبال بشدة الشوق و كان الجـو روحيـا و كانوا يردون الصلاة و السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم و يدل ذلك على حقيقة مشاعرهم. و كتبت الأميرة فى رحلتها عن ذلك " كنا نشم رائحة ذكية فى هذا الميدان تعطر أنفاسنا و لما تقدمت القافلة ظهرت آثار المدينة المنورة جليا واضحا و أكثر أصحاب الركب ترجلوا احتراما. فى الطريق كانت قرى صغيرة و فى بعضها مسجد مشيد.

قيامها ببئر عروة :

أقامت القافلة عند بئر عروة فى الساعة التاسعة ليلا، و المكان يبعد عن المدينة بميلين ، و الأمير عبيد الله خان ذهب إلى المسجد النبوى للسلام فى الساعة العاشرة ليلا.

و كان الجيش مع الطبول و المدافع واقفا لاستقبال لها ، و كذلك علماء

Converted by Tiff Combine - unregistered

المدينة و مشائخها . و اطلقت المدفعية إحدى وعشريـــن طلقة سلامـــا عليهـــا. و نزلت الأميرة فى خيمة نصبت خصيصا لها و قابلت فيها مشائخ المدينة.

و قالت الأميرة فى ردّها لمستقبليها ألفاظ الشكر للحاضرين و خصوصا السلطان المعظم على اهتمامه بها و تكريمها و ضيافتها، و مدحت الجنود الأتراك لقوتهم و صلابتهم و حرصهم على حراستها.

و دخلت بعد ذلك المدينة ، و كان على باب المسجد النبوى عثمـــان باشـــا و شيخ الحرم و قاضيها و مفتيها وغيرهم من المسئولين الكبـــار لاستقبالهـــا ، و كانت طريقة الحجاب غير معقولة و هى صلت و سلمت على الرسول صلى الله عليه وسلم من البعيد و نوت أن تزور القبر الشريف فـــى وقت آخـــر. و وصلت إلى بيت السيد صافى للقيام به، و قد قررت القيام به من قبل.

أمنية الدخول بالروضة المقدسة :

تقدم الأمير عبيد الله خان بايعاز من الأميرة بطلب دخوله هو و الأميرة إلى الروضة المقدسة إلى شيخ الحرم.

فأخبره شيخ الحرم ان دخول النساء غير ممكن و لكنك تقدر بشرط لباسك العباء و العمامة البيضاء مع القلنسوة التركية (وكان ذلك لباس الدخول بالروضة المطهرة).

فى ١٥/من رمضان المبارك دخل الأمير عبيد الله خان و الميرزا كريم بك و الكابتن محمد حسن خان فى الروضة النبوية ، و قرأوا الفاتحة أوقدوا الشموع و قدم خدام الروضة إليه الأشياء التى تعقد فيها البركة، و ماء الورد التى تغسل بها القبر الشريف.

الإقامة ببيت آخر :

كان بيت السيد صافى بعيدا عن الحرم و كان قصدها بالمدينة المنورة حضورها فى الحرم الشريف . و هى تعبت لبعد بيتها عن الحرم انتقلت إلى بيت آخر قرب الباب المجيدى فى ١٥/ رمضان المبارك ، و كان هذا البيت أخذ على الأجرة بيد المولوى أعظم حسين بعد الاستشارة من شيخ الحرم. و استؤجر بيت آخر قريبا من مقام القافلة ، و كانت أهل شيخ الحرم يحضرن إليها فى هذا البيت.

حضورها إلى القبر الشريف :

كان بيت السيد صافى بعيدا عن الحرم الشريف ، و كان الحضور إلى المسجد النبوى سعيا، و لكنها لما انتقلت إلى بيت عند الباب المجيدى طفقت تحضر معظم الأوقات. و قد رتب لها شيخ الحرم الوحدة عندما تحضر بعد العشاء.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و لما حضرت الأميرة إلى الحرم أول مرة كان لاستقبال لها على الباب شيخ الحرم و القاضي و المفتي بها و أعزة أهلها ، و كانت سيرقعة سلمت عليهم و دخلت المسجد ثم توجهت إلى الروضة الشريفة ، و بعد ذلك كانت تحضر كل يوم بعد العشاء ، فلا تجد أحدا حتى النساء.

المآدب من قبل العمالي و المشائخ :

و كانت وجهت إليها دعوة المآدب في المدينة من قبل أعزة أهلها. أول مأدبة حضرتها كانت من قبل علي زاهد وترى و كانت مأدبة فاخرة قد دعاها منذ ان كانت مقيمة بينبع. و السيد صافي مضيف الأميرة دعاها و أهل قافلتها على مأدبة كبيرة و كذلك شيخ الحرم وغيرهم. و كانت المأدبة تعتبر فاخرة إذا قدمت فيها أنواع الطعام الاثنى عشر.

شراء الخيول العربية :

طلب الأمير نصر الله خان ولي عهد الامارة من أمها ان تشتري له خيولا عربية لجودتها . فقد اشترت سموهـا اثنى عشـر خيلا نجديا مـن الشيـخ عبد العزيز بن رشيد النجدي فلم تكن في مستوى الجودة العالية و لكنها اختارت ستة لابنها الكبير ، و اهدت الثلاثة للأمير عبيد الله خان و البقية كانت من نصيب الأمير حميد الله خان.

طريق الرجوع من المدينة :

كانت الأميرة تنوي الذهاب إلى مكة المكرمة من نفس الطريقة التي أتت بها، و لكنها لما ابتليت في طريق المدينة بالبدو وصلتها الأخبار انهم ينوون الفساد و التخريب فحثها شيخ الحرم ان تسافر إلى مكة المكرمة عن طريق البر مع القافلة الشامية ، و لا يكون خطر البدو فقبلت مشورته مشكورة و أردت الذهاب عن طريق البر مرافقة القافلة الشامية و لما استقر رأيها على ذلك أبرقت إلى القنصل بجدة ان لا يستأجر الباخرة ، و لكنها وصلته بعد ابرام المعاهدة مع الشركة العباسية المصرية على باخرة بهرا و أرسل صورة المعاهدة إلى الأميرة.

قررت الأميرة إلى القنصل عن طريق البرقية انه تغير برنامج الرجوع فعليك بالغاء المعاهدة فورا. و لكن المعاهدة لم تلغ أخبر بذلك نائب القنصل عند ما زارها للاطلاع على أسباب تغير البرنامج.

فأخبرته الأميرة بتفصيل ما حـدث في السفر و ما تسمع مـن اشاعات ، و قالت ان شيخ الحرم و غيره يرون السفر بالبر مناسبا لأجل أنباء خطرة و ما يدور بين البدو في الحرم المدني.

Converted by Tiff Combine - unregistered

فأخبر نائب القنصل بتمام العقدبالباخرة ، فى هذه الحالة تجب الغرامة فقالت الأميرة ان الوقت كاف للالغاء و التنصل من الغرامة ، و طالت مراسلات فى هذا الصدد بين الأميرة و القنصل و الشركة العباسية. حتى قررت الشركة باعفاء الغرامة بشرط السفر عن طريق البر.

و بعد الفراغ من هذه المسئلة كتبت الأميرة إلى سعادة القنصل أن يبرق فى الحضرة السلطانية أنها وصلت إلى المدينة المنورة بخير فى رعاية العساكر السلطانية و استقبلنى شيخ الحرم و محافظ باشا استقبالا حافلا ، اشكركم لذلك و لكن لخطر البدو فى الطريق أريد الذهاب إلى مكة المكرمة مع القافلة الشامية فاقدم الطلب إلى حضرتكم ان تأمروا أمير الحج أن يوصلنى مع القافلة الشامية فى الحراسة الحكومية و كتبت الأميرة إلى القنصل أيضا اذا كان مناسبا فاخبروا السلطان المعظم عن طلقات البنادق التى صوبت اليّ كى تكون الحراسة على أشدها.

فى ١٦ ديسمبر ١٩٠٣م أجاب القنصل البريطانى المستر دبوى الأميرة أن سفير الامبراطور ايدورد السابع لدى القسطنطنية ابرق إلى السلطان المعظم بوصولك بخير إلى المدينة المنورة ، و استمرت الأميرة فى مراسلتها حتى علمت من برقية القنصل البريطانى لدى قسطنطنية ، و أخبار من الباب العالى إلى شيخ الحرم ان السلطان المعظم ابرق إلى محافظ المحمل الشريف السيد عبد الرحمن باشا و مسئول القافلة الشامية باصطحاب سمو الأميرة إلى مكة المكرمة فى حراسة مشددة.

و جاءتها برقية من القنصل و موضوعها " بعد ورود القافلة الشامية تقدم هذه البرقية إلى السيد عبد الرحمن باشا ان الحراسة المكثفة تكون سببا لرضى السلطان المعظم".

حلول العيد المبارك :

فى اثناء هذه القضايا و المسائل انتهى شهر رمضان المبارك و حل العيد، صلى القاضى بالناس صلاة العيد فى الساعة السابعة و صلاة العيد تصلى فى البلاد العربية مبكرا ، و لم تحضر الأميرة و النسوة فى صلاة العيد للإزدحام و الأميران و الرجال صلوا بالمسجد.

فى الساعة السادسة حضر المفتى الحنفى و المفتى الشافعى و شيخ الحرم مرافقين مع المترجم السيد يسين للقائها و مباركتها بالعيد ، و قدم المفتى الشافعى قصيدة كالعادة فيها المديح النبوى ، و تذكرة العيد ، و بعد اللقاء بها انتقلوا إلى غرفة الرحال و قدمت إليهم الحلاوة و الشاى و القهوة.

و بعد ذلك ذهب الاميران عبيد الله خان و حميد الله خان إلى مقر الحكومة ، و كان به شيخ الحرم و حاكمه ، و الجنود الأتراك مصطفون و قدموا السلام فور وصولها، و تغنوا بالنشيد الوطنى ، و هما رجعا إلى بيتهما بعد

Converted by Tiff Combine - unregistered

هذه المراسم.

و بعد الظهر ذهب الأميـــران إلى بيت شيخ الحـــرم و قدمت إليهم الشاى و القهوة و العصير التركى و جاءت زوجتا شيخ الحرم و الحاكم و بناتهما للقائها فى بيتها.

منع التجول للقافلة :

أرسل حاكم المدينة السيد حسن مظفر باشا مكتوبا إلى الأميرة : " اخبر سيادتك ان مراقبى أبواب المدينة حذروا أن لا يخرج أحد من مرافقيك من أى باب من أبوابها لا بقصد الزيارات أو التجول بدون اشعارنا حتى نرسل معه حراس الأمن ، أما اذا لم يسمع أحد نصائحنا بهذا الصدد و حصل ما قدر اللّـه لا يكون علينا مسئولية ذلك . فامرت الأميرة ان تنفذ هذا القرار فورا.

جوائز للجنود الأتراك :

قسمت الأميرة بتوسط حاكم المدينة السيد حسن مظفر باشا ألفى روبية على الجنود و الضباط الأتراك.

مسئلة المزوّر :

عينت الأميرة محمد حماد مزوّرا لأهل بوفال و لكنه جاء شخص آخر حامل رسالة من شريف مكـــة يشفـــع فيها لـــه ان يعين مزورا و كـان اسمه أبا الجود. قالت الأميرة لابى الجود إنى عينت محمد حماد مزورا و لو أتيت قبله لعينتك ، و لكنها خافت من شريف مكة فعينته أيضا على ثلاثين روبيـــة و قالت له كن مزورا لأهالى بوفال الآخرين الذين يأتون للحج.

شراء الإبل :

عندما تقرر أن الأميرة سوف تسافر مع القافلة الشامية فكرت سموها فى ترتيب السفر و أهمها الإبل ، و علمت انها اذا لم تحصل عليها مسبقا فستكون مشكلة و لا يمكن السفر مع القافلة الشامية، فراسلت حاكم المدينة بهذا الخصوص . و تكلمت مع شيخ الحرم فابرق الشيخ إلى الأمير عبد الرحمن باشا أمير القافلـــة الشاميـــة ان يأتـــى بخمسين جمـــالا يكون قيمته كل منها مائـــة و خمسين روبية.

القافلة الشامية بالمدينة :

فى ٢٤ من ذى القعدة سنة ١٣٢١ هـ وصلت القافلة الشامية إلى المدينة المنورة و كانت تأتى بغلاف الكعبة (كان يقال له المحمل الشريف) و كان يوضع فى صندوق كبير يحمل على جمل قوى الهيكل ، و جمل آخر مرافق له عليه

Converted by Tiff Combine - unregistered

الشارة الحكوميـــة و كانت تقال لها البيدق. و هـــذه القافلـــة مع مرافقيهـــا و أصحابها الذين انضموا إليها من المدينة وصل الحرم النبوى عند باب السلام فى الساعة العادية عشرة مع السلام الملكى و على أصوات الطبول ، و كان عند الباب مكان مرتفع انيخ الجمل عليه و الصندوق أدخل بالمسجد النبوى و كان الجمع حاشدا و كانوا فرحين مستبشرين ، و بقى المحمل بالمسجد النبوى بالمدينة المنورة إلى حين بقاء القافلة بها.

تحديد من البدو :

أرسلت الأميرة السيد عبد الرؤف خان نائب مديـــر سفـــر الحـج إلى عبد الرحمن باشا أمير القافلة الشامية للاستفسار عن أجرة الجمال و تموين القافلة وغيرها و لما وصل القاصد إليه رأى أن الميدان ملؤ بالبدو الذين تجمعوا من حول المدينة و شيوخهم بداخل الخيمـــة و ما دار مـــن حديث بينهـــم و بين السيد عبد الرحمن باشا، كانت خلاصته ما يلى :

" قال شيخ ، تكون فتنة كبيرة و أصحابنا مستعدون و مسلحون ، فقال السيد عبد الرحمن بدون اعتناء : الفتنة عليكم لا علينا ، فقال شيخ بجراة غير معقولة و هدد الفتنة لازمة و لا يمكن ان تسافـــر الهندية معكم . فقال السيد عبد الرحمن ان الهندية لابد أن تذهب و لو على رؤوسكم. أو لا تعلمون انها ضيفة السلطان المعظم؟ و أمرت بحراستها و ما أقول أقول من قبل السلطـــان و لوما اطعتم السلطان تخرب قراكم و تحرق بيوتكم و الجبال التى تأوون إليها تمر مرّ السحاب ثم قال ماسحا سيفه سأريكم كيف ننفذ أوامر السلطان.

خضع الشيوخ رؤوسهم باسم السلطان و قالوا مولانا السلطان على الرأس و العين نحن لا نعارض السلطان و لكن نسأل منكم لا تضيعـــون حقنـــا و نحن نأخذ حق المرور.

فقال السيد عبد الرحمن أنا اشفع لك عندها فى هذا الصدد و اذا اعطتك شيئـــا لا اعتـــراض على ذلك. و بعد ذلك ذهب الشيـــوخ و رجـــع السيـــد عبد الرؤف خان بعد الاستفسار عن الأمور الضرورية.

من الحرم المدنى إلى الحرم المكى :

وجه حاكم المدينة دعوة مأدبة واسعة قبل مغادرتها المدينة المنورة . فى ٢٧ من ذى القعـــدة سنة ١٣٢١هـ الموافق ١٣ فبراير سنة ١٩٠٤م أحرمـــت الأميـــرة و أصحابها و سلموا على النبى صلى الله عليه وسلم و خرجوا بعد العصر من المدينة المنورة مع القافلة الشامية ، مرت من تبريز ثم قامت ببئر علي ، فى يوم ٢٨ من ذى القعدة غادرت القافلة إلى مكة المكرمة. و كانت الخطرات مثـــل طريق ينبـــع و المدينة المنورة و لكـــن برعب القافلة الشامية و خوفها و نظام السيد عبد الرحمن الصارم لم يتجرا و لا بدو واحد.

Converted by Tiff Combine - unregistered

فى المنزل الثالث دعا السيد عبد الرحمن الأمير عبيد الله خان و أخبره ان شريف مكة سجن شيخ بئر معين و قال له ان كان أى صعوبة أو خلل فى الأمن فى مسيرة أميرة بوفال اقتلك. و هذا كلام ظاهرى و هو يريد ان يسيئ سمعتى فأفراد هذه القرية لابد فاعلون شيئا و اعتقد ان منزل الغد فيه خطر شديد.

و فكر الأمير عبيد الله خان خطة لحفظ الأميرة ثم أخبر بذلك امير القافلة الشامية فأعجبها هو أيضا. و هو أن نترك جمل الأميرة خاليا و لا يعلم ذلك سوى محافظها و يحرس هذا الجمل كالمعتاد و هى تركب على جمـل اخـر و يكون آخر القافلة و بعد ذلك تقدمت القافلة إلى مكمن الخطرات و كانت هذه الخطة ناجحة جدا و لم يمر عليها أى خطر و اطلقت على مركبها الرسمى طلقات كثيرة وردت الجنود الأتراك النيران و كان البدو يطلق من قمة جبل يصعب الصعود عليه.

و أمر قائد الجيش التركى جنوده على صعود الجبل و بدأوا يصعدون عليه بدون وجل و خوف و كان الجبل مستقيما و كان البدو وراء الجبل فلم تؤثر المدفعية إلاّ بعد حين ، و استمرت المعركة قرابة ساعتين و استشهد سليمان آغا من جنود جدة و قتل بعض أفراد البـدو ايضا و لكن القافلـة كانت فـى حفظ و أمان.

أما البدو المتمنعون لم يقدروا المقابلة وقتا طويلا فهربوا و فى هذا الاثناء وصلت الجنود على قمة الجبل و مضت القافلة بهدؤ و راحة و كان الطريق الباقى مرّ بسكون و عافية.

الدخول بمكة المكرمة :

فى ٦ من ذى الحجة الموافق ٢٣ من فبراير ١٩٠٤م دخلت قافلتها بمكة المكرمة.

وجاء حاكم الحجاز أحمد راتب باشا و شريف مكة عون الرفيق باشا مع مجموعة من الجنود الأتراك إلى مقام الشهداء لاستقبال ، و قدم إليها السلام العسكرى و جيئت بها مع الاحترام و مظاهر التكريم إلى مقام اقامتها فى بيت الأستاذ أحمد لاز.

و أرسلت ابنيها الأميرين إلى بيت حاكم الحجاز و أمير مكة للقاء بهما. فى اثناء قيامها بمكة المكرمة السيد شريف و عبد الرحمن باشـا حاكـم دمشق و أحمد راتب باشا حاكم الحجـاز و الشيـخ محمـد صالح الشيبى و السيد على باشا و باشا المصرى جاوءا مع زوجاتهم للقاء بها و الأميرة بدورها ذهبت إلى بيت السيد شريف و السيد أحمد راتب باشا.

أداء مناسك الحج :

ذهبت الأميرة إلى الحرم الشريف لطواف القدوم و السعى لاداء مناسك

Converted by Tiff Combine - unregistered

الحج ، و ذهبت إلى عرفات فى الثامن من ذى الحجة و حجت يوم التاسع من ذى الحجه ثم رجعت إلى مكة المكرمة فى ١٢ من ذى الحجة بعد تأدية مناسك مزدلفة و منى.

قضية أجرة البيت :

السيد شريف كان غاضبا على الأميرة إلى الآن و لكن لأجل كرم السلطان المعظم و معامله الأتراك المخلصة لها لم يجد شيئا يبدى عليه غضبه.

و لكن لما قررت الأميرة تاريخ الرجوع فى ٢٠ ذى الحجه الموافق ٨ من مارس ١٩٠٤م ، طالب السيد شريف سموها عن طريق نائب القنصل ١٥ ألف روبية أجرة البيت الذى أقامت فيه بضعة أيام.

و لكن المبلغ الذى اصطحبته قد نفد ، و كانت مع الأميرة رسالة من تاجر دلهى اسمه عبد الغفار وعدها ان وكلاءه يقدمون إليه المبلغ عند الطلب. طالبت المبلغ منهم قالوا لا يمكن اليوم و لكن نحضر بعد يوم أو يومين . و من جهة أخرى بدأ السيد شريف اصراره على تأدية المبلغ فورا و أخيرا أبرقت القنصل المقيم بجدة و أخبرته عن التفاصيل و قالت ان سفر اليوم تأجل لأجل هذا السبب و ربما لا أقدر على السفر بدون تأدية المبلغ و لذلك يجب أن تبرق حضرتك إلى السيد شريف أو أودى المبلغ عن طريقك و أنا أرسل إليك المبلغ فورا

فقدم موظف البريد هذه البرقية إلى حاكم الحجاز و قال مثل هذه الشكوى عار على السلطنة العثمانية و لم ترسل إلى القنصل البريطانى بجدة. بل أرسل إلى الحاكم معتمدا إليها و طلب المعذرة منها و قال ان السيد شريف يذل نفسه و الآخرين و أنت ضيفة على السلطان لو علم ذلك يغضب و أنا أخذت بيتا لك على الأجرة قرب الحرم و لكن لما وصلت رسالتك إلى السيد شريف أنا سكتت . لا يمكن مطالبة الأجرة منك و لاتؤذى على طلب أحد.

فى اليوم الثانى استلمت الأميرة مبلغا من عبد الغفار التاجر فأبت إلا أن تؤدى شيئا عوضا عن قيامها فى بيت فأرسلت خمسة عشر ألف روبية إلى الحاكم و كتبت أن ترسل المبلغ إلى السيد شريف كله أو جزئه كما ت اه مناسبا. و لكن وجب على أن أودى أجرة الإقامة.

و لكن الحاكم لم يقبل المبلغ و رجعه إليها قائلا ان أخذ أى فلس كأجرة البيت يكون عار للسلطنة العثمانية. (٧)

المغادرة من مكة :

فى ٢٢ مـــن ذى الحجـــة الموافق ١٠ مسن مارس ١٩٠٤م. غادرت الأميـرة و قافلتها من مكة إلى جدة و نظم حاكم الحجاز أحمد راتب باشا نظاما معقولا للرجوع و أرسل علي باشا جمعيته معها و كانت تشتمل ٢٣٢ مسئولا و جنديا.

Converted by Tiff Combine - unregistered

في " بجيرا " اخلى بيت فاقامت به و تكتب الأميرة في رحلتها. (٨)
" في الرجوع من مكة تعبنا شديدا فلذلك نرى أن راحة هذا البيت ليست أقل من صدر منزل (قصر الأميرة ببوفن).

الدخول بجدة :

في ٢٣ من ذي الحجة الموافق ١١ من مارس دخلت الأميرة بجدة مساء، و كانت باخرة "أكبر" مرسوة على الميناء فما ان دخلت بجدة حتى ركبت هي و ابنيه على العبرة ، أما المرافقون و الأمتعة فحملت إلى ١٣ من مارس.
أرسلت الأميرة عن طريق القنصل البريطاني إلى عبد الرحمن باشا و علي باشا و أحمد راتب باشا و الشريف عون الرفيق باشا، و استلمت أجوبة البرقية أيضا

المغادرة من جدة :

في ٢٥ من ذي الحجة الموافق ١٣ مارس يوم الأحد بعد العصر رفعت الباخرة مرساها و غادرت جدة . و كان في التوديع القنصل البريطاني لدى جدة و السيد جي بي ديوي و نائب القنصل بجدة الدكتور محمد حسين.
في ١٧ من مارس القت الباخرة مرساها بميناء عدن و لكن بخوف تفشي الكوليرا بالباخرة لم يسمح لأحد بمغادرة. عند المغرب غادرت الباخرة من عدن إلى بومباني وصلتها في ٧ من محرم سنة ١٣٢٢هـ الموافق ٢٥ مارس ١٩٠٤م.
أخبرت الأميرة الوكيل السياسي ببوفال المستر ايمسي و ابنها الكبير نصرالله خان عن طريق البرقية من عدن عن الوقت التقريبي لوصولها إلى بومباي. فهما وصلا مع أصحابهما إلى بومباي.
وصلت الباخرة إلى وادي بندر ليلا فلم تسمح لها بدخول الميناء حسب القواعد المعتمد و لكن أهل بوفال ذهبوا إلى الباخرة عن طريق الزوارق و التقوا بها.
في صباح ٢٦ من مارس يوم السبت تقدمت إلى الميناء ، و هي و مرافقوها نزلوا على البر بعد سفر البحر الطويل الشاق . و استأذن الميجور ميكوارت سموها بعد نزولها من الباخرة و كانت فرقة العرس للسلام عليها مع طبولها موجودة على الرصيف فسلمت عليها ثم خضعت المدافع.

قيامها ببومباي :

أوفدت الأميرة قرابة أربعين شخصا من مقربيها و أرسلت البقية مع ابنها عبيد الله خان إلى بوفال بقطار خاص.
و أقامت ببومباي في صالة مظفر، في اثناء قيامها هناك زارت المدرسة النسائية ، و المتحف و أمير بروده الذي كان مقيما هنا جاء لمقابلتها. و أقامت هناك أسبوعا.

Converted by Tiff Combine - unregistered

استقبالها ببوفال :

فى ١٦ من محرم ١٣٢٢هـ الموافق ٣ من ابريل ١٩٠٤م غادرت يومياى بقطار خاص إلى بوفال ، فى اليوم الثانى اى فى ١٤ ابريل وصل القطار إلى بوفال فى الساعة الثالثة ظهرا. و كانت المحطة حافلة باعزة بوفال و أعضاء الحكم بالامارة و أعضـــاء المجلس الشـــورى ، و الشعب كلـــه شوق لاستقبالهـــا و الترحيب بها.

الأمير نصر الله خان الذى رجع إلى بوفال قبل قدومها زين المدينة بزينات جعلتها كالعروس.

الأميرة قبلت سلام المستقبلين بصالة الانتظار ، ثم ركبت العربية الأميرية و توجهت إلى "صدر منزل" قصرها مع مرافقيها و قبلت سلام الجنود و تحيات الشعب من الرجال و النساء و الأطفال الذين اصطفوا فى صفين . فلما دخلت بصدر منزل اطلقت مدفعية القصر و القلعة و تنور القصر بالأنوار.

تبركات الحرمين الشريفين :

التبركات مثل أجزاء من غلاف الكعبـــة و غيرهـــا جـــاءت مع الأميـــرة و وصلت إلى بوفال فى ٤ من ربيع الأول يوم الجمعة على محطة بوفال فاستقبلت استقبالا حارا، ثم وضعت مع الاحترام اللائق بموتى مسجد (مسجد اللؤلؤ) فى رقابة عميد المساجد (و كان المسجد يقع قريبا من قصرها و كان مصنوعا من الحجر الأحمر الجميل) و اطلقت قلعة فتح كر إحدى عشرة طلقة من مدفعيتها. و جاء الرجال بالنهار و النساء بالليل و حرقت البخور و العود، ثم أرسلت هذه التبركات إلى المسجد الأصفى ، و تصدقت الأميـــرة على الفقـــراء و المساكين ، و وجهت المأدبة إلى الرؤساء و الأعزة ، و وزّعت بين خلصائها و مقربيها صحونا فيها التمور و السبحـــات و مـــاء زمزم ، و كتب الأوراد و القماش الشامي و العباء ثم ودعتهم.

فى اليوم التالى اعلنت العطلة ، و مساجد بوفال على كثرتها نورت حتى تنورت المدينة باكملها.

تعريب : محمد حسان خان

المراجع :

١ - كتاب گوهر اقبال المؤلفة سلطان جهان بيكم ص ١٥
٢ - نفس المصدر ص ٤٦
٣ - روضة الرياحين ج ٢ ص ٢٨
٤ - رحلة الحج المؤلفة سلطان جهان بيكم ص ٣١
٥ - نفس المصدر ص ١٣٣
٦ - نفس المصدر ص ١٤٢
٧ - نفس المصدر ص ٢١٨
٨ - نفس المصدر ص ٢٢٣

Converted by Tiff Combine - unregistered

ندوة العلماء عبر التاريخ

بقلم: آفتاب عالم الندوي
استاذ دارالعلوم ندوة العلماء ـ لكناؤ

إنجازات هذه الحركة الندوية و آثارها

إصلاح المنهاج الدراسي:

كان بناة ندوة العلماء و قادة فكرتها ينظرون إلى مناهج التعليم و برامجه كأداة للتعليم قابلة للنمو و التطور خاضعة لحاجة كل عصر و مقتضاه ، و لم يكونوا ينظرون إليها كأداة جديدة لا مرونة فيها، و هي حافلة عندهم بالحيوية الكامنة و الازدهار الصاعد ، و كانوا يرون أنه لما مست الحاجة في العصر العباسي ـ حين ازدهرت العلوم و الفنون و الفلسفة اليونانية ـ إلى إدخال الفلسفة و الحكمة و الهيئة و الرياضيات في المنهج الدراسي الديني ، فعلوا ذلك و هم مقتنعون بذلك. كذلك نحن في أمس الحاجة في العصر الحاضر أن ندخل في مناهجنا التعليمي العلوم و الفنون الغربية و اللغات الأوربية ، كي يطلع علماؤنا على موجهات العصر و نزعته ، فيبرز ابن رشد جديد و ابن حزم جديد و غزالي جديد و رازي جديد و نستطيع أن نهزم الأعداء و نحبط هجماتهم بنفس الأسلحة التي يهاجمون بها و نفس الطريقة التي يسلكونها.

فقد كان من أهداف ندوة العلماء و مشاريعها التعليمية و الإصلاحية إصلاح النظام التعليمي الإسلامي و تطويره على مبدأ الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع ، و تعديل مناهج التعليم تعديلا يتفق و حاجة الإسلام و الدين في العصر الراهن و الظروف المتطورة المتجددة و يكون جديرا بتنشئة كفاءات و مواهب تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العالم المتغير المادي.

و لم تزل جمعية ندوة العلماء تسعى لتحقيق هذه الهدف النبيل بطريقة و أخرى ، و تدعو رجال المدارس الدينية و القائمين عليها إلى تطوير المناهج

Converted by Tiff Combine - unregistered

الدراسية تطويرا يحقق متطلبات العصر و حاجات النشئ الجديد ، و تعقد احتفالاتها الشعبية الهامة ، مما كان له الأثر الكبيـر فـي إثارة همم المسلمين و إثارة عقولهم و استهواء مختلف الفئات و الطبقات و الشخصيات على اختلاف الوجهات و الاتجاهات و الجمع بين العلماء الدينيين و المثقفين العصريين ، و رجال الدعوة و الدين و رجال الصحافة و الإدارة ، و ذلك نجاح كبير أحرزته جمعية ندوة العلماء" غير أن التعديل اللائق فى المناهج الدراسية الذى كانت تنشده "ندوة العلماء" لم يتحقق بعد على المستوى المطلوب ، و إن المناهج التى كانت قد تمكنت من قلوب القوم من قرون و أجيال، و أخذت بحجر عقولهم و جرت فيها مجرى الروح و الدم لم تكن لتقبل التطوير عن طواعية و بسهولة و يحل محلها منهج آخر ، و بقى أمر التطويـر و التعديل يتأرجح بين التعديل و التأجيل.

تأسيس مدرسة مثالية :

فاخيرا ، بعد تجربة طويلة ، و بعد ما عالجوا حيلا عديدة ، أدرك القائمون على حركة ندوة العلماء أن الغرض من التعديل و التطوير لا يتم إلا إذا أسسوا مدرسة مثالية جامعة ، يجربون فيها منهجهم الدراسى تجربة علمية ، فأسست "دارالعلوم التابعة لندوة العلماء" فى لكناؤ عاصمة الولاية الشمالية عام ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م ، و وضعوا أساسها على حد تعبير سماحة الشيخ الندوى .

> *"على مبدأ الجمع بين الدين الخالد الذى لا يتغير ، و بين العلم النامى الذى لا يتحجر ، بين صلابة الحديد فى الشباب على العقيدة ، و بين نعومة الحرير فى اقتباس العلوم النافعة ، فبينما العالم الدينى فى عقيدته و عبادته جبل ثابت ، إذا هو فى علمه و دراسته و تقدمه نهر عذب جار ، و بينما هو فى نصوص الدين و عزائمه مرابط على الثغر و حارس للأمانة ، إذا هو فى تفهيمه و دعوته جندى مهاجم و مصلح على أحدث طراز ، و بينما هو فـى الأول لا يعرف المهادنة ، إذا هـو فـى الثانـى لا يعرف الملل و الجمود"*

فلما تم تأسيس هذه المدرسة المثالية الجامعة نفذ فيها المنهج الدراسى الذى وضعته ندوة العلماء. و قد كان العلامة شبلى النعمانى قام مسبقا بوضع "مشروع دارالعلوم" و تحديد مواصفاتها متمثلا فى مشروع محكم الطراز ، بارز الملامح ، واضح الأبعاد و القسمات ، بحيث إن نظرة واحدة عليه لتدل على أن "مسافر الهند كأنه قائم فى بلد كبير بقسطنطنية". (١)

كما أن الشيخ محمّد على المونكيرى قام بتضحيات مخلصة و محاولات مشكورة فقد كتب فى التقرير الرسمى عن الاجتماع الأول المنعقد فى كانفور

Converted by Tiff Combine - unregistered

عام ١٨٩٣م ، و قال فيه :

" إن أهم ما تهدف إليه ندوة العلماء تعديل مناهج التعليم و أساليبه تعديلا يمهد الطريق لازدهار العلوم الإسلامية و يصلح النفوس و يقوم الأخلاق." (٢)

و قال في كلمته للاجتماع الثاني المنعقد في لكناؤ عام ١٨٩٥م:

" إن أولادنا يلتحقون بالمعاهد الرسمية باقتضاء الظروف الراهنة ، فيرتمون - بطبيعة الحال - في أحضان الإلحاد و اللادينية، فهل إن فتاوى العلماء لتحريم تعلم اللغة الإنجليزية تقدر على أن تمنعهم من ذلك ؟ لا و كلا ، نحن لا نستطيع أن ننقذ جيلنا الجديد من نار جهنم إلا بوضع منهاج جديد للتعليم و التربية." (٣).

و كتب بحثا قيما في عام ١٣١٢هـ عن تاريخ المناهج الدراسية و استعرض فيه التطورات التاريخية التي مرت من خلالها هذه المناهج في كل دور ، كتب فيه:

" إن هذه التطورات لاتزال قائمة منذ فجر الإسلام و كان ذلك من مقتضيات العقل فلا مبرر للاستغراب إذا عدلت هذه المناهج تعديلا لائقا تدعو إليه الحاجة." (٤)

و وضع بهذه المناسبة بمشروع للمقرر الدراسي كان في الواقع خطوة ثورية جريئة و كان موارد دراسيا ثوريا بالنسبة إلى "الدرس النظامي" المقرر الدراسي آنذاك . فقد هدم فيه نظام "الدرس النظامي" بشره في طول الخط ، و روعي فيه في اختيار الكتب بوجه خاص أن تكون هذه الكتب كفيلة بإحداث صلاحيات و مواهب يحتاج إليها الطلبة في العصر الراهن. (٥)

و مما يجب ذكره أن العلامة شبلي النعماني أبرز مؤسسي ندوة العلماء قد رفع صوته عاليا لإصلاح المناهج و توسيعها و تطويرها ، و عالج نقايص "الدروس النظامي" و أبرز أهمية إصلاح المنهج الدراسي و إدخال التعديلات اللائقة فيه، و وضع في ذلك بحوثا و مقالات قيمة في "مجلة الندوة" و صدع به مدويا مجلجلا في أحاديثه وخطاباته ومحاضراته، يقول في إحدى المناسبات:

" إن هذه العلوم اليونانية التي ليست علومنا الدينية و لا يتوقف عليها فهم ديننا و معرفته قد فقدت اليوم تأثيرها و لا خطر على الإسلام اليوم منها ، و قد احتلت مكانها علوم حديثة و قضايا جديدة و دراسات و أبحاث جديدة ، و قد أصبح

Converted by Tiff Combine - unregistered

من الضروري أن يطلع علماؤنا على الأبحاث الجديدة و العلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولا للمعضلات الحديثة ، و ليردوا على الشبهات ردا علميا مؤسسا على الدراسة و التحقيق." (٦)

و قد واجه في ذلك مضايقة شديدة ، حيث عارض هذه الفكرة الجديدة - في ذلك الوقت - ثلة من العلماء الذين رأوا في هذه الفكرة و هذه الدعوة خروجا على الدين ، و ثورة على التقاليد المألوفة و ما وضعت أسلافنا من مناهج تعليمية و دراسية ، و هذا شأن كل حركة جديدة و دعوة جديدة تريد أن تشق في لكناؤ و ظهرت نتائجها مبشرة مشجعة ، خفت صوت المعارضـــة و تضاءلت المضايقة شيئا فشيئا ، و ظهرت تعديلات هامة و إصلاحات جذرية لاتقة في المدارس المعتمدة من حيدرآباد إلى بهاولبور ، و لاسيما في مدارس الولايات المتحدة و ولاية بيهار و أقسام العلوم الدينية و المشرقية في جامعات حيدرآباد.

و كان العلامة شبلي النعماني قد أثار قضية تعديل المناهج الدراسية ، و لفت إليها أنظار العلماء و الباحثين لأول مرة قبل أن تقوم ندوة العلماء في "مذكرة روما و مصر و سوريا" سنة ١٣٠٩هـ - ١٨٩٢م ، و أفاض دموعا حارة و أعرب عن أسفه الشديد و قلقه البالغ على المناهج الدراسية السائدة في المعاهد الدينية لقسطنطنية و مصر بجانب الهند ، و لاسيما على المنهاج السائد في جامع الأزهر ، و تكهن بأن هذا النظام التعليمي لا يستطيع أن ينجب علماء يواجهون تحديات العصر ، و شاء الله أن تجـدى هـذه الزفـرات و الدموع و تترك آثارها البعيدة ، فقد ابتدأت - تحت تأثير دعوة العلامـة شبلي النعماني - الحركة الإصلاحية لجامع الأزهر بعد سفر العلامة بعدة أعوام أي عام ١٨٩٩م و كتب العلامة السيد رشيد رضا المصري عنها مقالات و بحوثا ضافية نشرته جريدته المؤقرة "المنار" تباعا ، و رشح في "المنار" العدد ٣٠ من جمادى الثانية ١٣١٧هـ لحركته الإصلاحية هذه ثلاث شخصيات فذة بارزة :

الشيخ أحمـد جـاد روسـي، الشيخ شنقيطي المغربـي، و الشيخ شبلي النعماني الهندي . (٧)

و قد كان العلامـــة شبلـي النعمانـي مولعـا للغـاية بندوة العلمـاء و بدار العلوم التابعة لها ، حيث كان يرى ذلك العامل الوحيد لانتفاضة المسلمين في العصر الراهن ، فساهم مساهمة ملموسة في ترقية دار العلوم ، و تصدر الموكب في بذل الجهود الضخمة في احتفالاتها السنوية التي كانت تقام في مدن الهند المحلية ، حتى فوض إليه الإشراف على الشئون التعليمية لدار العلوم ندوة العلماء ، فأدخل اللغة الإنجليزية في المقررات الدراسية - رغم المعارضة الشديدة - و خصص حصة لدراسة اللغتين الهندية و السنسكرتية لكي يكافح طلبتنا هجمات المعاندين بالاتقان في هاتين اللغتين. (٨)

Converted by Tiff Combine - unregistered

يقول الأستاذ أنور الجندي :

"إن ندوة العلماء التي كان العلامة شبلي النعماني أبرز مؤسسيها و رئيسها لفترة طويلة قد استطاعت ـ كما يرى الاستاذ مسعود عالم الندوي ـ أن تقضي على الخطر الذي يهدد الثقافة الإسلامية حول منهجين: أحدهما تقليدي و الآخر غربي ، و أن تدعو إلى منهج معتدل في التعليم و الثقافة ينشأ الشبيبة المسلمة على الأخلاق و الآداب الإسلامية المرضية ، و أن تكون جيلا من الشباب متضلعا في علوم الكتاب و السنة و آخذا بنصيب العلوم العصرية و اللغة الإنجليزية حتى يكون أهلا لتأدية الواجب الديني و العلمي على أحسن ما يرجى من الشباب المسلم في هذا العصر." (٩)

كما أن العلامة شبلي النعماني عني في عهد إشرافه بدراسة اللغة العربية الحديثة و دراسة علم الكلام و العلوم الجديدة مثل الفلسفة الحديثة و علم الطبيعة و الرياضيات و أدخل كتاب *"الدروس الأولية في العلوم الطبيعية"* طبع بيروت و رسالة فارسية في الهئية الجديدة طبعت في قسطنطنية أدخلهما في المقررات الدراسية ، و استخدم لذلك بعض من كانوا يتقنون اللغة الإنجليزية آنذاك أمثال حميدالدين الفراهي و البروفيسور ميرزا هادي و غيرهم.

و اهتمت ندوة العلماء بتدريس النصوص القرآنية بصورة خاصة و أعارت دراسة القرآن الكريم عنايتها متنا و تفسيرا و إجمالا و تفصيلا ، و الحديث خلقا تربية فقها و تزكية ، على العكس مما كان سائدا من الضغط و التركيز في تدريس الحديث على المباحث الفقهية و الإسهاب في بيان المذاهب الفقهية و المسائل الفروعية على حساب ما يتعلق به الحديث من فقه و تزكية و تربية و تهذيب ، كما أنها حذفت الفلسفة اليونانية التي طغت أخيرا على المناهج الدراسية في الهند و إيران ، استنزفت قدرا كبيرا من الذكاء و القوة و العناية من غير جدوى و بدون حافز و باعث.

و ركزت ندوة العلماء عنايتها بتعليم اللغة العربية قبل تعليم آدابها و دراستها كلغة حية ثرية من أغنى لغات العالم و أكثرها حيوية يتكلم بها و يكتب فيها ، حتى فاقت في ذلك معاهد الهند و مدارسها باقتدار أبنائها النبهاء على هذه اللغة كتابة و خطابة و تأليفا و تصنيفا حتى شهد لهم أدباء العرب بالإجادة و الإبداع و الابتكار.

الاكتفاء الذاتي في المقرر الدراسي :

كانت نية ندوة العلماء تتجه إلى إعداد منهجها الخاص حسب الحاجات في

Converted by Tiff Combine - unregistered

البلاد و الظروف المتغيرة ، و تغيير المناهج الدراسية فى نظام التعليم الحديث فرسمت - نظرا للصعوبات فى استيراد الكتب المدرسية من الخارج - خطة للاكتفاء الذاتى فى الكتب المدرسية حسب مقتضيات المنهج الدراسى ، فأعد أبناء الندوة مواد دراسية تسد حاجة العصر ، و تلائم الذوق الأدبى المتطور من المرحلة البدائية إلى المرحلة العليا ، فقبلت الكتب الدراسية التى أعدها الندويون ، فى الجامعات و الكليات العصرية التى تشرف عليها الحكومة ، بجانب مئات من المدارس الدينية التى قبلت التطـور فى المنهج التعليمى ، و إن هذه الكتب الدراسية جامعة بين العقيدة و العلم و الأدب ، لأنها تضم مواد قراءة نزيهة تحدث فى الجيل الناشئ علو الهمة ، و سمو الفكر و المبادئ النبيلة، و الذوق الأدبى النزيه المتطور غير الراكد ، كما أن أبناء الندوة قد نقلوا الفنون العربية البدائية التى كانت تدرس حتى الآن باللغة الفارسية ، فأعدوا سلسلة من المؤلفات فى هذه الفنون ، يراعون فى ذلك الذهن المتطور للطالب فى الهند ، و قوة حفظه و وعيه ، و المسائل و القضايا التى تهم فى ضوء الحياة المتطورة المتغيرة ، فقد كانت كتب المتقدمين تكشف مسائل من نحو و صرف و قد تكون الحاجـة إليها ضئيلـة ، فجـاء منهج سديـد يسد الحاجـة و سيسير عملية الاستحضار و التمرين و الوعى للطلبة ، و من هنا فان أبناء ندوة العلماء وضعوا بأنفسهم فى الصرف و النحو و الأدب و الإنشاء و التاريخ و الجغرافية و السيرة و الكلام و الحديث و الفقه و غيرها تاليفات قيمة تزدان بمراعاة المتطلبات الجديدة بجانب ملاحظة أذواق الطلبة و مستوياتهم، و لايزال أغلبها داخلا فى المنهاج الدراسى الجارى فى دارالعلوم ندوة العلماء و غيرها من المدارس الإسلامية فى الهند و خارجها ، إما دراسة أو مطالعة.

تقلب الزمان :

ظلت ندوة العلماء مشمرة عن ساق جدها مستقطبة لجهودها و كفاءاتها و مواهبها على تحقيق هدفها المنشود ، و ظل الزمان يشهد جولات و قفزات واسعة و طفرات و تطورات هائلة إلى أن أصبح العلماء الذين عارضوا فى البداية دعوة ندوة العلماء إلى إصلاح المنهاج و إدخال التعديل فى المقرر الدراسى العربى و اعتبروا العدول عن القديم و نظم التعليم و الانحراف عنها قيد شعرة ضربا من التحريف و نوعا من البدع ، أصبحوا يخضعون لفكرة ندوة العلمـاء و دعوتهـا لإصلاح المنهـاج و تطويـره بل و يتجاوبـون معهـا و يتحمسون لها ، فإليكم ما تم عليه الاتفاق فى اجتماع "جمعية العلماء" المنعقد فى ٢-٣-٤/ربيع الثانى عام ١٣٦١هـ من القرار بتائيد عميد دارالعلوم ديوبند :

يشعر هذا الاجتماع لجمعية العلماء بالحاجة الملحة إلى إدخال الإصلاح و التعديل فى المنهاج الدراسى السائد فى المدارس

Converted by Tiff Combine - unregistered

العربية الإسلامية وفق متطلبات العصر الراهن ، و يأمل من الهيئات التعليمية و القائمين على المدارس العربية أن يتبنوا - بالتشاور و التعاون و تأليف لجنة ما - وضع مقرر دراسي في العلوم كفيلا بتنشئة النبوغ و البراعة في المتطلبات الراهنة مع الإجادة و الإتقان في العلوم الدينية ، و على جمعية العلماء أن تتشاور في ذلك أصحاب العلم و الفضل و تتخذ بأسرع وقت ممكن خطوة عملية مؤثرة.' (١٠)

أنظروا ، إن الشيء الذي كان موضع النقد و الاعتراض و عرضة التنديد و الاستنكار في حين من الأحيان إنما أمكن له أن يكون مثار الإعجاب و التقدير و مبعث الاستحسان و الترحيب بعد مرور هذه المدة الطويلة.

منهج دراسي متطور:

و حيث أن ندوة العلماء تضع نصب عينيها الأوضاع الحديثة و الظروف و الملابسات المتغيرة ، و تؤمن بالتطور في العلم و الأدب و النمو في القريحة و السليقة العلمية و تدين - بتعبير أصحاب هذه المدرسة الفكرية - 'الفكرة الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع" و 'بين التصلب في الأصول و الغايات، و التوسع و المرونة في الفروع و الآلات' فانها لا تعتبر أي منهج دراسي منهجا دائما غير قابل للتغيير، فيصير نظام التعليم فيها بالتغيير و التعديل حينا لآخر.

هذا ، و يحرص المعنيون بشئون التعليم على تفضيل الكتب العصرية الحديثة و يقومون بمتابعة نهضة التاليف و النشر في العالم العربي الإسلامي لتوفير أحدث المطبوعات لدار العلوم ، و تزويد الطلبة بأوسع المصادر العلمية و المآخذ القيمة لتوسيع آفاق فكرهم و تطوير مناحي عقليتهم و تنويع ميولهم العلمية و تنشئة ثقافتهم الخاصة و تيسير ركب العلم مع التشبث بعروة الدين، و إقبال كل منفذ لمركب النقص الذي يعني به خريجو المدارس الدينية في عامة الأحوال.

و من المشاهد أن أبناء ندوة العلماء لا يشعرون - بفضل الدراسة العميقة الواسعة و الثقافة الغالية و الخبرات الدقيقة - بالغربة و الاختناق في أي مجتمع رغم ما يتمسكون بالتعاليم الدينية و يعتزون بثقافتهم الخاصة و هويتهم العلمية و الدينية.

على كل فان القدر الذي حققته ندوة العلماء في مجال التعليم و الثقافة و التوجيه الفكري و تعديل المناهج الدراسية و تطويرها و تكييفها مع متطلبات العصر الراهن و مقتضيات الحديثة مع الاحتفاظ بطبيعة الدين و روح الإسلام رغم قلة العناية و قصر التسهيلات و الإمكانات و كثرة الأشواك و الأحجار يكفي كدليل ساطع على بعد النظر و ثقوب الفكر اللذين كانا يتمتع

Converted by Tiff Combine - unregistered

بهما مؤسسو ندوة العلماء و مبتكرو فكرتهـا ، و إن لم يتم الجمـع بين القديم و الحديث ، و بين العقل و النقل و استغلالهما على المستوى العالى الذى نشدته ندوة العلماء و القائمون عليها ، فان الذى قد تم فى هذا الإطار المحدود يبرهن على عمق الفكرة و ابتكارها و أصالتها و صـدق الهـدف و نبلـه و نزاهتـه ، و النموذج العملى الذى قدمه أبناء ندوة العلماء يشق الطريق الواضح و يمهد السبيل لمن يريد أن يخطو خطوهم و ينهج منهجهم و يسلك مسلكهم ، فأحسن به من منهج و أنعم.

الانتاج العلمى لأبناء ندوة العلماء:

شعر رواد حركة ندوة العلماء و تلامذتهم بأن إعداد منهج تعليمى مهما كان شاملا و سديدا لا يستطيع أن يساعد فى سائر مراحل الحياة فلابد من إعداد مواد للقراء تغطى جميع مراحل الحياة و طوائف الناس.

ثم إن حملة التشكيك التـى نفذهـا الغربيون علـى التاريخ الإسلامى و إثارة شكوك فى سيرة السلف الصالح و معاملة ملوك المسلمين و قادتهم كانت تهدد الجيل الناشئ بالخطر المحدق ، كما شوهد أن المتعلمين فى الجامعات الذين يعتمدون على مؤلفات الكتاب الغربيين و تلامذتهم يقعون فريسة مثل هذه الشكوك الركيكة و عدم الثقة بتاريخهم و حيـاة سلفهم من رجـال الفكـر و الإصلاح و القيادة السياسية و الإدارية. و أكثر من يقع عرضة لهذه الحملة المغرضة المتعلمون و المثقفون ، فيُصبح لهم مـا يكتبه الكتـاب و الباحثون الغربيون بمثابة مصادر و مآخذ علمية لا تقبل جدلا و لا نقاشا.

تفرس بناة الندوة و القائمون عليها لهذا الخطر المحدق و الشر المستطير، فوجهوا عنايتهم ، إلى هذا القطاع بدون صرف النظر عن حركة إصلاح المناهج الدراسية و النظام التعليمى ، و قادوا - بجانب حركة إصلاح المنهج التعليمى الذى رفعوا لواءه فى قوة و صرامة كما سبق بيانه - قادوا حركة إعداد مكتبة قيمة لتغذية الفكر الإسلامى و دعمه و للتصدى للغزو الفكرى و حملة المستشرقين و تضليلهم ، و دعم رأس المـال العلمى للمثقفين و المتعلمين من المسلمين ، و نقل الثروة العلمية الفكرية إلى اللغات الهنديـة و لاسيما إلى اللغة الأردية.

و بذلك أسس علم الكلام الجديد الذى اشتدت إليه حاجة المجتمع الإسلامى المبهور بالعلم و المفتون بالغرب و المسحور ببريق الحضارة الصناعية الحيوانية ، و صدرت من أقلام بناة نهوة العلماء و أبنائها مؤلفات يندر نظيرها فى المكتبة الإسلامية العامرة المعاصرة ، فتكونت مكتبة حافلة مستقلة تمثل الفكر الإسلامى السليم ، و تجمع بين آثار السلف و روائع الخلف و تمثل المنهاج النبوى فى إصلاح المجتمع و تزكية النفوس و بعث الإيمان و إثارة الفكر و الشعور ، فجاءت هذه المكتبة خير زاد زود به النشء الجديد فى هذا الزمان ،

Converted by Tiff Combine - unregistered

و من خيرها يوثق به و يعتمد عليه فى فهم الكتاب و السنة ، و التذوق بهما ، و فى البعد عن الانحراف و الزيغ و التأويل ، و فهم النظام الإسلامى و الاطلاع على مزاياه و خطوطه الفاصلة.

و أول بطل من صف الإسلام فى هذه البلاد - كما قال العلامة السيد سليمان الندوى - كان العلامة شبلى النعمانى الذى قام بدحض أباطيل المستشرقين المضللة على طريقتهم و فى أسلوب أنفسهم. و إن الدور الطليعى الذى نعبته مؤلفات العلامة شبلى النعمانى و مقالاته التى صدرت فى ذلك الوقت و أصابت هدفها ، لم تكن لتقل - فى إنجازاتها و مآثرها - عن الجيش الظافر المنصور ، إنها قضت على تلك السموم التى دأب الكتاب الغربيون على دسّها فى الأذهان الفجة و التى أخذت تفعل فعلها فى العقول الناقصة.

لما أصدر الأستاذ جرجى زيدان كتابه المشهور "*تاريخ التمدن الإسلامى*" من مصر فى أوائل القرن العشرين كان له دوى فى الأوساط العلمية ، و قد كان فى الكتاب تجنّ على الخلفاء الأمويين و العباسيين و تحريف لبعض الحقائق التاريخية و إعاده لأسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية الخرافية ، ثارت فى العلامة النعمانى الحمية الإسلامية و تصدى لهذه الحملة الدقيقة بعيدة الأثر ، و ألف كتابه الشهير "*الانتقاد على التمدن الإسلامى*" فى نقد الكتاب و الكشف عن دسائسه.

و كان لكتبه و مقالاته فى "*الجزية فى الإسلام*" و "*حقوق الذميين*" الذين يبحثان فى حقيقة الجزية الإسلامية و حقوق الذميين و واجباتهم فى الإسلام ، كتابيه القيمين "*مكتبة الإسكندرية*" و "*نظرة على أورنك زيب عالمكير*" الذين يدحضان الافتراءات المتداولة لدى الخاصة و العامة ، و يكشفان اللثام عن الحقائق التاريخية الناصعة ، و دوى و صدى فى الأوساط العلمية ، و فى الطبقة المثقفة الجامعية ، و كان لها فضل كبير فى إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الإسلام بالعقائد و المقررات الدينية ، و بالحضارة و الثقافة الإسلامية ، و بتاريخهم الزاهر ، و بلغتهم و آدابهم ، و فى إحياء الاعتداد بالنفس و الثقة بالذات ، و مكافحة "مركب النقص" الذى أحدثته الهزيمة فى الصراع مع الاستعمار الإنجليزى فى ١٨٥٧م ، و أصلته الثقافة الغربية و الغزو الفكرى الأوربى.

و كان من فضل العلامة شبلى النعمانى و مآثره الجليلة أنه عرض سير الصالحين بلون علمى جديد لم يكن مألوفا قبله ، فألف كتابا فى سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بإسم "*الفاروق*" يعد من أقوى ما كتب كتابا فى هذا الموضوع ، و إنه غرس فى قلوب كثير من الشباب المسلم المثقف بالثقافة الغربية حب الإسلام و بنور الإيمان ، و أصبح حافزا لهم على الصمود أمام الهجمات الغربية الفكرية و الحضارية ، و عرض نموذجا عصريا راقيا فى تاليف سير الرجال و العظماء ، و قد يعتبر الكتاب من الآثار الأدبية

Converted by Tiff Combine - unregistered

الخالـدة و مثالا للإنشاء البليغ القوى ، كما ألف كتابا يعرّف بالإمام الغزالى و أعمالـــه و فلسفته و دفاعه عن الإسلام و مكانته العلمية و العقلية ، و كتابا يعرّف بالشيخ جلال الدين الرومى و فلسفته و دوره الرائع الذى لعبه فى تاريخ الفكرى الإسلامى و الإصلاح الدينى.

و ردفه فى كفاحه العلمى و لم يكتف بمضاهاته بل خطى خطوات جديدة فى مجالات جديدة و اكتشف آفاقا حديثة و أبعاد طريفة لنشر العلوم الإسلامية و سدّ متطلبات العصر ، يقول فيه سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى :

> " *قد فاق العلامة السيد سليمان الندوى أستاذه احيانا فى سعة الدراسة و الاطلاع على المصادر الحديثـــة الفقهيـــة ، و التزام ما عليه الجمهور من أهل السنة مـــن المسلك فـــى المسائـــل الخلافية و الكلامية ، و لكل درجات.*" (١١)

من مآثره العلمية الخالدة أنه أكمل السيرة النبوية الشريفة التى كان بدأ تاليفها أستاذه العلامة شبلى النعمانى على نمط الذى وضعه أستاذه ، فحقق حلمه ، و خلد مآثرة علمية كانت عصارة مئات الكتب على الموضوع ، عالج فيها مواضيع كانت مثار الشكوك لدى المستشرقين و منافـذ تضليلهم ، و كتابه "*الرسالة المحمدّية*" من أقوى ما كتب فى السيرة النبوية و الرسالة المحمّديـــة ، و أكثره تركيزا فائغزره مادة ، و أشده تأثيرا ، و كذلك كتابه "سيرة عائشة" من أحسن ما كتب فى هـذا الموضـوع ، و فى سيـــرة الصديقة بنست الصديـق أم المؤمنين رضى الله عنها.

و قد وصفه الدكتور محمّد إقبـال بأنـه مفجـر عيـون العلوم الإسلامية و مجريها من جبال جرداء فى أرض صلبة فى عصره ، و الذى يستحق أن يلقب "بفرهاد" (١٢) بالنسبة إلى خدماته العلمية الأصيلة.

و من أبناء الندوة النبلاء الذين مثلوا حركة ندوة العلماء و فكرتها لتاسيس علم الكلام الجديد الأستاذ عبدالبارى الندوى أستاذ الفلسفة الحديثة فى الجامعة العثمانية بحيدرآباد سابقا ، فقد درس الفلسفة القديمة و الحديثة دراسة عميقة ، و سخرها لإثبات العقيدة ، و إبطال الإلحاد الذى يعتبره معظم العلماء المنحرفين نتيجة حتمية للعلم و الفلسفة ، و أهم كتبه فى هذا الصدد "*الدين و العلوم العقلية*" و "*الدين و العلوم الطبيعية*" ، و هذان الكتابان عصارة دراسة طويلة عميقة ، لاسيما كتابه الفريد "*الدين و العلوم العقلية*" فانه يمتاز بإتساع الأذهان الجديدة ، و بعثها على الطمأنينة و الراحة و حتى يومنا هذا ـ و قد حلت العلوم الطبيعيـــة محل الفلسفـــة ـ لاتـزال له نضـــارة و طراوة و أهمية.

و قد التفتّ حول العلامـــة السيـــد سليمان النـدوى ـ روح دار المصنفين

Converted by Tiff Combine - unregistered

و قطبها - علاوة على الأساتذة عبدالبارى الندوى المذكور آنفا طائفة طيبة من الكتاب الإسلاميين و المؤرخين الباحثين من متخرجى دارالعلوم ندوة العلماء ، نكتفى هنا فى هذه العجالة بذكر الكاتب القدير البحاثة الشيخ عبدالسلام الندوى (١٣) صاحب كتاب "أسوة صحابية" الذى تلقى بالقبول فى الأوساط الدينية العلمية ، و الأستاذ الفاضل الحاج معين الدين الندوى ، و الكاتب الأديب الناقد المؤرخ الفاضل الشيخ معين الدين أحمد الندوى، و الأستاذ الباحث السيد رياست على الندوى ، و الأستاذ السيد نجيب أشرف النـدوى و الشيخ عبدالسلام القدوائى الندوى ، و الأستاذ مجيب الله الندوى . إن هذه الطائفة الندوية المختارة قد عملت فى مجال علم الكلام الجديد فى قليل أو كثير ، و قد ألقينا الضوء فى الفصول السالفة على بعض مؤلفاتهم القيمة التى تندرج فى علم الكلام الجديد.

و لا يخفى على متتبعى التاريخ أن أبناء الندوة العلماء لم يقاوموا فحسب كل تيار فكرى و اتجاه منحرف بل صمدوا كالجبال الراسيات فى وجه كل حركة هدامة تقضى على الفكر الإسلامى و حاربوها بما كانوا يمتلكونه من مواهب و كفاءات القلم و اللسان ، فخلدوا آثارا تبقى على مدى الزمان فى تاريخ الكفاح الإسلامى ، و زودوا المكتبة الإسلامية بثـروة غنيـة ، و لعبت ندوة العلماء دورا بارزا فى مقاومة إجهاض التضامن الإسلامى إثر الحرب العالمية الأخيرة و فتنة القاديانية و المسيحية ، و إنكار الحديث ، و التشـافـر و التناحر بين رجال المذهب الفقهية و الكلامية ، و انتشار البـدع و الأوهـام ، و أخيرا قضية تعديل قانون الأحوال الشخصية الإسلامية و إحلال الأحوال الشخصية الموحدة محلها و فرض الحظر على نشر القرآن الكريم ، و غير ذلك من قضايا ذات الحيوية و الخطورة البالغة ، فكانت كل قضية من هذه القضايا تنال عنايتها الموفورة و اهتمامها البالغ من علمـاء ندوة العلمـاء و أبنائهـا و بناتها.

و أخيرا - لا آخرا - فان ندوة العلماء أدت دورها الرائع فى مكافحة القومية و الاشتراكية و الاستخفاف بالدين التى اكتسحت موجاتها العالم العربى ، و ذلك فى وقت احتبست فيه الأنفاس و انكسرت الأقلام و اختلط الحابل بالنابل و الحق بالباطل و شق على المؤمـن الاحتفاظ بشعائـر دينـه و الاعتزاز بهويته ، و إنها ثبتت على الجادة حين زلت الأقدام ، حافظت على حرمة الحق و الضمير حين خذلها فراعنة مصر على قارعة الطريق ، و ظلت داعية لمبادئها و فكرتها و متحمسة لها حين كتلت الأيدى و خفتت الأصوات إثر حملات شنيعة موسعة للإعـدام و النفـى و العنف و الاضطهـاد و الكبـت و التعذيب ، لم يرد عنها عن تأدية واجبها بقوة و دقة و أمانة تهديد أو إغـراء ، و وجدت حملة الندويين صدى فى الأوساط العلمية و الثقافية و نفوذا إليها رغم كل محاولة لاسكات صوتها بفرض الضغط السياسى و تضييق نطاق

Converted by Tiff Combine - unregistered

المنشورات التى كانت تصدع بالحق و تتصدى لمكافحة التيارات و الاتجاهات المنحرفة.

و قد كانت منشورات ندوة العلماء و رسائلها فى ذلك الوقت بلسما للجروح ، و غذاء للروح و زادا للإيمان ، و كان من أقوى هذه الرسائل رسالة بعنوان "*فاستخف قومه فاطاعوه*" و "*اسمعوها منى صريحة أيها العرب*" لسماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، كما كان لكتب "*إلى الإسلام من جديد*" و "*الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية*" و "*ردة و لا أبابكر لها*" فضل كبير فى إجلاء الحقيقة و فضح المؤامرة و الدسائس ، و أسهمت مجلة "*البعث الإسلامى*" و جريدة "*الرائد*" الصادرتان من ندوة العلماء إسهاما كبيرا فى بث هذه الأفكار و إنهاض هذه الحركة المضللة المفرضة ، و دعم الحركات الإسلامية الملتزمة.

و إن ما قام به "*المجمع الإسلامى العلمى*" فى ندوة العلماء بلكناؤ فى العصر الأخير من خدمات فكرية و انتاجات علمية و أدبية ، على النطاق الواسع الكبير ، فى شتى اللغات من العربية و الإنجليزية و الأردية و الهندية له فضل كبير فى تغذية الفكر الإسلامى ، و إعادة الثقة فى الشباب المسلم المثقف بجدارة الإسلام لقيادة الركب البشرى ، و حل المعضلات العصرية و العقد النفسية ، و لاسيما كتاب سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى "*ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين*" يأتى هذا الكتاب فى طليعة قائمة الآداب الإسلامية ، و يعالج الفكر الاسلامى الأصيل باستعراض التاريخ بوجهة نظرة جديدة مبتكرة و يحاول بنجاح استخدام طريقة العرض الجديد العادل مع مراعاة تغذية القلب و العاطفة ، و إشعال مجامر الإيمان ، الخصيصة التى تعتبر من مزايا علم الكلام - الذى حمل لواءه المؤلف الباحث - و الذى يمتاز به فكر ندوة العلماء و منهجه الجامع الشامل.

من هنا فقد أشاد الأعلام الكتاب و العلماء الباحثون بقيمة الكتاب و مكانته و أهميته الخاصة ، و تكررت طبعاته من كل من القاهرة و بيروت و دمشق و الكويت ، و صدرت له عدة طبعات غير رسمية كذلك ، و تم نقله إلى اللغات العالمية ، و أدرجته أوساط "الإخوان المسلمون" فى برامجها التربوية.

و من بين الكتب الهامة الأخرى التى نشرها هذا المجمع العلمى العظيم و نشرت كذلك فى كل من بيروت و دمشق و القاهرة و استانبول و الكويت "*القاديانى و القاديانية*" فقد أحدث هذا الكتاب اضطرابا و قلقا شديدا فى أوساط القاديانية و القاديانيين، فان الكتاب يعالج قضية القاديانية و فتنتها العارمة التى شغلت الأوساط الإسلامية و الباحثين الإسلاميين كثيرا ، يعالجها بدراسة علمية رزينة و بحث أمين نزيه تجرد فيه من التطرف و الانحياز ، و اجتنب عن طريقة المناظرة و الوعظ ، أشادت الجريدة القاديانية الشهيرة "*الفضل*" الصادرة من لاهور بأهميته و قيمته ، و اعترفت بأنه لم يصدر أى

Converted by Tiff Combine - unregistered

بحث في رد القاديانية مثل هذا البحث الذي يقام له الوزن الكبير (١٤) و قد لعبت طبعات هذا الكتاب الإنجليزية في باكستان نفسها و في إفريقيا و أوربا دورا طليعيا بارزا.

و من الكتب الهامة التي تدخل في نطاق علم الكلام الإسلامي الجديد من تاليفات سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني لندوي كتاب "*النبي الخاتم*" تم تأليفه بعد أن صدر الحكم الحاسم بكون القاديانية أقلية غير مسلمة ، و هو دراسة علمية عميقة حاول فيها المؤلف القضاء على هذه القضية الحساسة فكريا و عقليا كما قضى عليها إلى الأبد بما أصدرت الدولة الباكستانية حكمها سياسيا و رسميا ، و من مزايا الكتاب - و هي كثيرة - أن كل قارئ محايد يتفاعل مع الكتاب في فكرته و مفاهيمه ، فان الكتاب يعالج عقيدة ختم النبوة مؤثقة بحميج و براهين عقلية و منطقية و كحاجة إنسانية ملحة ، مما زاد القضية بلورة و وضوحا هو مقارنتها مع الأديان الأخرى و الدراسة الأمينة النزيهة.

و لابد من ذكر كتب الأستاذ شهاب الدين الندوي الذي أنشا مجمعا إسلاميا علميا باسم "*أكادمية فرقانية*" إن جميع ما دبجه قلم المؤلف يضفي النضرة و الطراوة على دوحة علم الكلام الخضراء التي سقاها العلامة الكبير شبلي النعماني و تلميذه النجيب العلامة السيد سليمان الندوي بدمائهما ، فمثلا كتابه "*تسخير القمر كما يراه القرآن*" أثبت فيه بدلائل قوية أن تسخير القمر بل الكون كله ليس بمستحيل و لا بشيء يثير الدهشة و الاستغراب ، و للأستاذ كتب أخرى في أمثال هذه المباحث الحديثة مثل "*الإسلام و العلم الحديث*" و "*أسرار النبوة*" و "*القرآن و العلوم النباتية*" و "*القمر و القيامة*" و "*تخليق آدم*" و كلها تبرهن على أن الإسلام يشجع العلم و التكنالوجيا و تحث على الانتفاع مما يقدمه لنا العلم من اكتشافات حديثة و مخترعات جديدة و استخدامه فيما هو أصلح و أنفع ، و تؤكد بأن محاولة التوفيق بين الدين و العلوم العقلية شيء لا حاجة إليه ، فان التوفيق بين الشيئين يحتاج إلى سابق اصطدام و تعارض بينهما ، و ليس شيء من ذلك ههنا ، فان أحدهما يسير في طريق لا عهد به للآخر ، فاني الاصطدام ؟ و من أين التعارض ؟ و ما معنى التناقض يا ترى ؟ و بذلك تندفع كثير من التهم و الشبهات التي تثار حول جدارة الإسلام و صالحيته لقيادة الركب البشري في العصر الراهن عصر العلم و التقنية و ينكشف زيف النظريات و الاتجاهات التي ترمي الإسلام بتهمة "الأصولية" و التزمّت و الرجعية.

و من الجدير بالذكر أن الانتاج العلمي القيم الذي حققته ندوة العلماء في مجال علم الكلام الجديد ، قد تم نقله إلى لغات أخرى ، فزاد تأثيره و اتسع نطاقه و مجاله ، و سد فراغا كبيرا في المجتمع الإسلامي ، و أنجز - إلى حد كبير -

Converted by Tiff Combine - unregistered

حاجة الجاليات الإسلامية في الغرب.

هذا استعراض خاطف لعلم الكلام الجديد ، الذي وضعت ندوة العلماء نواتها الأولى ، و خدمت عن طريقة الإسلام و المسلمين ، و مثلت دورها الرائع في مجالات الثقافة و التوجيه الفكري و الدور الطليعي في مكافحة حملات التضليل الفكري الموسعة ، و التيارات الضالة التي اكتسحت موجاتها العارمة العالم الإسلامي و العالم العربي حينا بعد حين ، و الكشف عن زيف الاتجاهات المنحرفة ، و المؤامرات المناوئة و الدسائس الخطيرة التي تمثلت في الحركات الهدامة و المنظمات المتطرفة ، و في ضوء هذه الانتصارات الباهرة و الرواشع المدهشة التي حققتها ندوة العلماء في مجال علم الكلام الجديد فحسب ، يستطيع المتتبع للأحداث أن يتحقق فراسة شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال و ثقوب نظره و عبقريته و عصاميته ، حيث إنه قال قبل أكثر من خمسين سنة:

> *" إني لا أزال أعتقد منذ مدة أن المسلمين في الهند الذين لا يستطيعون أن يمدوا يد المعونة إلى الدول الإسلامية الأخرى من الناحية السياسية ، يستطيعون أن يقدموا مساعدة كبيرة من الناحية العقلية و الفكرية و ليس من الغريب أن تكون ندوة العلماء أنفع و أجدى من جامعة "عليجره" الإسلامية في عيون الأجيال القادمة للهند الإسلامية في هذه الناحية." (١٥)*

أبناء ندوة العلماء في مختلف مجالات الحياة :

إن دارالعلوم ندوة العلماء مدرسة فكرية تربوية نموذجية امتازت عن غيرها من المدارس العلمية و الإسلامية في هذه البلاد على اختلاف أحجامها و أعمارها ، و خدماتها و إنجازاتها بالحكمة و التسامح ، و التوسط و الاقتصاد ، و الشمول و الجامعية فقد جمعت في مجال التفكير و العمل بين القديم الصالح و الجديد النافع ، و بين المحافظة على الأسس و المبادئ و المثل و القيم و التجاوب مع المتطلبات الإنسانية الواقعية المعاصرة و تلبية نداء المقتضيات الراهنة . فكأنها قامت في تعبير أوجز و أفصح بين الجامعة المصرية و الأزهر الشريف ، أو بين معهد ديوبند الإسلامي الكبير و جامعة عليجره الإسلامية الراقية.

و انطلاقا من هذه الفكرة المتزنة الجامعة دأبت ندوة العلماء على أن تنظر إلى الأوضاع و الظروف بنظر حكمة و تدقيق ، و حرصت على أمانة الوصل بين جيل و جيل ، أمانة نقل التراث من السلف إلى الخلف بزيادة و غربلة و تهذيب. و حاولت أن تعمل بسياسة التسامح و التضامن في الخلافات الفقهية و المذهبية ، و الاختلافات الهامشية الفروعية و أن تكون همزة وصل بين طبقتين متنافرتين متناحرتين ، طبقة العلماء و الشيوخ ، و طبقة المثقفين

Converted by Tiff Combine - unregistered

العصريين ، و استقطبت جهودها على تابية أمانة الوفاء بالدين الكامل الشامل و المسايرة للحياة ، أمانة القيادة الفكرية لمواجهة تحدى الغرب بدلا من الفرار منه و الإنزواء عنه ، أو الانحراف معه و الذوبان فيه.

و حقا فقد تكللت مساعيها بالظفر و النجاح ، حيث أنجبت عددا كبيرا من العلماء الراسخين الواعين الذين أدركوا خطورة الفلسفات الهدامة الوافدة من الغرب و تصدوا لدحضها و الرد عليها ردا علميا جادا ، و أنجبت نخبة من نوابغ التاريخ الإسلامى المعاصر عنوا بعرض التاريخ الصحيح ، و دحض الشبهات ، و نفى الافتراءات و سد منافذ الشبهات و الاعتراضات ، و اعتزت بهم هذه البلاد ، و شهد بامامتهم الفكرية و رصيدهم العلمى و الأدبى علماء الشرق و الغرب و العرب و العجم.

و قد اعترف بذلك فضيلة الشيخ الإمام الأكبر عبدالحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا ، فى مستهـــل كلمتـــه الضافيـــة التى تقدم بها إلـــى ندوة العلماء ، بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين :

" *و لقد وفق الله الندوة ، منذ أن قامت فى منهجها ، و وفقها فى جهادها و وفقها إلى النتـائج التى وصلت إليها* .....

لقد كان من ثمار الندوة كثير من الأفذاذ فى كل مجال لقد أثمرت كبار المحدثين و كبار الفقهاء و كبار المفسرين ، و أثمرت فى جميع مجالات العلوم الإسلامية ، و كان من ثمارها ، الكثير من المدارس التى تربّى أجيالاً على شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمّداً رسول الله." (١٦)

و يقول فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمّد الحسنى - رحمه الله - و هو يلقى الضوء على رسالة المهرجان التعليمى الذى عقدته ندوة العلماء بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين عام ١٣٩٥هـ

" *إن ندوة العلماء دخلت بهذا المهرجـــان العظيم التاريخ العلمـــى و الفكرى من أوسع أبوابه ، فالذين لم يكونوا يعرفونها صاروا يفهمونها حق الفهم ، و يعجبون بانتاجها الغنى الخصب فى مجالات التربية و الدعوة و الفكر غاية الإعجاب* . ....."

و الذين كانوا يظنون أن الهند بلاد الغابات أو الأفيال ، أو بلاد الشعوذة و السحر ، أو بلاد التصوف العقيم ، أو شرذمة قليلة من علماء الدين لا يعرفون الدنيا و لا يعرفون الدين ، رجعوا ماخوذين بعبقريتهم فى سائر المجالات من العلوم الدينيـــة المتداولـــة إلى مختلف الآداب و اللغات. ـــ ذلك فى القديم ـــ أما فى الحديث فقـــد رأوا صـــورة حيـــة مشرقة نابضـــة بالحيـــاة

Converted by Tiff Combine - unregistered

و الازدهار و صورة ناضجة زاهية من منهج الفكر الإسلامي السليم الذي سارت عليه ندوة العلماء . و اطلعوا على نظرتها إلى سائر العلوم و النواحـــي الاجتماعيـــة مشروحة في معارضهـا و لوحاتهـا و في كتابات أوليائها و أبنائها . متجلية إلى حد كبير في طراز حياتهم و سلوكهم و أذواقهم." (١٧)

و يشهـد التـاريخ أن الندويين قد خاضـوا أنواع الميـادين و الكتابـة و التصنيف و التاليف ، إلى منصة التعليم و التدريس ، إلى حلقـة التزكيـة و التربية إلى ميادين الصحافة و الإدارة إلى زوايا الذكر و الرياضة ، إلى ساحة السياسة المجرجة الشائكة إلى طرق الاقتصاد الوعرة ، إلى معترك المقاومة الفكرية للغزو الحضاري الغربي ، إلى جبهة مكافحة حملات التشكيـك و التضليل و التشويه ، إلى حقول الأدب و التاريخ و العلم و الدين ، لم يتركوا أي مجـــال مـــن هذه المجـالات إلاّ و عملوا فيه و مثلوا أدوارهـــم الرائعـــة ، و لم يتركوا أي واد من هذه الأودية إلا و وطأوها و ذللوا صعابها و مهدوا هضابها و شعابها.

كان التاريخ قد أصبح في أواخر القرن التاسع عشر و في أوائل القرن العشرين بعد الاحتلال الأوربي في الأقطار الإسلامية ، منفذا كبيرا و مدخلا واسعا للشبهات حول الإسلام و حضارته و نظام حكمه و معاملته لمن كان تحت حكمهم ، و كانت الحاجة تشتد إلى العناية بعرض التاريخ الصحيح و تنفيد الأباطيل و نفي الافتراءات . فهنا أبـــرزت ندوة العلمـــاء رجالاتهـا البارعين و نوابغ التاريخ الإسلامي الذين شهد بامامتهم الفكرية و رصيدهم العلمي علماء الشرق و الغرب ، فعنوا بدحض الشبهات و نفي الافتراءات و إماطة اللثام عن وجوه الحقائق و المقررات و عرض التاريخ الصحيح عرضا مؤسسا على الوثائق و الدلائل ، مدعما بالتحقيق و الدراسة المضنية و الاتزان الفكري و سداد الرأي و متسما بالأصالة (Originality) و النزاهة و التجرد من التطرف و سوء الفهم ، أمثال البحاثة الكبير السيـد سليمـان النـدوي ، و الأستاذ الشاه معين الديـن أحمد الندوي ، و الأستاذ عبدالسـلام النـدوي ، و الأستاذ مسعود عالم النـدوي ، و الأستاذ عبدالسـلام القـدواني النـدوي ، و الأستاذ رياست علي الندوي ، و الأستاذ عبدالقيوم الندوي ، و سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي و الأستاذ رئيس أحمـد جعفـري النـدوي و غيرهم.

لقد كانت الهند - بحكم عوامل و أسباب تاريخية لا يعلمها إلا الله - أكبر مسروح للصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية الملحدة ، و تليها بعض أقطار شمال إفريقيا و تركيا و مصر ، بلاد الشام حيث منى شعوبها باخطر التحديات ، و قد لقيت منهم أقسى الرد و أشد المقاومة ، فقام في الندوة من يحسن القيام بهذه المسئولية المباركة و يمثل دوره في هـذا الصـراع الفكري

Converted by Tiff Combine - unregistered

و الأدبي و الإجتماعي و يجيد اختيار اسلاح و يتقن طريقة استخدامه ، كما أن دار العلوم ندوة العلماء كرست جهودها على إصلاح البين و جمع شمل المسلمين على اختلاف وجهاتهم و مذاهبهم و فئاتهم و هيئاتهم ، فاذا الشباب المثقف الذى كان يشمئز من علماء الدين و يسخر منهم صار رهن إشارتهم و سهم كنانتهم. و إذا العلماء الذين تنافروا هؤلاء و انزووا عنهم يقبلون إليهم ، و يحدبون عليهم كالأم الحنون و يتعاونون معهم إلى نهاية المطاف.

" *و رأى الناس امة مبعثرة تتجمع و حواجز سميكة تتلاشى و جروحا غائرة تندمل ، و فجوات واسعة تمتلئ ، و مواهب هائعة و قوى متصارعة تجد طريقها و منفذها و مسيرتها فتنسى خلافاتها و همومها ، و تنسى حقوقها و حظوظها فى سبيل الواجب الدينى المقدس ، واجب الحفاظ على الامانة ، و إنقاذ الأبناء من جاهلية غربية جاءت بخيلها و رجلها ، و خرجت بزينتها و سحرها و حبثها و مكرها*."

و لما اكتسحت العالم العربى القومية و الاشتراكية و موجات الحضارة الغربية الفاتنة ، و نهض الطغاة المعاندون للإسلام و المسلمين ، و صمتت أصوات العلماء المكافحين فى أرض المعركة الفكرية إثر حملات النفى و الإعدام و الكبت و الاضطهاد ، و اكتظت الأسواق بالمواد السامة المضللة بأقلام المرتزقين و أذناب الغربيين ، و احتاج العالم العربى - فى مثل هذه الأوضاع العصيبة - إلى سد أكبر من سد "أسوان" العالى ، يقف فى وجه السيول الجارفة و الموجات الطاغية و الفيضانات المدمرة من التيارات الجاهلية و الموجات الفكرية و النزعات المادية و الحضارة الحيوانية ، فكانت هى ندوة العلماء التى أنشأت هذا السد العالى المنشود ، يقول فى ذلك فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمّد الحسنى رحمه الله.

" *إن ندوة العلماء أنشأت هذا "السد العالى لتقف كالحارس الأمين على أبواب الحضارة الغربية الساحرة الخلابة ، فلا تسمح للجيل الجديد إلا بهذه العلوم البريئة و الوسائل البريئة التى لا تمس جوهر الدين، و لا تواجهه فى أى مرحلة من مراحل الحياة ، بل تسانده و تقويه ، و تقف إلى جانبه فى حمل الدعوة و أداء الرسالة ، و إقامة الحجة ، و إثارة الوجدان ، و إقناع الفكر ، أضافت إليها العاطفة و الإيمان ، و الاعتماد عليه ، و قدمت من بين أبنائها طائفة تمثل هذا الطراز و هذا التفكير، و هذا المنهج خير تمثيل، و تحمل هذه الرسالة بإخلاص و أمانة ، و صدق و نزاهة ، و جراءة و شهامة ، و حكمة و براعة*." (١٨)

Converted by Tiff Combine - unregistered

على كل فان أبناء ندوة العلماء رابطوا على أنواع الجبهات و حافظوا على أصناف الثغور و الحدود ، و ضخم انتاجهم و بهر انتصارهـــم و ظهـــر فضلهم و نبوغهم فى مختلف الحقول ، و لايزالـــون يثابـــرون على مختلف الثغـــور و الجبهات و يعملون فى مختلف الحقول و المجالات و يشغلون وظائف كبيرة فى ساحات التدريس و الصحافة و السياسة و الاجتماع ، و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . يقول سماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى:

" و كفى متخرجى الندوة فضلا أنهم أثبتوا أنهم لا يعيشون فى عزلة عن العالم و فى جزيرة منقطعة فى بحر الحياة، فكان منهم ادباء، و باحثون ، و مؤلفون فى لغـــة البـــلاد ، و اجتماعيون يشاركون فى الحياة ، و كان منهم من كوّن للنشء الإسلامى الجديد المثقف مكتبة كاملة." (١٩)

إرتساءات زيارة

و إليكم الآن بعض كلمات الانطباع لزوار ندوة العلماء عن ندوة العلماء ، سجلها بعض كبار رجال العلم و الأدب و السياسة فى العالم الإسلامى على إثر زيارتهم لدار العلوم ندوة العلماء (٢٠)

كلمة وفد الأزهر الشريف :

زرنا مدرسة دار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ واجتمعنا بأساتذتهـا ، طلبتها و تحادثنا معهم ، و احتفلوا بنا و سررنا بلقائهم و اطلعنا على نصاب تعليمهم و منهاج تدريسهم فرأينا منهجا محكم الوضع متقن الصنع، جمع بين علوم الدين و علوم اللغة العربية ، التى هى مفتاح الكتاب العزيز و السنة النبويـــة ، و بين علوم الثقافة العصريـــة التى تنيـــر الطالب فى حياته ، و تعينه على أداء مهمته ، و تجمع بينه و بين طبقات الأمـــة و عوامهم و مثقفيهم ، و لقد أكبرنا هذه الدقة فى اختيار أمثل الطرق فى التربية و التعليم ، و تساءلنـــا (هـــذا شـــأن النصـــاب و المنهاج فيا هل ترى ما شان النتائج و الثمار ؟) حتى برز أمامنا الطلاب يتكلمون و يخطبون ، و إذا بنا نشهد مظهـــرا حافلا بالفصاحـــة و طلابا يجيدون البيان ، و لقد كان الطلاب الذين رأيناهم من مختلفى الطبقات معا بين كبار و صغار.

ابراهيم الجبالى ، محمّد صلاح الدين النجار ، عبدالوهاب النجار محمّد أحمد العدوى ، حبيب أحمد (سكريتر البعثة)

٨ ذوالحجة ١٣٥٥هـ

Converted by Tiff Combine - unregistered

كلمة الشيخ عبدالعزيز الثعالبي زعيم تونس

زرت نادي اتحاد الطلبة لمدرسة ندوة العلماء ، و رأيت الطلبة مصطفين في القاعة ، و هم على مقاعدهم كأنما على رؤوسهم الطير ، يمثلون الكمال و الوقار ، و هذا مظهر من مظاهر الكمال في النفس الذي استفادوه في هذه المدرسة القيمة من الآداب و التعاليم ، و الطبية المختلفي الأسنان و التحصيل الذين تمثلت في نفوسهم هذه الثقافة المهذبة لأول دليل على وجود النضج و الرشد في هذه المدرسة الخالدة ، و أنا من شراشر قلبي أدعو لها و أحييها إدارة و أساتذة و طلبة

عبدالعزيز الثعالبي
يوم السبت غرة ذي الحجة سنة ١٣٥٤هـ

كلمة كبير علماء العراق الشيخ أمجد الزهاوي

لقد رأينا دارالعلوم ندوة العلماء فوجدناها وفية و الحمدلله بالغرض السامي الذي أسست من أجله ، و ذلك تخريج علماء يرفعون راية الإسلام ، و يبثون تعاليمه و أحكامه في أقطار الأرض ، و يظهرون أمام الأمم الأخرى بالمنظر اللائق به ، فهنيئا لمن يتخرج منها فيفوز بخلافة النبوة بنشر تعاليمه و إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وفقنا الله و إياهم لخدمة الإسلام.

كتبه أمجد الزهاوي
١٦ ذوالقعدة ١٣٧٣هـ

كلمة سمو الأمير مساعد بن عبدالرحمن آل سعود المعظم

لقد سرني أن أتيحت لي هذه الفرصة لزيارة مقر ندوة العلماء لكناؤ ، و كنت أسمع عن هذا المعهد الشيء الكثير من مجهوداته الطيبة في نشر العلم الديني و التثقيف الصالح ، كما لمست أثر ذلك أيضا في كثير من الشخصيات العلمية التي أتيح لي التعرف عليها بالحجاز ، و إني لأرجو لرجال هذه الندوة كل التوفيق و السداد.

مساعدبن عبدالرحمن آل سعود
١٧-٤-١٣٧٥هـ

Converted by Tiff Combine - unregistered

من كلمة طويلة للأستاذ الفاضل الشيخ علي الطنطاوى :

. كنت أشتهي على الله أن يربني قبل أن أموت معهدا لا يجمد جمود الأزهر القديم و ما على إثره من المعاهد و لا (يسيل) سيلان المعاهد الجديدة معهدا فيه العلم و التقى ، و فيه القديم و الجديد ، فيه الدنيا و الأخرة و أنا أحمدالله ان كافأني على رحلتي هذه فأراني هنا في قلب الهند.

و أما أن أقول إن هذا معهد خير و إنه خير معهد ، فهذا من تحصيل الحاصل. و لكني أقول كلمة عن نفسي ، و الأدباء (مع الأسف) ما تكلموا عن شيء إلا جعلوا الكلام عن انفسهم.

و لقد عشت حتى قاربت الخمسين ، و رأيت دنيا الإسلام قاسيها و دانيها ، و جربت الحياة حلوها و مرها ، و أوتيت بحمدالله مالا و ذكرا و منصبا ، و نلت ما يتمنى أكثر الناس أن ينالوه ، و مع هذا فاني أحلف أني ما زرت هذا المعهد حتى اختصرت أماني نفسي كلها في أمنية واحدة هي أن أعود طفلا (لو كان إلى العود سبيل) حتى أنشأ في هذا المعهد فأجمع بين الدين و الدنيا ، و امتع النفس بجمال الكون فيه ، و القلب بتوجيه مدرسيه ، و العقل بما فيه من علم و ما ألفى مكتبته من الكتب.

و قد قطعت الأرض من دمشق إلى أقصى جاوا فما دخلت مكانا ، تمنيت أن أقيم فيه إلا هذا المكان.

فأرجو أن تفهموا التلاميذ ما قلت ليدركوا قيمة النعمة التي أنعم الله عليهم بها.

علي الطنطاوى
ذو القعدة ١٣٧٣هـ

من كلمة سماحة المفتي أمين الحسيني :

دهشنا حين زرنا مدرسة "ندوة العلماء" الشهيرة التي تخرج منها ألوف من كبار العلماء و الكتاب و الأدباء ، و التي تضم ألوف الطلاب ، فشهدنا فيها جميع الأساتذه و الطلاب في أقسام العالية و الثانوية حتى الإبتدائية يتكلمون اللغة العربية ، و علمنا أن الكلام بغير اللغة العربية في جميع أقسام المدرسة محظور

Converted by Tiff Combine - unregistered

كلمة الشيخ عبدالمنعم النمر والشيخ عبدالعال العقباوى :

كنا نسمع عن دارالعلوم ندوة العلماء ، و نعرف عنها معلومات حببتها إلينا ، و شوقتنا إليها . حتى أتاح الله لنا أن نأتى إلى الهند ، و أن نزور هذه الدار التى أحببناها من قبل ، و نتلاقى مع الأصدقاء و الإخوان الذين عرفناهم شخصيا أو بالمواسلة ، و لقد سرنا و شرح صدورنا أن وجدنا حقيقتها تفوق كثير ما سمعنا عنها ، و أن نجد طلابها على قسط كبير من معرفة اللغة العربية حتى لتعد دارالعلوم ندوة العلماء فى لكناؤ واحة العربية فى البلاد الهندية.

عبدالمنعم النمر ، عبدالعال العقباوى
١٢/ محرم ١٣٧١هـ

كلمة المفتى ضياء الدين بابا خانوف
رئيس المعهد الدينى الإسلامى السوفيتى (تركستان)
و الحاج أحمد جان مصطفى إمام و خطيب :

نحن الوفد الذى يؤلفه مواطنو مدن سوفيتية مختلفة ، قد تمتعنا بزيارة ندوة العلماء لكناؤ ، و لمسنا الطابع الإسلامى هو الغالب على القائمين عليها ، و شعرنا بأن طلاب علوم الدين مخلصون فى نواياهم و مكتملون فى الخلق الإسلامى ، و شهدنا فى أساتذتها النبوغ العلمى و الفكرى ، و قد وجه سماحة الشيخ السيد أبى الحسن علي الندوى إلينا الدعوة للقدوم إلى هذه الدار ، إنه ألقى كلمة تعريف بالعلماء الذين ظهروا على أرض ماوراء النهر ، و خص بالذكر منهم إمام المؤمنين فى العلم و الحديث الإمام أبو عبدالله البخارى ، و الإمام مرغينانى صاحب "الهداية" . نحن جميع أعضاء الوفد نشكر القائمين على هذه الدار العظيمة و المشرفين على إدارة شئونها ، كما نوجه شكرنا و تقديرنا إلى الذين يؤيدون الحق - و الحق أحق بالاتباع - و يتحمسون له ، و نحن مسرورون جدا بزيارة ندوة العلماء.

ضياء الدين ، أحمد جان مصطفى

Converted by Tiff Combine - unregistered

كلمة شيخ الإسلام مولانا السيد حسين أحمد المدني.

تشرفت اليوم فى ١٤/محرالحرام عام ١٣٦١هـ بالحضور فى دارالعلوم ندوة العلماء ، و اتفق لى كذلك إلقاء كلمة فى اتحاد الطلبة "الإصلاح" ، و الحمدلله على أن نظام الاتحاد المذكور محكم مشجع ، يرجى منه و لاسيما من أعضاء الأذكياء المجتهدين أنهم سيطلعون فى أفاق الأمة الإسلامية كنجوم زاهرة ، أدعو الله أن يصلح هذه الجمعية بأوسع معنـــاه ، و أن يحتل هؤلاء الشباب مكانة بارزة فى قـيادة الشعب و الأمة و البلاد.

(مترجمة)

حسين أحمد
١٤/محرم الحرام ١٣٦١هـ

كلمة سماحة مولانا حبيب الرحمن خان الشروانى وزير الأمور الدينية فى دولة حيدر آباد سابقا:

اهتبل هذا العاجز الذى صلته قديمة و متينة بدارالعلوم هذه الفرصة لزيارتها ، فشاهدت مختلف الصفوف الدراسية و استمعت إلى دروس كل من الحديث الشريف و الفقه و الادب العربى ، فتأثرت بحسن الإلقاء ، و الذى شاهدته و استمعت إليه أثلج فؤادى و قرت بـه عينـاى ، و ملأنى فرحا و سرورا

و إنى لأشكرالله كثيرا على أن دارالعلوم لاتزال مستمرة على مزاياها و تؤدى واجباتها متمسكة بأساليبها النافعة فى الدرس و البحث ، و رأيت أن الرحمة الإلهية لا تزال تغشاها و تحيط بهـا ، بارك الله فيهـا و فى أبنائها و خدمها (مترجمة)

حبيب الرحمن
١٧/فبراير ١٩٢٨م

Converted by Tiff Combine - unregistered

الهوامش:

١ - حياة شبلي ص ٣١٠

٢ - تقرير الاجتماع الأول ص ١

٣ - تقرير الاجتماع الثاني ص ٦

٤ - مشروع المقرر الدراسي ص: ٧

٥ - سيرة العلامة محمّد علي المونكيري لمؤلفه محمّد الحسني ص ١٤٩

٦ - حياة شبلي ص ٢٠

٧- نفس المصدر ص ١٩

٨ - حياة شبلي ص ٤٢١

٩ - مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز ج/٢٠ عدد ٢ ٣ - السنة ١٣٩٥هـ ص ٧١

١٠- حياة شبلي ص: ٤٣٤

١١- الإسلاميات بين كتابات المستشرقين و الباحثين المسلمين لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ص ٥٣

١٢- هو بطل أسطورة شائعة في الأدب الفارسي ، و يضرب به المثل في الوفاء و التفاني و القيام بمهمته في منتهى العسر و شدة مستحيل ، فإن ملك عصره خسرو كلفه أن يفجر عينا من لبن من الجبل، فاشتغل بذلك و مات في سبيله.

١٣- يعتبره كثير من النقاد أشبه تلاميذ العلامة شبلي بأستاذه في الأسلوب و البيان و اللغة.

١٤- "پيام ندوة العلماء" (رسالتها) ص ١١٠

١٥- إقبال نامه ج/١ ص ١٦٨

١٦- مجلة البعث الإسلامي عدد ممتاز من المهرجان التعليمي لأعداد محرم صفر و ربيع الأول سنة ١٣٩٦هـ ص ٥٥

١٧ - المصدر السابق ص ٢٩١-٢٩٢

١٨ - و هي كلها موجودة في الملف التذكاري لصحيفة الرائد و مجلة البعث الإسلامي.

١٩- مجلة البعث الإسلامي" عدد ممتاز لأعداد شعبان ، رمضان و شوال ١٣٩٥هـ ص ١٠٤

Converted by Tiff Combine - unregistered

دور تكنولوجيا المواصلات
فى دمقرطة التعليم فى الهند

بقلم : الدكتور دلنواز أحمد الصديقى
أستاذ قسم المواصلات
جامعة كارليون بنسلفانيا

التعريف :

هذه الورقة تهدف إلى تحديد العوامل الرئيسية المؤثرة فى استخدام تكنولوجيا المواصلات فى دمقرطة التعليم فى الهند. أولا انها تقوم بتعريف الأهداف العامة، و تحدد ملامحات دمقرطة التعليم من منظورات متعددة. و ثانيا تتوجه الورقة إلى القوى الرئيسية التى اعترضت - و لاتزال - فى سبيل عمل الدمقرطة هـــذا. و ثالثـا و أخيرا فانها تتعرض لتوصيات من شانها المساعدة فى تجاوز تلك العقبات.

إن تكنولوجيا المواصلات - فى تعرفة عامة - موجهة إلى الاستخدام كأداة، أو هى عبارة عن عمل يضيف إلى الكفاءات الانسانيـة الفعليـة و الفزيائيـة. و يسعها بذلك الطريق أن تمكن أبناء البشرية من التغلب على القيود المكانيـة و الزمنية أثناء التفاعل مع البيئات الطبيعية و الانسانية. الأدوات كلها من قطعة خشب أو حجر، إلى العقول الالكترونية المتطورة و الأقمار الصناعيـة ، و أشكال متنوعة لتكنولوجيا المواصلات.

الهند - فى زحفها المتواصل على طريق التنمية الوطنية - نجحت فى تنمية التكنولوجيا المتطورة للأقمار الصناعية و ربطها من الفضاء مع محطات التلفزيون، و تستخدمها منذ اكثر من عشر سنوات لبث البرامج التعليمية إلى قرى نائية . و لقد عززت الأقمـار الصناعيـة (انسات ١ ايـه ، و انسات ٢ بى) المساعى التى تبذل لتعليم الملايين من المواطنين الهنود

Converted by Tiff Combine - unregistered

الاقتصاد و السياسة و الثقافة بأنماطها المتعددة. بالاضافة إلى ذلك فان الإذاعة و الصحافة باتت تستخدم لنفس الأغراض منذ عدة عقود، و خاصة فى العقود التى تعاقبت استقلال الهند.

لا داعى للتركيز على أهمية العلاقة بين وضعية نمو الموارد البشرية لشعب ما، و تقدمه الاجتماعى - الاقتصادى . و الهند لم تكن تفتقر منذ أول وهلة إلى مساعدة خبير أو اخصائى أجنبى ليكشف لها الستار عن هذا السرّ. و من بداية انطلاقة حركة التحرير من بريطانيا ظل القادة من أمثال البروفيسور جوكليه و المهاتما غاندى يركزون على ضرورة تثقيف الجماهير الهندية، و تمكينها بذلك الطريق أولا من تاكيد حقها فى الحرية و الاستقلال ، و ثانيه من المساهمة فى عمل التنمية و اقتسام ثمارها فى المراحل اللاحقة . تلبية لنداء غاندى لاتخاذ التعليم وسيلة لنهضة الريف قام السيد محمود (من بيهار) و راجاجى (من مدراس) و أمراء اقليم أودهـ بجولات بين القرى لمئات الكيلومترات يوميا ، ينظمون برامج تعليمية لذلك الغرض (بهولا ١٩٨٧م)

اذا اعتبرنا نوعا من التعليم و تعميمه بين الجماهير بمثابة محرك للتنمية الوطنية ، فعندئذ ينبغى أن تستغل تلك التنمية خدمة لجميع أفراد الأمة بغض النظر عن العرق و القومية و الثراء و العقيدة و الجنس و العمر. و دستور جمهورية الهند العلمانية الديمقراطية الشعبية هو الآخر يدعو لإنشاء و دعم نظام حكم من ذلك النوع. و اذا أريد للهند أن تحيا كدولة ، و تواصل مسيرتها على درب التقدم و الازدهار، فيتوجب على قادتها العمل على تامين ربط الديمقراطية و التعليم برباط التكافل . و التكنولوجيا الحديثة للمواصلات يمكن أن تكون عونا كبيرا على تحقيق ذلك الهدف المنشود.

قبل تناول الدور الذى لعبته تكنولوجيا المواصلات لغاية الآن، أو الدور الذى ستستمر فى اضطلاعه مستقبلا لدمقرطة التعليم فى الهند، من الضرورى أن نقوم بتحديد معنى دمقرطة التعليم ، و نعرف أهدافها و منهاجها. بل الحقيقة ان الديمقراطية نفسها تتطلب شرحا و ايضاحا قبل الدمقرطة. ذلك لأن الديمقراطية تفسر أحيانا - عن طريق الخطأ - بكونها هدفا وطنيا أو نظرية محضة ، و فى زحمة هذه التفسيرات يتناسى المرء أنها عمل و منهاج لصنع القرارات ، و لاغير.

و لو قدر للديمقراطية - فى دولة من الدول - أن تجد هذا التطبيق ، و تنعكس فى صنع القرارات ، فعندئذ أيضا لا تتعين قيمتها الاجتماعية بين مختلف الطبقات . و إيجاد حل لهذه المشكلة يكون ذا أهمية حرجة ، و بدون حل مقنع لها، يمكن أن تلتبس على الأمة حتى معالم الجهة العامة فضلا عن مخصصات أهداف التنمية الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية .

و اذا كانت الأوضاع بهذه الدرجة من الغموض، فاستخدام تكنولوجيا المواصلات سوف لايثمر سوى عن المزيد من الانحطاط و الانهيار. و الولايات

Converted by Tiff Combine - unregistered

المتحدة الأمريكية هى خير و أبرز مثال لذلك - يقول فريدريك وليمس (FREDERICK WILLIAMS) (١٩٨٢) : " الخير فى المواصلات ، ما هو خير لنا، و عن مسائل قيمية أعمق و متصلة بالتكنولوجيات الخاصة بالمواصلات، فانها تقع فى اطار السلوك الانسانى - أى الأهم من الناحية القيمية نهائيا ، هو كيف ندبر المواصلات و ندبرها، و لا ماتصنعه المواصلات علينا.

حسبنا أن نركز هنا على أهمية الناحية القيمية للمواصلات بهذا القدر، و قبل أن نعود إليها بشىء من التفصيل يبدو من الضرورى أن نناقش دمقرطـــة التعليم بمعانيها المختلفة. هاتان الكلمتـــان تقبلان عـدة تفسيـــرات و شروح ، و أبرزها أن يكون التعليم فى متناول سائر أفراد الشعب. لكن نفس التركيب اللفظى يمكن أن يدل على ضرورة تكييف محتوى التعليم مع حاجات الديمقراطية - أى التعليم لأجل الديمقراطية . و يمكن أيضا أن يراد بدمقرطة التعليم اتاحة مختلف طبقات الأمة قدرا من الحرية فى اختيار المواد الدراسية. و هناك معنى آخر لها، يتلخص فى أن يكون اجراء صنع القرار مفتوحا لمساهمة جميع من هم على صلة بالأنشطة التعليمية مـــن الطلاب و الأساتـــذة و الادارات و المؤظفين و الآباء. و هكذا يجوز أن تفسر دمقرطة التعليم بكونها عملا موجها إلى تسهيل التعلم للجميع عن طريق ازاحة العقبات المتمثلة فى المال و العمر و الوقت و الجنس و الدبلومات ، و أى نوع آخر من المشاكل التى تعترض طريق التعلم . و كثيرا ما يراد بدمقرطة التعليم التعامل الذى يلقاه الطالب فى الغرفـــة الدراســـية ، أو نوعيـــة العلاقات القائمـــة بين الأساتـــذة و الادارة ، بين الطلاب و الأدارة ، بين الاساتذة و الآباء ، أو بين الطلاب أنفسهم.

و لقد عرّف إم . أدلير (M. ADLER) (١٩٨٢م) العمل الديمقراطى هذا بانه الانفتاح المشترك على (أ) المساهمة السياسية للجميع و (ب) تعميم التعليم من مستوى مماثل ، و بدونه تتحول الديمقراطية إلى الفوضوية. و يقول ادلير : الفشل فى تنفيذ الواجب الديمقراطى ، فشل فى تنفيذ الوعـــد الديمقراطـــى . و التوصل إلى هدف مجتمع غير طبقى بمعناه العقيقى ، يكون مرهونا بتحقيق مجتمع غير طبقى تعليميا. التعليم بوابة للعدالة الاجتماعية. و المساواة الاجتماعية بمعناها الأعمق هى : أن يتهيأ لجموع السكان نفس مستوى الحياة الذى يتطلب أن يتمتع الجميع بتسهيلات تعليمية من نوعية نفسها. على هذا - كما يقول ادلير - فانه بالسرعة التى يتحرك المجتمع الديمقراطى لمعالجة ظاهرة عدم المساواة على مستوى البيوت و البيئة العامة، بنفس الدرجة من السرعة يتمكن من انجاز تفويضه : توفير فرص تعليم متكافئة للجميع.

هنا أود أن أتقدم خطوة ، و اميز بين فرصة تعتبر متكافئة بمعنى أنها مفتوحة للجميع و بين انها متكافئة لأن الجميع يقدرون على الاستفادة منها. يتولد الأطفال جميعهم مؤهلين للتثقف بشرط عدم اصابتهم بعاهة و توافر الظروف للبدء فى حينه. و جملة ما فى الأمر أن توفر تقنية مناسبة و ملائمة

Converted by Tiff Combine - unregistered

لنزعات الدارس و كوائفه. و هنا يمنح لوسائل المواصلات أن تلعب دورا في أهمية قصوى.

دمقرطة التعليم و مجموعة منتخبة من ملوحاتها:

في الفقـرات السابقـة تصدينا لمجموعـة من تعاريف ممكنـة لمصطلح "دمقرطة التعليم" . و مجموعة التعاريف هذه تتضمن عددا من الملوحات الوصفية لذلك العمل ، و هي تأتي ملخصة في النقاط آتية الذكر: ـ

أ) تعليم الكبار مائة بالمائة و بحسب المعايير العملية الدارجة.
ب) التحاق المائة بالمائة من المواطنين من مختلف مجموعات سنية إلى برامج تربوية رسمية و غير رسمية، أو الاستفادة من برامج تعليمية أخرى مفتوحة.
ج) كون مراكز التعليم ـ المدارس / الكليات ـ سهلة المنال بالنسبة للجميع و بغض النظر عن العمـر و عـن اعتبارات أخـرى دينيـة و عرقيـة و اجتماعية و اقتصادية.
د) انخفاض نسب التهرب لدرجة لا يعبأ بها.
ه) مساهمة الجميع في صنع القرارات حيال شئون متصلة ـ مثلا ـ بحاجات المركز و تقديرها، و بالمواد الدراسية و المنهاج التعليمي و التعويم.
و) استبدال " المسئولية و السلطة " بادوار نموذجية مناسبة يتم انتقاءها برعاية الاعتبارات المصلحية المعددة.
ز) ربط كيه إس ايه (KSA) مع الحاجات التنموية و مع المساعي الموجهة إلى التغلب على الطائفيـة و العرقيـة و الأوهام وغيرهـا مـن العلل و الاجتماعية.

انجازات الهند في حقل التعليم :

لم تكن النسبة المئوية لتعليم الكبار تتعدى ١٤٪ لدى الاستقلال من الحكم البريطاني عام ١٩٤٧م. و منذئذ فقد قطعت الهند أشواطا كبيرة ، و أصبحت أكبر دولة ثالثة في العالم من ناحية توافر المهرة و الفنيين، و مكانتها بين شعوب العالم الثالث ـ بدون شك ـ مكانة دولة قائدة في جميع الميادين، مع أن الانفجار السكاني يعد عقبة رئيسية في طريق التقدم في الهند، إلاّ أن نفس الطاقات البشرية الهائلة تشكل أهم و أعظم مورد ، لأن الكمية ـ في التحليل النهائي ـ وحدها تصنع النوعية و القوة ـ و يبدو أن التنافسية الشديدة في مختلف مجالات الحياة الهندية ، جعلت وجود الكفاءات العالية في شتى الحقول أمرا مضمونا رغم شيوع الفساد ومحاباة الأقرباء على جميع المستويات، و رغم كون هذه الظواهر تسببت في خلق شعور باليأس في أكثر من حالة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و لو نظرنا إلى الوضعية فى اطار الأرقام المجردة ، لوجدنا أن نسبة التعلم بين الكبار (و هى ٤٠٪) ليست متدنية . منذ عام ١٩٤٧م ارتفع عدد الطلاب ثلاثة أضعاف ، و فى الأهمية بمكان أن عدد الفنيين فى الهند قد وصل الآن ٢.٢ مليون، فيما لم يكن يتعدى عدد الطلاب الملتحقين بالمعاهد الفنية عام ١٩٤٧م، سبعة الاف . و عن عدد الكليات الهندسية و الصناعية ، فانه أيضا بلغ ٦٠٠ بالمقارنة مع ٩٢ قبل أربعين سنة من الآن . الخلاصة أن التعليم فى الهند أصبح - بمرور السنين - أكبر صناعة ترشد الطريق إلى ثورة فنية فى المعلومات.

المشاكل الدائمة :

بيد أن هذا الاتساع الهائل فى الأنشطة التعليمية لم يأت مقرونا بتغييرات اجتماعية ايجابية ، و فى الوقت نفسه تسبب تباطؤ عجلة النمو الاقتصادى فى بقاء ظاهرة عدم المساواة مستفحلة لغاية الآن ، كما استمرت الفجوات المزمنة بين انتاج نظام التعليم العالي و حاجات السوق شاسعة كحالها فى الماضى.

لقد لفت جيه . دى سيتى (١٩٨٥) الانتباه إلى تعاظم نسب التهرب فى المراحل الابتدائية (٦٠٪) ، و إلى أن هذه الظاهرة قد تسفر عن تضخم عدد الأميين بين الكبار لدرجة قد يستحيل استيعابه فى الأنظمة المتوافرة لتعليم الكبار. ذلك اضافة إلى نسبة التهرب فى المراحل الابتدائية بين الأطفال من القوميات المدرجة فى قائمة القوميات المتخلفة، تصل ٨٠٪ و ان ٤٠٪ من المدارس ليست لها آية مبانيء ، و اكثر بكثير منها لا تتمتع حتى بتسهيلات المسبورة و الماء و المراحيض. و أن فى ٣٠٪ من هذه المدارس يوجد معلم لتدريس أربعة صفوف دراسية ، و ٥٠٪ من مجموع سكان الهند، حتى الآن يعيشون حياة يسودها الفقر و الأمية و البؤس.

و على أساس ما ذكره سيتى (Sethi) فى عرضه العام تم افراز ستة مواضيع تتصل بالهيكل النظامى ، و هى : -

أ) ذوعية النظام التعليمى : نظام للغنى و اخر للفقير.

ب) اجبار الفقير على دعم الغنى فى تعليمه.

ج) ثمة أربعة أنظمة تعليمية فرعية تشمل فى طيها على ما يعرف بمتاجر تعليمية خاصة و رسومية.

د) الطبقة المتوسطة المؤلفة من الموظفين، اسوأ ضحية لذلك النظام.

ه) المجموعة المستفيدة من البرامج التعليمية المهنية - كالطب - لا يميل لخدمة الريف .

و) يوجد ثمة ١٥ مليون مثقفا عاطلين .

Converted by Tiff Combine - unregistered

الملاحظات آنفة الذكر تدل على أن الخطة التعليمية الجديدة لاتتجه إلى المشاكل الحقيقية المتمثلة فى الفقر و الميول النخبية ، و إلى مواطن النقص فى المنهاج التطبيقى شاملة محاباة الأقارب و الفساد السائد فى اجراءات القبول فى معاهد التعليم العالى. و المطلوب أن نعى أن المشاكل هى التعقيد و الضخامة بدرجة انه لا يمكن للحكومة أن تتغلب عليها بالاعتماد على أنظمتها المرنة.

الاستعمالات المعاصرة لوسائل المواصلات :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الهند استخدمت وسائل المواصلات حتى و قبل استقلالها من الحكم البريطانى . و هذا التقليد مازال مستمرا - بصفة جزئية - فى البرامج الزراعية و ما تطلبته من أعمال ميدانية مكثفة مدعومة ببرامج اذاعية . إلاّ أن اتخاذ النموذج الغربى - منذ الوهلة الأولى - للتنمية الصناعية و للزراعة العلمية المزعومة ، أسفر عن استمرار معاناة المواطن الفقير فى المدينة و القرية و بنفس القدر فى مجال التعليم. هذا ما ينطبق على تعليم الكبار أكثر من أى شىء آخر ، فان أمره بات منسيا لغاية عام ١٩٧٧م.

و بالرغم من هذا و ذاك ، ما انفكت وسائل المواصلات فى أشكال المسرحية الشعبية و الاذاعة الارشادية و البرامج التلفزيونية تستخدم فى الأنشطة التعليمية المرتبطة بالجانب العملى منذ بزوغ فجر الاستقلال . و أكثر هذه البرامج أهمية و منفعة كان تجربة " سايت " (SITE) - تجربة الارشاد من خلال التلفزيون SATELLITE INSTRUCTION TELEVISION EXPERIMENT - الأولى من طرازها ، و التى أجريت فى أوائل و منتصف السبعينات. و يمكن أن تلخص النتائج التى وصل إليها التقرير (من اعداد يونيسكو ١٩٨٣م) عن هذه التجربة، فى النقاط آتية الذكر : -

أ) وصل هذا البرامج إلى ٢.٥ مليون نسمة من مواطنى ست مناطق التجمع البشرى ، و اقتسم جهاز تلفزيون حوالى مائة مواطن.
ب) المشاهدون طالبوا ببث المزيد من برامج ارشادية.
ج) بعد مشاهدة البرامج اجتمع القرويون فى كثير من الأحيان لمناقشتها فيما بينهم.
د) غالبية المشاهدين كانت من الذكور ، و تألفت عامة من الفلاحين و العمال الزراعيين ، فيما شكل الأناث اقلية من جمهور المشاهدين .
ه) أكثر القرويين استفادة من هذه البرامج خاصة فى مجالى الصحة و الزراعة ، كان أشدهم ميلا للتجربة.
و) الاقبال على مشاهدة هذه البرامج ، كان مقصورا على مدى المام المشاهد بمضمون المادة المرسلة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

ز) خلقت هذه البرامج لدى الأطفال اهتماما بمحتويات البرامج المنشورة .
ح) هذه التجربة ساعدت أيضا فى اختلاط المشاهدين من فوميات مختلفة.
ط) نتيجة لتجربة "سايت" تقللت الهوات بين المتخلفين و المتقدمين من سكان القرى.
ي) و هذه التجربة أتاحت فرصا جديدة للمزيد من الابحاث فى مجالى العلوم الاجتماعية و وسائل المواصلات العامة.

لقد أثار المقومون و الباحثون سؤالين رئيسيين بهذا الصدد، أولهما كان على صلة بأداء المهندسين و علماء الاجتماع و خبراء الاعلام الهنود ، و ثانيهما عن مدى نجاح تجربة "سايت" فى انجاز الأهداف ، و الإجابة عليهما أتت على النحو التالى :ـ

أ) العلماء و الفنيون الهنود أثبتوا كفاءتهم فى جميع مراحل التخطيط و التجميع و التشغيل لكافة الأنواع من الأنظمة الثقيلة . و رغم بعض المشاكل و العقبات فان الاتقان كان ٩٨٪.
ب) وسائـــل الإعـــلام لعبت دورا متواضعـــا فـــى ايقاظ الوعى العـــام ، و مساهمتها فى احداث تغيير فى الاتجاهات السائدة منذ أزمنة طويلة كانت تدريجية فقط .

و على هذا يعتقد بأن تجربة " سايت " فشلت فى تحقيق هدفها الاجتماعى، و فى مرده يعاد ذلك الفشل إلى تدنى مستوى المادة المنشورة من ناحيتى التصميم و المضمون ، و إلى اساءة الادارة و إلى عدم وجود تنسيق مطلوب بين الوكالات المتعددة.

بعد انطلاقة قمرين صناعيين ـ انسات أى . ايه و انسات أى . بى ـ فى عامى ١٩٨٢ و ١٩٨٣م ، أصبحت الآمال كبيرة فى اشراك المناطق النائية فى الاستفادة من البرامج الموجهة إلى التضامن الوطنى و خلق الوعى العام حول التنمية الاجتماعية ـ الاقتصادية و السياسية ، مع التركيز على أن المساهمة العامة فى العمل التنموى ضرورة لا مناص منها.

بيد أنه بالرغم من التوسع و من التزامات الحكومة ازاء برامج انسات ، فانه لم يتيسر بعد البت فى قيمة الاحتكارات التى فرضتها الصفوة المدنية على تلك التسهيلات، و ضد محتوياتها العادية و المسلية كالأفلام السينمائية. و هكذا فانه لا توجد ثمة سياسة اعلامية واضحة تساعد فى حل الصراعات التى تكون سمة لأدوار و أهداف و سائل الإعلام العامة و استعمالاتها فى الوقت الحاضر. و أثيرت أيضا تساؤلات عن مخصصات الميزانيات العامة لمختلف مقومات القطاع الإعلامى . فى الخطة الوطنية السابعة تم ترصيد ١٥٧٠٠ مليون

Converted by Tiff Combine - unregistered

روبية هندية للانفاق على المواصلات ، إلاّ أن مجموع ما خصص (من المبالغ مؤخرة الذكر) للانفاق على أنشطة موجهة إلى ايقاظ الوعي العام على مستوى عموم البلاد، لم يتجاوز ما يعادل ١٦٩٠ مليون روبية.

و اذا أراد المرء أن يسلط الأضواء على المشكلة الكبرى التي يواجهها خبراء المواصلات في الهند، فله أن يبينها بهذه الكلمات . تم احراز تقدم هائل في تقنيات المعدات الثقيلة ، إلاّ أن هناك نقصا خطيرا في المهرة القادرين على تصميم ارسال مؤثر و ذى صلة بعمل الدمقرطة و التنمية (أى المعد الخفيف). بعبارة أخرى، وجود الوسيط في مكانه لا يأتي مقترنا بوجود الرسالة.

الدمقرطة من خلال الحملات لتعليم الكبار :

لقد ذكرنا في مكان أن الهند تسبق على غيرها من شعوب العالم النامي فيما يتعلق الأمر بالبدء في المساعي لاعداد عامة الجماهير للديمقراطية. و بالرغم منه فان تعليم الكبار تلقى اهتماما قليلا لغاية عام ١٩٧٧م. و لأول مرة حظى هذا القطاع بالأولوية في الخطط التنموية و التعليمية التي رسمت أثناء فترة حكم حزب جنتا بقيادة مورارجي ديساى في أواخر العقد السابع. في هذه الفترة شنت الحكومة برنامجا لتعليم الكبار استنادا إلى (كما ذكر بهولا ـ١٩٨٧) الافتراضات الآتية :

أ) الأمية تشكل عقبة خطرة على طريق التنمية على مستوى الفرد و الشعب بوجه سواء.
ب) التعليم عمل متواصل من المهد إلى اللحد.
ج) التعلم و العمل و الحياة مرتبط بعضها مع البعض .
د) وسائل التنمية لا تقل أهمية عن أهداف التنمية .
ه) يمكن رفع مكانة الأمي و الفقر من خلال التثقيف و الحوار و العمل.

بعد عودة حزب الكونجرس إلى الحكم اسقط بعض المخططين "البرنامج الوطني لتعليم الكبار" عن الاعتبار على قناعة بأن ذلك البرنامج لم يكن سوى حدث طارىء و قصير الأمد، أريد من خلاله تحقيق مكاسب سياسية عاجلة و بعيدة عن معنى الأمانة ، و لم يقترنه أي التزامات على مستوى الأمد البعيد.

كان البرنامج الوطني لتعليم الكبار موجها إلى تغطية مائة مليون رجلا و إمرأة في ٢٢ ولاية و تسع مناطق اتحادية (Union Territory) من عام ١٩٧٨م إلى ١٩٨٤م، و الثلث من هذا العدد كان من المتهربين. لقد وضع هذا البرنامج ليكون فيما بعد برنامجا تعليميا منوعا و شاملا سنى الحياة كلها، و ليحول المجتمع كله إلى مجتمع متعلم في نهاية المطاف. و الأهداف المنهجية تضمنت معرفة القرأة و الكتابة و الوظيفة و الالمام بالتنمية، و رسمت المناهج بطريق

Converted by Tiff Combine - unregistered

مفيد، و كانت مرنة و متنوعة ، و منتظمة بدقة . لقد أصبح البرنامج الوطنى لتعليم الكبار، برنامجا للجماهير، و من ناحية التخطيط و التنفيذ اتصف بخصائص أى برنامج منتخب، و القراءة و الكتابة الموفرتين ضمنه، ارتبطتا ـ على وجه مؤثر ـ مع التنمية الريفية المدمجة، و مع التنمية العشائرية المؤسسة على التخطيط الموجه إلى خلق فرص العمل داخل المنطقة.

إلاّ أن هذا البرنامج أيضا أصيب بمواطن ضعف، تمثل أكبرها فى عدم وضوح أهداف العملة. و بما أن المخططين أنفسهم لم يعرفوا الأهداف معرفة جلية، فان عدم الوضوح ذاته انعكس فى المناهج المرسومة أيضا. و الأمر كان أسوأ منه بالنسبة لمن تولوا العمل فى الميدان ، فانهم كانوا أقل عدة و اعدادا و غير مؤهلين لزرع تلك الأفكار فى صورة " عمـل المكالمـة " (Dialogic Action) و الجوانب الأخرى من المشكلة تمثلت فى المكافآت القليلة (٥٠ روبية شهريا) المدفوعة للمتطوعين و فى كونهم غير مدربين تدريبا واقيا و لائقا.

و بالرغم من مواطن النقص آنفة الذكر فان وسائل الارشاد كانت متنوعة ، و تضمنت الالكترونيات و المواد المطبوعة وغيرها من الوسائل الشعبية الدارجة، بجانب المواد التعليمية التى تلائمت مع حاجات الحياة الحقيقية. و هكذا فان نظام التقويم كان مثاليا و لو أن تطبيقه لم يكن كذلك بأى وجه من الوجوه .

وسائل الإعلام العامة الأخرى المستعملة فى التنمية الوطنية :

تستعمل الأفلام و المسرح و الاذاعة و الفيديو و الكمبيوترات استعمالا واسعا فى الزمن الحاضر. لقد تسبب تفشى الأمية فى شيوع استعمال الراديو و الأفلام كوسائل رئيسية للاستعلام و التسلية . و المتوقع أن تستمر الكمبيوترات و الفيديو لفترة زمنية من امتيازات الأغنياء ، و تكون بالتالى غالبة فى طريق دمقرطة التعليم. و بغرض خلق الوعي ازاء حاجات المجتمع أيضا تستخدم المسرحيات التى تقيمها الفرق على الشوارع فى مختلف انحاء البلاد استخداما بليغا و مؤثرا.

تحليل المشكلة :

يمكن أن تصنف المشاكل التى نواجهها فى استخدام وسائل المواصلات لأغراض دمقرطة التعليم فى فئتين . ـ

أ) البديهية من تلك المشاكل التى تتصل بالتكنولوجيا.

ب) و الدقيقة منها و التى هى فى طبيعتها غير تقنية.

المشاكل المتصلة بالتكنولوجيا تتضمن المشاكل القابلة للانقسام إلى البسيطة و المتشابكة، و هى :

- عدم توافر الوسائل التكنولوجية بمقادير مناسبة.

Converted by Tiff Combine - unregistered

- عدم التطابق مع الحاجات.
- اعواز المهارات لتخطيط و تصميم الرسالة
-انتقاص الأموال المخصصة للانفاق على الخطط على وجه العموم.
- تدنى مستوى التدريب على التنظيم و تعديد الشبكات و العمل الجماعي.
- اعواز المهارات المطلوبة للإدارة المتوسطة.
- المشاكل النقلية المتمثلة فى المسافات و قلة الأمـوال الموفرة للرحـلات و كون البنية الاساسية غير موافية.

و عن المشاكل غير التقنية التى تعترض الطريق المؤدى إلى هدف دمقرطة التعليم بالمعنى العقيقى ، فهى :-

أ) المشاكل الايدولوجية و الروحية .

- الحياة سائرة فى اتجاهات غير موضحة المعالم.
- التباس القيم .
- نظرة أحادية البعد تجاه الحياة (المادية)
- الايمان بالقدر و القضاء.
- كون المحسوبية عند الخالق غير واردة فى الحسابات.
- فصل العقيدة و الاتجاه و السلوك بعضها من الأخر

ب) المشاكل الاجتماعية :

- العلاقات بين الأشخاص يتعين فى ظل الاتجاهات الاستعمرية.
- النظام القائم على الطوائف القومية.
- التعصبات اللغوية و الاقليمية.
- الفساد و محاباة الأقارب.
- وقوع القيم الفاضلة موقع رفض أعمى لا لسبب سوى كونها غير منسجمة مع تقاليدنا.
- التنكر للاستمـاع للغيـر و اعـواز التدريب فـى العمل الجمـاعى و الديناميكيات الجماعية.
- شيوع الأمراض و الظروف الغير صحية.
- سرية المواد الاحصائية على المستوى الحكومى ، و من دون مبرر.

ج) المشاكل السياسية :

- الطقوس السياسية : الوصول إلى الحكم مهما تكن قيمته .
- عدم اتخاذ المبدأ / المؤهلية اساسا لتوجيه القضايا.
- استرداد الأموال التى تنفق على المعركة الانتخابية.
- الاقبال على الكلمة المنمقة اكثر منه على الخدمة العقيقة لأفراد المجتمع.

Converted by Tiff Combine - unregistered

د) المشاكل الاقتصادية :

- انخفاض انتاجية الشغيلة (بسبب النزعات و الفقر و الظروف الصعبة).
- التوفير تحت المستوى المطلوب.
- اساءة ادارة الأعمال صغيرها و متوسطها بوجه خاص.
- الآفات السماوية.
- استخدام المناهج المهجورة في الخدمات و في انتاج القطاع المصغر للأعمال .
- الاعتماد المتزايد على الآلية خاصة في قطاع الصناعة الثقيلة.

ه) الغزو الثقافي : خطة وكالات الاعلانات الدولية لنشر اعلانات مماثلة من دون رعاية الحدود الثقافية، و استخدامها لتنمية الاستهلاك المادي .

- القوى العظمى و زبائنها المحليين (الجهتان الرئيسيتان المستفيدتان من عدم استقرار الظروف السياسية و الاقتصادية و من التباس القيم الثقافية في العالم الثالث).

الاستنتاجات و الحلول المقترحة :

بالنظر في التقارير التي تتناول موضوع استخدام وسائل المواصلات لأغراض التنمية متعددة الجوانب في العالم الثالث على وجه العموم ، و في الهند على وجه الخصوص، يتبين أن هناك مبررا للافتراض بأن الأخطاء في الحسابات في مردها تعود لأسباب غير تقنية اكثر منها لأسباب تقنية . و بعبارة أخرى فان المشاكل التي تواجه الهند في هذا المجال ، ناجمة عن اسباب ايدولوجية اكثر من اسباب فنية.

في وقت توجد ثمة مشاكل تقنية ، و لها حلول تقنية ، لاتوجد ثمة مشاكل غير تقنية محضة و بحلول غير تقنية محضة. ففي مصر زمن حكم جمال عبد الناصر أزدوجت الرسالة الاشتراكية الالحادية و الثقافية السائدة، و اذاعة القاهرة تولت نشر تلك الرسالة مع الأغاني الشعبية في صوت أم كلثوم، إلاّ أن المستمع المصري الذي استمع إلى الأغاني بنشوة ، لم يكن يتردد في اغلاق الجهاز بمجرد أن بدأ في بث رسالة الحكومة. و بعكس الناصر فان غاندي و نيريري و أوكو و الخميني استخدموا - بنجاح - القنوات التقليدية مثل الاجتماعات العامة و الأسواق و المساجد لتوصيل رسالتهم الثقافية الشعبية إلى عامة الجمهور. و الخميني دمج تكنولوجيا المواصلات مع المسجد في ايران لأغراض التعليم و نشر رسالته الثقافية و الاجتماعية و التعبئة السياسية معا. (مولانا ١٩٨٦م).

Converted by Tiff Combine - unregistered

العالم كله يشهد ثورة في مجالي الثقافة و وسائل المواصلات، مما يؤدي بكل من الرأسمالية و الشيوعية تستنفدان طاقتهما. و القضايا الرئيسية التي تواجهها الشعوب، ليست فقط سياسية أو اقتصادية أو تقنية ، و انما هي جميعها مختلطة بطريق لا يمكن فصل بعضها عن الآخر. يعلق كونار ميردال على هذا الوضع و يقول : يودي أن تكون لديهم (أي لدى الرأسماليين و الشيوعيين في العالم الثالث) جرأة لنفض العقائد و النظريات عديمة الصلات، و الغير منسجمة - كليا - مع الموضوعات المطروحة في بعض الأحيان، و للانطلاق من جديد من واقع الضرورات و المشكلات و دراستها الموضوعية. هذه التوجهات ستساعد في الابتعاد، عن كل من الماركسية و النماذج المهجورة للاقتصادات الحرة الغربية.

و يقول ساتهيه (١٩٨٤م) انه ينبغي العمل على البحث عن هواء طلق و منعش في افاق الاشتراكية المؤسسة على حرية الفرد و على النماذج الجديدة للتعايش الاجتماعي. كما يتوجب أن يكون هذا النظام الجديد قائما على مبدأ المسئولية التي تجعل من الديمقراطية نبراسا لاستعمال الفائض خدمة للمجتمع لكي يتسنى بذلك الطريق تكديس ثمرات التقدم الفني و توزيعها بين الأفراد توزيعا عادلا.

من هذا المنطلق الثقافي نطرح بعض الاقتراحات أن تكون عونا على حل بعض المشاكل التقنية و غير التقنية و هي :-

١ - تدريب المعلمين و القائمين بتنمية عمل الإرشاد و علماء الاجتماع و الخبراء في المواصلات و في المواد المطروحة ، على العمل جماعيا.
٢ - الماء هؤلاء الخبراء و العلماء و توريطهم في المناقشات التي تتناول المواضيع الاقتصادية.
٣ - توعية مخططي الاقتصاد و المستثمرين و اشراكهم في الشئون و القضايا المرتبطة بخدمة المجتمع.
٤ - تدريب واضعي البرامج وغيرهم من العاملين (في المواصلات) على التفكير الابداعي و على خلق تصاميم للارسال الابداعي و اعطاء الانتاج صورة و هيئة و تعميم البيئات التعليمية المفتوحة.
٥ - تقدير الصلة بين العقيدة الصادقة (بون المعترفة باللسان) و النزعة و السلوك ، و المجسدة في الكلمات و الأعمال و المؤسسات و المنظمات.
٦ - رؤية واضحة للهدف الوطني و لهدف حياة الانسان، و رؤية للكون.
٧ - إقامة أنظمة للكوابح و الموازين ، و تطبيقها على القائمين بالعمل السياسي جميعهم . (ليس هناك أحد فوق القانون و المبادىء الخلقية).
٨ - احترام عقائد الجميع.
٩ - استغلال الموارد العامة خدمة للفقراء و المحتاجين، و ليس للأغنياء على حساب الفقراء.

تعريب : راشد علي

Converted by Tiff Combine - unregistered

التنعّم فى الشقاوة و الانحلال

بقلم : البروفيسور نثاراحمد الفاروقي
رئيس قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة دهلى

قبل أن نستعرض أوضاع مجتمع يجب علينا أن نعلم أن تقدم الشعوب و انحطاطها شئ طبيعي ، و أن الانحطاط يعقب التقدم كما أن الانحطاط يتمخض عن التقدم و الازدهار ، و أن أي شعب من الشعوب لا يأخذ طريقه إلى الانحطاط و الزوال دون عوامل و أسباب. و من أكبر عوامل الانحطاط هو التعامى عن محاسبة الذات و نقدها. إن شخصا أو مجتمعا يعمى عن سيئاته يتعذر إصلاحه، لأنه إذا لم توجد فيه محاسبة الذات فلاتوجد فيها العقلانية أيضا. إن كل قضية تحمل عدة جوانب ، و كل من يريد أن يتبنى وجهة نظر عادلة فعليه أن يقلب الأمر على جوانبها. و الإنسان يفكر أولا و يثنيّه بعمله ، فمن اللازم أن يقوم بإصلاح فكره قبل إصلاح أعماله. و الإنسان حينما يطرح العقل جانبا فتتحكم عليه العواطف، و المُخّ مصدر العواطف، فيترك المخ التفكير على خطوط سليمة صحيحة. و من البهالة البهلاء أن نأمل أن الدنيا تسير كما نريدها أن تسير. و العقل يحدث الاتزان فى حياة الإنسان ، أما العواطف المفرطة فتخل بميزان الحياة.

و العواطف تلد عصبيات عرقيـة و دينيـة و لغويـة و إقليميـة، و العصبية تعمى قلوبنا، و تحملنا على الظلم و الإجحاف و الخيانة، و الخيانة تحرم الناس من حقوقهم ، و بالتالى يحدث القلق و التذمر فى أفراد المجتمع ، و التذمر يحثهم على مواجهة التحديات . إن الإنسان حيوان اجتماعي ، يتعذب بالعزلة و الوحدة، و يحب أن يعيش بين أبناء جنسه، و قد خلق الله سبحانه و تعالى المجتمع البشرى بحيث أنه جعل الإنسان دواء لأخيه الإنسان، و جعل أمور الناس متشابكة و مرتبطة إحداها بالأخرى. فانا أخذ طبقة من المجتمع يشعر أنه حرم من حقوق يتمتع بها الآخرون فتنمو فيها قوة مقاومة الظلم و الخيانة ، و يؤدى ذلك فى نهاية المطاف إلى تبديد استقرار المجتمع و هدوئها. إن الطبقة التى تحكم على البلاد تسيطر على مصادر الانتاج فيها،

Converted by Tiff Combine - unregistered

و تزيد الانتفاع بمواردها الاقتصادية أكثر فأكثر دون غيرها. فلايصير إلى أيدى عامة الناس إلاّ قدر ما يجب لبقاء مصالح الطبقة الحاكمة، و هكذا يجرى تقسيم الأموال بصورة غير عادلة ، و يتولد التذمر و القلق فى الطبقات المتخلفة. و لكن إذا قسمت الأموال بصورة عادلة مشروعة فحينئذ لا يوجد الاستغلال ، و تشعر كل طبقة على أنها على قدم سواء مع الطبقات الأخرى ، و يسود الرفة و الرخاء فى المجتمع . و ينبغى أن لاننسى أن الشعور المتزايد بحقوقنا يؤدى إلى إجحاف حقوق الآخرين.

و الطبقة التى تستغل مصادر الانتاج ، و تنتفع بها دون سائر الناس ، تسعى إلى أن تشغل الجماهير فى قضايا تافهة غير مهمة ، إذا أمعنا فيها النظر أو استعرضناها استعراضا محايدا فلا تبدو تلك القضايا قضايا وطنية البته . و هكذا يسقط الأبرياء السذج ضحايا اضطرابات طائفية ، و ينهالكون فيما بينهم ، و تسنح للطبقات المستغلة فرص لتكديس الأموال و جمعها. هناك طرق عديدة لإبعاد الناس من المنافع الحاصلة من السلطة و الحكومة ، و إلهاءهم عن الحقائق . و أنجع هذه الطرق و أكثرها تاثيرا هو استغلال الدين. و من ميزة الدين أنه إذا لم يطلع الإنسان على روحه و فلسفته و نظريته عن الحياة و الكون، فإنه يوصله إلى عالم خيالي لايمت إلى حقائق الحياة الحية بصلة ما، و يجلس المرء ، مغمض العينين، فى أي مكان شاء، و يستغرق فى الخيال، و يظن أنه يستفيد من هذا المكان نفسه.

إن نفع الدين الأصيل هو أنه ينقى باطن الانسان ، و يطهر المجتمع من الفساد و المساوئ الخلقية ، و يخلق التسامح و الحب و الصداقة و المواساة بين الناس ، و لكن معرفة ناقصة عن الدين تولد التوهم ، و يأخذ الإنسان يظن أن الأشجار و الأحجار والحيوانات و الكواكب كلها تعلم ماضيه و حاله و مستقبله، و هو بوحده لا يعلم شيئا بين سائر موجودات الكون ، مع أننا نرى أن الإنسان هو أعظم المخلوقات بأسرها قدرة و قوة و أكثرها علما و معرفة ، و هو بالرغم من ذلك يعتبر نفسه عاجزا غير قادر على شئ . و قد يذهب به التوهم لحد أنه يذبح بيديه حتى فلذة كبده لأغراض تافهة، و لايهمه تحليل الحقائق مثلما تعجبه التنبؤات. إن التوهم و العقيدة الواهنة و الهيام بعالم خيالي يسفر عن الكسل و فقدان الفعالية بصورة لازمة، و بالتالى يفقد الإنسان الثقة على مؤهلاته و فكره و عزائمه . و قد قال علي رضى الله عنه : " عرفت ربّى بفسخ العزائم " و ذلك يعنى أن عزيمة الإنسان قوة عظيمة لا يستطيع أن يفسخها إلاّ شئ مافوق الطبيعية. كذلك يدلنا التاريخ على أنه حينما يشيع تفسير خاطئ للدين، فانه يتدخل فى العلوم، كما نرى فى القرون المظلمة فى أوروبا، حيث كانت الكنائس تنزل عقوبات صارمة على اللذين كانوا يميطون اللثام عن اكتشافات علمية. إن كبت البحث العلمي و الأفكار الحرة في مجتمع إلى مدة أيضا يؤدى إلى الانحطاط. و المجتمع التقدمي

Converted by Tiff Combine - unregistered

لا يكبت الأفكار الجديدة ، و إن كانت ضربتها على التفكير التقليدي ضربة قاضية. و ينبغي أن يكون الدين ينبوعا للقوة الروحية، لا باعثا على الفوضى و الكراهية و العداوة و الفساد في المجتمع. إن هذا الاستغلال المهيب للدين يرقى إلى إهانة التعاليم الأساسية للديانات و مؤسسيها و كتبها المقدسة. أي كتاب مقدس لدين من الأديان يقول إن السرقة فعال حسن ، أو أن الكاذب يثاب على كذبته ، أو يحل قتل الأبرياء ، أو أن من أطعم جائعا فقد اثم. و المجتمع الذي يعيش فيه أتباع ديانات مختلفة يجب على أبنائها أن يطلعوا على المعتقدات الأخرى و يتعرفوا على نقاط مشتركة فيما بينها، و يسعوا لترويج نظرية عالمية للدين. و من لا يعلم إلاّ دينه كأنه لا يعلم دينه نفسه.

و اتخاذ العدوان وسيلة للنهضة الحضارية أيضا سبب من أسباب الانحطاط. إن العدوان الحضاري لا يوجد مجتمعا صالحا بل بالعكس من ذلك إن مجتمعا متحضرا توفر فرص النمو و الازدهار لحضارات متنوعة مختلفة إزدهارا طبيعيا حراً. و الطبقة النفعية قد تجنّ الشعب بإيقاعهم في حب الحضارة، إن الحضارة لا توجد بقرار يتبناه مؤتمر أو باجتماعات تعقدها أكاديمية علمية ، و لكنها حرة كالهواء و جارية كالشلال ، و نواميس الطبيعة هي التي تبرزها إلى الوجود ، و لذلك أخفقت مجهودات تكوين حضارة مصطنعة في كل عصر. إن الحضارة إنما تتولد من الرياطة الاجتماعية الممتدة عبر القرون ، و المساوئ الصغيرة لمجتمع مشرف على الزوال تجوّف أولا جسم تلك الحضارة، و بعد فترة تفيض روحها أيضا، حتى تصبح أخيرا جزءا من التاريخ تعتبر بها الأجيال القادمة، و دولة الروم العظيمة مثال لذلك. و قد تولدت حتى الآن ثمان و عشرون حضارة على هذه المعمورة ، و كانت لكل منها دولة و صولة في الزمن الذي وجدت فيه ، و لكن ثماني عشرة حضارة منها ـ فيما قال المؤرخ الفلسفي توين بي ـ قد اندثرت اندثارا تاما ، و تسع حضارات آخذة في الاندثار ، و لم تبق حتى الآن إلاّ الحضارة الصناعية ، و لكن هذه الأخيرة أيضا تصنع أسلحة فتاكة يمكن أن تقضي على حياتها ، و قد أن أنه لو بقي الإنسان لحرب كونية رابعة على هذه المعمورة فانه يحارب بالطين و الحجر. إن التوتر و الاستغلال الاقتصادي اللذين يتراءى لنا في العصر الراهن هو نوع من أنواع قانون الغابة ، حيث تفترس السباع القوية حيوانات صغيرة لا قبل لها بها. و إذا لم يستطع الإنسان التخلص من هذا القانون بعد، فكيف يجمل به أن يزعم ازدهار الحضارة.

ثم ما هي معايير العزة و الإجلال و التقدير في مجتمع متحضر؟ و لو كان الإنسان حيوانا كاسبا فحسب ، فإذن ماهو الفارق بينه و بين حمولات الدواب . إننا ما تعلمنا حتى الآن كيف ينبغي أن نقدر العلم و الفن، كما لايوجد لدينا تصور واضح عن القيم العليا. و كذلك ما عرفنا تعريفات صحيحة للخير و الشر و المعروف و المنكر و الصلاح و الفساد ، فكيف

Converted by Tiff Combine - unregistered

يمكننا أن نصف المعلومات التى نلتقطها من هذا المنهج التعليمي الناقص بصفة العلم. إن النار تحرق كل ما تصيبه ، ولكن الشئ الذى لا يحرق فكيف يرضى أحد منا أن يقوله ناراً .

إن غاية العلم هى أنه يعرفنا بالحقيقة، فإذا كنا غافلين عنها، فمن دعانا علماء كانه أهان العلم نفسه. إن التعليم المصطنع الناقص يحدث الفوضى فى تفكيرنا ، و يعوّدنا على تحليل و تفسير الحقائق تفسيرا خاطئا ، و يدفعنا إلى انتهاك القيم العالمية، و يحول دون نشوء وعي سليم صالح عـن المجتمـع و التاريخ . و ذلك لأننا قد فصلنا التربية عن التعليم ، و ليست الأخلاق جزءا من مناهجنا الدراسية. و لو كانت الأخلاق جزءا من مناهجنا لنشأ فينا تصور للعظمة الإنسانية إلى حدما. إن الإنسان هو الأذل و الأقل اعتبارا فى هذا المجتمع ، و بخاصة فى ذلك المجتمع الذى يتخلف من المجتمعات الأخرى فى سباق الحضارة الصناعية.

و لكن المأساة الكبرى هى أن المجتمـع الذى هبـط فـى هوة الطمـع و الحرص و أصبح فريسـة للاستغـلال بحـب أسباب الانحطاط ، فمثلا إذا لم يستطع مجتمع من المجتمعات أن يتقدم فكريا لأنه كان يعبد مؤتاه، و كان يحبهم أكثر من الأحياء ، فلا تستطيع أن تجرأ على إبداء رأيك فيـه ، و إنه لايلبث أن يتهمك بإهانة الأسلاف و التقليل من شأن الآباء . إن الإنسان يولع بأسباب الإنحطاط ، لأنه لايتعود على محاسبة ذاته ، و يحسب نقد الناصحين له سما قاتلا ، و يستلذ الإنحطاط . كما أن المتعاطى للأفيون يضع جزءا من الأفيون فى فيه، و ينعس، و يظن أنه يجوب السموات العلى. هل يمكن أن يتخلص مجتمعنا من هذه الكارثة ؟

Converted by Tiff Combine - unregistered

حمى الدقّ
في ضوء الطب الإسلامي (اليوناني)

بقلم : الدكتور ضياء الدين أحمد الندوي

إن مرض حمى الدق الذي يوجد في سائر العالم، و في الدول المتخلفة بصفة خاصة ،ليس من صنائع الطب الحديث ، بل الطب الإسلامي و الأطباء الكبار القدامى من أمثال الطبري و بوعلي سينا و أبوسهل المسيحي وغيرهم تناولوه بشرح و بيان في كتبهم و تصانيفهم ، و بينوا ما له من خطورة و ما هي الأسباب التي تؤدي إليه و ما هو الطريق الأمثل لعلاجه.

ينشأ هذا المرض من "مادة السل" (MICOBACTERIUM TUBERCULI) و من خصائص هذا المرض أنه يؤثر في القلب وغيره من الأعضاء الرئيسية و يبدأ بتحليل الرطوبات. يقال لهذا المرض " حمى الدق " ، و معنى الدق لغة " الدقة و الهزال " ، و سمّي الدق لأنه يهزل بدن الإنسان. و يقال له باللغة الإنجليزية (Hectic Fever) ، و أصل ذلك الكلمة اليونانية (HEKTIKOS) و هي تعني " المعتاد و المألوف " لأن الحمى تتعود على الإتيان مرة بعد أخرى.

عرف هذا المرض في الطب الإسلامي منذ قديم ، ففي تصانيف الأطباء القدامى و الأطباء المسلمين من أمثال بقراط و جالينوس و ريطاوس و الطبري و الرازي و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي و علي بن عباس المجوسي ، يوجد تعليمات مفصلة عن هذا المرض. و لكن الجرثومة الخاصة التي هي سبب هذا المرض كشفها للمرة الأولى الطبيب الشهير الألماني روبرت كوخ (ROBERT KOCH) عام ١٨٨٢م ، أما بعض الأطباء القدامى من أمثال الطبري و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي فجعلوا سبب هذا المرض "مادة السل" (التي تتولد بسبب دخول بعض الجراثيم في البدن). و أما نظرية تعدي هذا المرض فهي من اكتشافات أطباء العرب، و دليل ذلك أن مهرة علم التشريح "ماركينكي" و "ولسلوا" كانوا يحذرون من تشريح الأجسام الميتة حتى القرن السادس المسيحي مخافة ألا يصيبهم المرض عينه ، و من ثم كانوا يحرقون

Converted by Tiff Combine - unregistered

فراش المصابين بالسل و ثيابهم و ملابسهم كلها بعد موتهم.

إن الجسم البشرى يتألف من ثلاثة أشياء : "الجامد" كأعضاء البدن، و " المادة السائلة " كالرطوبات ، و "المواد الهوائية " كالروح. كما قال بقراط :

"إن البدن الإنسانى هو مركب من الأشياء الجامدة و السائلة و الأرواح ".

و قال أبو سهل أستاذ أبي سينا مثل ذلك:

"جملة البدن تشتمل على ثلاثة أصناف من الأجسام :

أحدها : الأجسام التى لها فى أنفسها تماسك و صلابة ، و لاتحتاج إلى الانحصار فى الأوعية بحيث تمنعها من السيلان، و هذه هى الأعضاء ".

و ثانيها : أجسام رطبة سيالة محصورة فى أوعية تمنعها من السيلان ، و هى أخلاط.

و ثالثها : أجسام رقيقة بخارية محصورة فى أوعية صفيقة تمنعها عن التحلل سريعا، و هذه هى الأرواح".

و الطب الحديث أيضا يوافق على هذه النظرية أنه توجد فى البدن ثلاثة أشياء : الجامد (SOLIDS) و السيال (LIQUIDS) و الروح (GASES) .

ثم قسمت الأجسام الرطبة إلى ثلاثة أقسام كما ذكر ذلك أبو سهل المسيحي فى كتابه.

. و رطوبات البدن ثلاثة :

أحدها : الرطوبة الاسطقسية التى بها اتصال أجزاء الأعضاء بعضها ببعض ، و هى التى متى فنيت تناثرت الأعضاء.

و الثانى : الرطوبة التى فى العروق.

و الثالث : الرطوبة التى فى التجاويف الخالية بين الأعضاء ".

و الطب الحديث أيضا يؤيد هذه النظرية فيقول إنه يوجد فى البدن ثلاثة أنواع من الرطوبات (Intercellular, Extra cellular, Intra cellular) .

و إنما تصيب الحمى إذا تولدت الحرارة الغريبة في البدن التى تؤثر فى أحد الأجسام الثلاثة (الأعضاء و الأخلاط و الأرواح). ثم إن أثرت هذه الحرارة الغريبة فى الأرواح فتصيب "الحمى اليومية" و إن أثرت فى الأخلاط فتصيب " الحمى الغلطية " ، و إذا أثرت فى الأعضاء فتصيب "حمى الدق". كما كتب أبو سهل :

"الحمى حرارة خارجة عن الطبع ، فهي تكون فى موضوع لا محالة و ليس فى البدن جسم هو جزء من الأجزاء غير الأعضاء و الأخلاط و الأرواح.

فمتى كانت فى الأرواح كانت حمى يوم ، و متى كانت فى الأخلاط كانت حمى العفونة ، و متى كانت فى الأعضاء وجدت حمى الدق"

و كذلك قسم ابن سينا و الطبرى الحمى إلى هذه الأقسام الأساسية.

و ذكر الأطباء المسلمون سببين لهذا المرض:

الأسباب المهيئة للمرض (Pre - disposing Causes)

Converted by Tiff Combine - unregistered

و الأسباب الخارجية (External Causes).

إن الأسباب المهيئة هي التي بوجودها يتم الاستعداد لقبول مرض السل كالعمر و الجنس و الوراثة و المهنة و السكنى و شمّ الغاز السامة. هذا ، و من الممكن أن تكون بعض الأمراض الأخرى أيضا سبب هذا المرض من مرض الالتهاب الشعبي الرئوي (BRONCHO PNEUMONIA) و الشهقة أو السعال الديكي (HOOPING COUGH) و النزلـــة الوافـــدة (INFLUENZA) و ديابيـــط أو البول السكرى (DIABETES) و ما إلى ذلك.

و الأسباب الخارجية هي التي تؤثر من الخارج كالحزن و الوهم و الغضب و التعب و الأرق المفرط و الجماع المفرط و الغذاء غير المتوازن و البيئة القذرة و البيوت الضيقة و تعاطي الخمر و التدخين و ماإلى ذلك .

إن هذه الأسباب المهيئة و الخارجية تضعف قوة مدافعة الإنسان فتنشأ الاستعداد لقبول الأسباب الواصلة (EXCITING CAUSES) أي الجراثيم في البدن. و هذا النوع من الأجسام عنـد الاتصـال بالمصـاب بالسل ، إنسانا كان أو حيوانا ، يقبل هذا المرض بكل سهولة ، و عامة تكون عملية التعدي هذه بواسطة التنفس أو بالأكل و الشرب حيث تدخل الجراثيم في البدن، و في الرئة على وجه التحديد، للوهلة الأولى ، ثم تولد مادة السل . و هذه المادة بعد تحللها في الدم تصل إلى القلب ، و يأخذ القلب يتحرق و يولد الحرارة الغريبة ، و تسري هذه الحرارة إلى سائر أعضاء البدن بواسطة جريان الدم ، و تبدأ تؤثر في الرطوبات البدنية.

و قسم الأطباء المسلمون هذا المرض إلى ثلاث درجات و الطب الحديث أيضا يؤيد هذا التقسيم.

درجات المرض :

في البداية يترأى المرض كئيبا بائسا حزينا، و يحس بالوجع بعد الأكل في الصدر و فوق عظم الترقوة و تحته ، كما يشعر الألم في جنبيه إلى الظهر ، و يشتد الوجع عندما يسعل ، و أحيانا يقيئ بعد تناول الطعام ، كما يشكو سوء الهضم . و يكره المريض الأغذية الدسمة و تصبح حركة قلبه و نبضه سريعة ، و كذلك حركة التنفس أيضا تكون سريعة إلى حدما، و يجد صعوبة في التنفس عند العمل الشاق ، و المريض يهزل و يضعف يوما فيوما ، و في المساء تزداد الحرارة عامة.

و في الدرجة الثانية من المرض يقل جسوع المريض ، و يتحـرق القـدم و الكف ، و يشتد السعال و يخرج البلغم الذي يكون مزيجا بالقيح، و يجد صعوبة في التنفس ، و لايزال الضعف و الهزال يزدادان على مرّ الأيام ، و كذلك حركة النبض أيضا تستمر في إزدياد، و تركبه الحمى ليلا و نهاراً.

و في الدرجة الثالثة من المرض تكون هذه الامارات شديدة وتكون آثارها

Converted by Tiff Combine - unregistered

أوضح فى الرئتين ، و يشتد السعال صباحا ، و يخرج البلغم أكثر بزيادة من الصبح ، و كذلك يسيل العرق كثيرا فى الصباح ، و يكثر الهزال ، و تسقط الأشعار ، و تبيض الأظفار و تصير مدورة ، و تبدو آثار فى الصدر و الظهر ، و قلما يحس المريض بالجوع ، و لايزال المريض يعاني من القيئ و الإسهال ، و يهزل هزالا شديدا ، و تتورم اليدان و الرجلان حتى تكون مصيره الموت.

الإجراءات الوقائية :

إن الجسم البشري لا يتأثر بالجراثيم أو الأسباب الواصلة (Exciting Causes) إلا إذا ضعفت فيه قوة الدفاع ، فمن الواجب الاحتياط فى كل ما يؤدى إلى ضعف البدن الإنساني ، و تنشأ فيه الاستعداد لقبول المرض كالأمكنة القذرة و السكنى فى البيوت التى لاتصل إليها الهواء و النور و استعمال الغذاء الناقص و تعاطي الخمر و استعمال المسكرات و الإفراط فى الجماع و التورط فى العادات القبيحة و استعمال اللحم الناقص الطبخ و تناول الطعام دون غسل الأيدى ، و لذلك نجد فى الإسلام تعليمات تهدف إلى حفظ البدن الإنساني من سائر الأمراض الخبيثة ، فقال النبى الكريم صلى الله عليه وسلم : " لا يغمسن أحدكم يده فى إناء حتى يغسل يده ثلاثا " و قال فى حديث آخر : "كل مسكر حرام " و ما إلى ذلك.

طريقة العلاج :

لابد من مراعاة البرودة و الرطوبة فى الطعام و الحياة و الأدوية ، فالواجب أن يعطى هذا النوع من المرضى الأغذية اللطيفة كماء الشعير و خبز الحنطة الموضوعة فى الماء البارد و لحم الغنم و فراخ الدجاجة و الفضراوات اللطيفة. و تعد هذه الأغذية من أحسن الأغذية للمصابين بمرض السل. و كذلك يحسن أن يأكل المريض البيض و الحلاوى ، و لكن من الواجب أن لا يأكل أكثر من شهيته. و من الأحسن أن يفمر غرفة المريض العطر و الرائحة الطيبة. و كذلك يجب أن ينظف المكان باهتمام ، كما يجب إزالة الهموم و الأحزان من ذهن المريض. و بصدد العلاج يجب إزالة أسباب المرض قبل كل شئ، و فيما يلي الأدوية التى تستعمل فى علاج حمى الدق بصفة خاصة.

الإسم العام	الإسم العربى / الإسم النباتى
طباشير	طباشير (من قصب الهند) Bambusa bambos Druce
كل ارمني	الجذع الأرمني، طين أرمني Armenian Bole

Converted by Tiff Combine - unregistered

ثقافة الهند	
ريشه برگد	التين البنغالي، لعبة ذات الذوائب Ficus bengalensis Linn
بادام	اللوز Prunus amygdalus Batsch
كدو	اليقطين ، القرع Lagenaria siceraria Standle
كاهو	الخس Lactuca sativa Linn
بارتنك	لسان الحمل Plantago major Linn
خشخاش	خشخاش Papaver somniferum Linn
كافور	كافور (مادة عطرية) Cinnamomum camphora Nees
زهر مهرة	سليكات المغنسيوم Silicate of magnesia & Iron
حب الاس	حلموش ـ آس Myrtus communis Linn
مرواريد	لؤلؤة Pearl
ياقوت أحمر	ياقوت احمر Puly
تخم الحي	بذر الكتان Linum usitatissimum Linn
اسپغول	بذر قطونا Plantago ovata Forsk
گل سرخ	الزهرة الحمراء ، الوردة Rosa damascena Mill
خرفه	الرجلة ، بقلة الحمقاء Portulaca oleracea Linn
زعفران	زعفران Crocus sativus Linn
گلنار	زهرة الرمانة ، جلنار Punica granatum Linn

Converted by Tiff Combine - unregistered

املتاس	خيارشنبر ، الأبنوس الكاذب Cassia fistula Linn
كتيرا	كثيرا Astragalus gummifera Linn
انجبار	انجبار Polygonum viviparum Linn
صندل سفيد	صندل أبيض Santalum album Linn
ملهتى	اصل السوس Glycyrrhiza glabra Linn
بهيدانه	السفرجل Cydonia oblonga Mill
كل نيلوفر	اللوتس Nymphaea alba Linn

المراجع:

١ - ابوعلي ابن سينا . القانون في الطب (ترجمة أردية) الجزء الأول ، الطبعة الاولى ، مكتبة نامى ، منشى نول كشور ، لكناؤ عام ١٩٢٩م .

٢ - على ابن العباس مجوسي . كامل الصناعة (ترجمة أردية) ، الجزء الثانى ، مكتبة نامى ، منشى نول كشور ، لكناؤ ، عام ١٨٨٩م.

٣ - أبو سهل مسيحي (كتاب المائة) . كتاب الأخلاط ، نقلا عن الحكيم كبير الدين مجلة المسيح طبع دهلى ، عام ١٩٤٦.

٤ - جون تيشار (أنيس المشرحين) كتاب الأخلاط ، نقلا عن الحكيم كبير الدين مجلة المسيح ، طبع دهلى ، عام ١٩٤٦م.

٥ - غلام جيلانى . مخزن المكمة ، الجزء الأول ، طبى كتب خانه ، يهاتى گيت ، لاهور عام ١٩٤٤م

٦ - منير البعلبكى المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، عام ١٩٧٧م

Converted by Tiff Combine - unregistered

شاه عبد اللطيف

و

الثقافة المركبة من عناصر مختلفة فى الهند

بقلم : ك. ك. كوللر

كان من عام ١٧٥٢، الشهر الذى تنذب فيه الكراكى و العشاق يتلوهون، شهر مايو، شهر العاصفة الهوجاء و الهواء السموم فى السند. مرتديا عباءة طويلة سوداء و عمامة بيضاء، كان درويش مع عصاً فى يده يمشي عبر الصحراء. فأوقفه جمّال فجاة عند وانج ويلا سور (WANG WILLA SUR) قرب كوتش.

"أين تذهب فى هذه الصحراء، أيها الشاه الكبير؟ إن مريدك المتواضع يحييك" "إلى كربلا" أجابه الشيخ. "قلبى يحن إلى كربلاء يا بني". "لكن يا أبى المؤقر، كنت تقول دائما إنك سوف تدفن فى بهيت (BHIT) فى السند. فلماذا غيرت رأيك، و لماذا تغادر وطنك فى نهايـــة سفـرك؟" سأله الجمّال و أخذ سبيله.

متأثراً تأثراً عميقاً بكلمات الشاب، رجع الشيخ إلى بهيت و مات بعد بضعة أيام.

كان هذا الشاه عبد اللطيف، مبدع " الرسالة " الخالدة، الشاعر الذى بلغ إلى مكانة حافظ و الرومى و السعدى فى الفارسية، و فريد و وارث شاه بالبنجابيـة، إنـه فعـل نفس ما فعلـه تشوسر (CHAUCER) للإنجليزيـة و الشيخ فريد للبنجابية. فجعل الشعر سنديا و السندية شعرا.

تكشف دراسة نقدية تحليلية دقيقة لتـاريخ الهنـد الحاضـرة و عبر العصور الممتدة إلى أكثر من ألفين سنة أن بعد كل ثلاث مئة سنة إجتاحت الهند حركة أزالت كل حواجز الطائفية، و اللون و العقيدة و تحولت تدريجيا إلى حركة دينية، و فى نهاية المطاف أسفرت عن نتائج سياسية غنية.

Converted by Tiff Combine - unregistered

فعندما قامت البوذية على رماد البرهمية في القرن السادس ق. م. ظن الناس أن البرهمية إندثرت للأبد. و لكن لم يحدث هذا فقد تعرّضت البوذية بعد ثلاث مئة سنة للتغيير في عهد أشوكا حتى اتّسعت للفاضلين. و خلال القرن الأول الميلادي حدث إنقسام في صفوف البوذية في شكل " هنيانا " (HINYANA) و " مهـــايانا " (MAHAYANA) و شوهدت ثورة دينية في عهد " هرشا " (HARSHA) لا في الهند فحسب و إنما في العالم كله. و قد برز الإسلام كقوة دينية جديدة ليغير مصير عدد من البلاد. فعند ما دخل الهند، أنشأ حركات جديدة مثل التصوف و الطرق الأخرى على يد نظام الدين أولياء و أمير خسرو، و بعد ثلاث مئة سنة بالضبط نجد بروز حركة بهكتي (BHAKTI) و تبعتها بعد ذلك بثلاث مئة سنة حركات دينية جديدة في القرن التاسع عشر مثل برهمو سماج و آريا سمـــاج و جمعية ثيوسوفية وغيرها. إن دراسة حركة بهكتي على طول الزمن ليست طريقة فقط و إنما هامة تاريخيا و مفيدة إجتماعيا و ممتازة إقتصاديا أيضا، كانت بعض الحركات منها بسيطة و الأخرى معقدة، و لكن الجوهر الذي تملكه هو هو. و لم تهدد حركة وحدة الهند. بل أغنت كل حركة بطريقتها الخاصة الثقافة المركبة من العناصر المختلفة في شبه القارة الهندية. و من جهة منظور تاريخي أوسع، كان شاه عبد اللطيف جزءا لهذه الحركة و أغناها بصورة ملموسة جدا كما استفاد منها.

أحدثت حركة بهكتي تاثيرات إجتماعية و سيكولوجية هائلة، و خلقت شعورا من الوحدة و التضامن بين أهل الهند الذين اعتبروا كل فاتح أجنبي عدوا مشتركا لهم. و من الطريف العلم بكيفية إندماج الغزاة واحدا بعد آخر في الثقافة المزيجة الهندية. فكان هنا مشهد تاريخي، يمكن مقارنته بمشهد قطار مزدحم متحرك إلى الأمام فقد حاول فيه مسافرون جدد الدخول فيه في كل محطة، و المسافرون القدامى الجالسون فيه أبدوا كل المقاومة المتوفرة لديهم. إنني أدعو دائما هذا القطار قطارا ثقافيا هنديا متحركا على الدوام رغم المقاومة. و كما يحدث دائما قد انقلب غزاة المحطة السابقة إلى المقاومين في كل محطة تالية، و حاول المسافرون الغزاة الدخول فيه بكل مالديهم من الوسائل، منها بوسائل العنف أو بأية وسيلة أخرى. و الراكبون القدماء في القطار و منهم المسافرون الغزاة الراكبون في المحطة السابقة، إتحدوا ليقاوموا الغازي الجديد بكل قواهم. مما ترتب على ذلك أن عنـــد كل محطـــة قد تم إدخال بعض الغزاة في القطار الثقافي الهندي الواسع و هو يتحرك إلى الأمام. هذه العملية جارية منذ أيام الآريين، إن قائمة الغزاة في الهند طويلة جدا. فعندنا الفرس، و الإغريق، و الايكترانيون، و البـــارسيـــون، و الهون، واليوك. و الساكيون، و العرب، و الأفغان، و الأتراك، و تتجلى هذه الروح من التركيب و الإندماج أيضا في أساطير الحب في البنجاب فمنها على سبيل

Converted by Tiff Combine - unregistered

المثال فى قصص سوهنى و مهيوال، و ساسى و بونو، و سيهاتى و مراد، و ميرزا صاحبان و هير و رانجها. و يتحدث وارث شاه الذى ألف قصة هير (HEER) فى القرن الثامن عشر، عن الأعياد المشتركة و تقاليد الهندوس و المسلمين. كان رانجها (RANJHA) المسلم، يلبس ملابس زعفرانية اللون المختصة بالدراويش الهنود و يعلق حلقات كبيرة فى آذانه و يلوّث جسمه بالرماد و يعزف المزمار، و هى آلة موسيقية محبوبة لدى الإله كريشنا. كما يذكر رانجها زواج مهاديو مع باربتى، و يتحدث عن بيراكيين و أوداسيين و رامانديين و العديد من الطوائف الهندوسية. كما اشترك أيضا فى مهرجان السند قرب جهيلم، و كانت له مهارة تامة فى أكثر من ١٦ من الألحان الكلاسيكية الهندوسية و عندما لدغ هير " شعبان، نالت الشفاء بإستخدام أدوية أيورويدية، إنها كانت تضع الزنجفر فى شعرها، و كانت مهرها مهرا هندوسيا تقريبا مما يعرض فى بيت الحماة و كان رانجها مولعا بالمذر الذى يستعمل فى الرياضيات الهندوسية فقط، و مع ذلك يتحدث عن الصوفية المسلمين و يرى وارث شاه أنه لا فرق بين الدرويش الهندوسى و الصوفى المسلم حيث أن كلا منهما يعتقدان بأن الله موجود فى داخل الإنسان، و بأن العبادة ليست إلاّ سلّما للبلوغ إلى مكان الخلاص. توجد تقاليد الدراويش المسلمين فى كشمير حتى الآن كما يوجد مسلمون (يحترمون شيفا فى ذلك الوادى) و قد أبقى السنديون فى باكستان تقاليدهم الهندوسية، فتضع نساءهم الزنجفر فى شعرهن، و هناك أسماء هندوسية للشيوخ و هكذا أسماء إسلامية لكهنة الهندوس. كان تصوف شاه عبداللطيف أكبر جسر بين الهندوس و المسلمين إنه كان ضد الطقوس الدينية و زيف الكهنة و نفاق المتعصبين و أشار إلى نهر الجنج كنهر الهند، النهر الذى اجتذب إليه الأريون بمجرد النظرة الأولى إليه، النهر الذى تتطهر الروح بالإستحمام فيه، أنظر إلى بيت شعر من أنشودة رامكالى حيث يقول الشاه للدرويش ناث:

" إغتنم فرصة صحبتهم
كن معهم و زد تجربتك
إنهم قريبا ينطلقون إلى سفر طويل
تاركين هذا العالم البهيج للجنج المقدس.

يتحدث الشاه عن " سادهنا " (SADHANA) و يتحدث عن " ستنام " (SAT-NAM) فيقول :

تأمل فى هذا العالم. إنه يشفيك من كل بؤس.
إحتفظ " بالميم " فى ذهنك وضع " الألف " قبل ذلك.

قال السوامى رام تيراث نفس الشىء بعد ذلك بمئتين سنة . كانت

Converted by Tiff Combine - unregistered

ولادة الشاه عبد اللطيف فى ١٦٨٩ بقرية بهارقور بمقاطعـــة هالا، فى حيـــدر آباد (السند) فى عهد أورنجزيب. إن وادى السند لكون أرضها خصبة و مناظرهـــا خلابـــة تنتـــج الذهـــب منذ عهـــد هرابا (HARRAPPA) و موهينجـــدارو (MOHENJODARO). كان العرب أول من فتحـــوا السنـــد و لكنهم إستسلموا بعد أن واجهوا حضارة أعلى. و لكن مرّ فى السند حين من الزمن تحمل أهلها فيه المشقات، و فى أيام طفولة الشاه كانت السند تمر بأوقات عصيبة جدا. و بعد ذلك بعشر سنين، مرّ سياح إنجليزى بنهر السند فقال أميرها لما رأى الإنجليز فى أسطولهم الصغير، يا للأسف إنهم شاهدوا السند، فقد حدث إنه بعد مئة و أربعين سنة فقط هدم السير شارل نابير السند إلى أراهـــى اللورد دلهوزى. و قد تجلى شعوره هذا فى سيرته الذاتية التى كتب فيها فصلا تحت عنوان " بكارى " (إرتكبت إثما) و بعـــد ذلك بقليـــل إنتقل أبوه شاه حبيب إلى مكان آخر إسمه كوترى فى نفس المقاطعة و على مسافة أربعة أميال من هذا المكان تقع بهيت، الهضبة الصغيرة التى قضى فيها الشاعر سنواته الأخيرة بين الرهبان و الدراويش. المكان الذى لا يوجد فيه شيء تذكارى للشاعر ما عدا مسجد صغير و لكنه مشهور عالميـــا. و مثل ضريح بابا فريد، هذا المكان أيضا محجّ للناس. كان جـــد الشاه عبـــد اللطيف الشاه عبد الكريم (١٥٣٦ ـ ١٦٢٢) شاعرا كبيرا. هاجر إلى هذا المكان من هيرات مع الأمير تيمور فى ١٣٩٨.

كان درويش قد تكهن بأن الطفل الجديد فى أسرة الشاه حبيب سوف يرفع المعاناة من أهل السند، و يقرض أبيات ملهمة و يعتبر نجما قطبيا فى صحراء السند، يقال إن الطفل لما أرسل إلى نور محمد بهتى للتعليم، و هو ابن خمس سنين، رفض أن يتعلم شيئا بعد الحرف الأول من الأبجديـــة و هو " الألف " و أيضا هو الحرف الأول من كلمة " الله " و قد رأى المعلم نورا فى عيون الطفل فصاح قائلا : سيكون هذا الطفل متعلما بنفسه فمنذ ذلك الوقت لم يذهب أبدا إلى مدرسة و فى سن الشباب تجول بين دراويش الصحراء حتى قابل شاه عنايت، الصوفى الأكبر فى السند آنذاك، إن الزهرتين اللتين منحهما الصوفى الكبير للشاه عبد اللطيف كانتا رمزا للرؤية الجديدة التى أدركها فى عيون الشاب البراقة. هناك حكاية تروى أن الشاه عبد اللطيف فشل فى حـــب بسبب عوائق وضعهـــا والد البنت ميرزا مغول بك فى طريقهما. فهام فى صحراء السند وفى هذا الهيام وصل إلى ملتان ثم اتجه إلى مكران فى بلوشستان كما زار جيسلميـــر و كوتش و غجـــرات كاتياوار. و زار الأماكن المقدسة للهندوس فى غيرنار حيث رقص أمام تمثال الإله كريشنا، و قدم إجلاله للإلهـــة دورجـــا فى هينجـــلاج فـــى لاسبيلا، و اختلط بحرية مع أتباع جوركنات و تحدث مع دراويش ثاث بالتفصيل. و افتتن بالموسيقارين الهنـــدوس وقضـــى معهم وقتـــا ملحوظـــا.

Converted by Tiff Combine - unregistered

و أعجب بالإثنين منهم إعجابا شديدا و هما أتال و شنشال. إن الألحان كليان و رام كالى من تاليفه تعبير ربانى رائع فى عالم الموسيقى. فهذان التاليفان يشتملان على رؤية الشاه نحو التصوف و الموسيقى. و فعلا، توفى الشاه و هو يستمع إلى الموسيقى. إن تاليفاته الأخرى مثل " السموبى " و " سريراج " تشير إلى رحلاته البحرية.

و يحكى لنا الأستاذ فتح شاند فاسفانى فى مقدمته لرسالة الشاه قصة لشبابه عند ما فشل فى الحب فيقول : لما أدرك بعدم استطاعته فى الوصول إلى حبيبته، رقد على كثبان رملى فى حزن و كآبة غير منتهيه للبيئة المحيطة به حتى أخبر راع والده فجاء به إلى البيت و لكنه هنا أيضا لم يمكث طويلا و غادر قريته و جال مع الدراويش الهندوس لمدة ثلاث سنين و قد تحولت هذه المدة إلى التعليم العملى الحقيقى بالنسبة له. فى الواقع يشبه شغفه فى الترحال بالشيخ السعدى و غورونانك. و لما عاد يوما فجأة إلى دار أبيه، وجد هناك بهجة و حبورا.

تزوج الشاه من سعيدة بيجوم فى ١٧١٣م. و قد أعطى له هذا الزواج رفيقة فى إحداث ثورة اجتماعية كما خططها و كان تصوف الشاه المعروف عند سواد الناس فى السند بـ "رومى السند"، متأثرا فى جانب بكتب فيدا الهندوسية، و فى جانب آخر مرتكزا بصورة راسخة على التعليمات القرآنية. كان الشاه عبد اللطيف أساسا جزءا من حركة بهكتى فى شبه القارة الهندية و رفع مشعل الثقافة الهندية المركبة عاليا خلال أصعب وقت مرّ به السند، و قد فضح نفاق رجال الدين و عارض الضرائب التى فرضها الحكام المغول على الزوار الهندوس، و من أقواله إنه لا فائدة فى تحريك الأصابع على حبات المسبحة و العقد. و إنما المطلوب هو العمل الصالح. كان الشاه شيعيا و لكنه كان محترما جدا لدى السنيين و كان مسلما بل كان محبوبا لدى الهندوس أيضا، احترمته جماعة السيخ لأنه كان تابعا صادقا لغورونانك فى الواقع كان الشاه هنديا، انه لم يكن محترما فى طول الهند فقط و إنما فى العالم الإسلامى بأسره.

مرتديا لباسا درويشيا طويلا مخاطا بخيوط الجوت السوداء كان الشاه شاعرا من طراز الشيخ فريد يقال إن المهاتما غاندى اتخذ فكرة المغزل من كلمات الشاه عبد اللطيف عندما زار السند بعد عودته من جنوب افريقيا. خلص الشاه الشعر السندى من طغيان العربية و الفارسية و نبنى شعرا شعبيا (DOHA) بدلا من الغزل ، إن الشاه عبد اللطيف الذى كانت أشعاره معروفة بالأفكار النيرة و الأخيلة الخصبة و حبه للطبيعة و جمالها ، استخدم على طريقة غورونانك فى البداية و السوامى رام تيراث بعد ذلك، إستعارات و حكما محلية كثيرة مستلهمة من رعاة الأغنام و الجمال فى السند. أنظر كيف يعبر عن لوعته:

Converted by Tiff Combine - unregistered

مثل النبات المتسلقة إشتبكت الأحزان بقلبي
مثل العشرات نبت الآلام إلى صدري
و حلّت فيه كما يحل الملح في الماء
هكذا يعشق قلبي الحب
مثل شجرة النيم يدخل الأثر في قلبي.

كان الشاه عبد اللطيف أساسا شاعر الحب مثل الصوفية، الحب الذي لا يعرف حدودا جغرافية أو تاريخية و لا تقييدا نفسيا، إنـــه زار هينجـــلاج و كمؤمن قوي بالثقافـــة الهنديـــة المركبة، اعتبر البلاد كلها بلدا متحدا جغرافيا و كيانا ثقافيا موحدا. إنه كان درويشا مسلما يعتقد بعظمة جميع الأديان. و اعتبر الهندوسية و الإسلام مظهرا لحقيقة واحدة و كافح من أجل ذلك بعزم و ثبات بغض النظر ممن نطق بها أو من أين جاءت.

يقول الدكتور اتش. إم. جوربخشاني : إن الشاه كان مديد القامة، عريض الكتفين، معتدل الجسم، متمتعا بصحة جيدة طول الحياة. في الصغر، كان شعره أسود و مدورا، و له لحية أنيقة و جلد قمحي اللون مائل إلى البيض، عريض الجبين و وسيم الطلعة ، له عيون جذابة سوداء، تلمع دائما مثل ضوء المشعل. و في الكبر، عكست خاصة الرونق و اللمعان. كان يحمل كلما مصنوعا على شكل مركب في يده للصدقات على طريقة الكهنة البوذيين و الصوفية في العصور الوسطى. و في جلسته لازم دائما مروحة. لا ينام إلاّ قليلا و لا يأكل إلاّ ما يغنيه عن جوع. إن مثل هذا الحكيم فقط يستطيع أن يبدع شعرا عظيما في الحب و الشفقة و الرحمة ، و مثل هذا الذهن فقط يستطيـــع أن يهضم الساســـي (SASSI) و البنـــو (PUNNU) و تاماشـــي (TAMACHI).

تميز القرن الثامن عشـــر بطغيان الأساليب العـــربيـــة و الفارسيـــة و رغم إنحطاط الإمبراطوريـــة المغوليـــة، بقيت للعربية و الفارسيـــة سيادة و سيطرة، و كان الرجوع إلى الكتابة في لغة محلية محفوفة بالمخاطر. يعتبر الشاه عبد اللطيف في السندية مثل مير تقي مير في الأردوية و غورونانك بالبنجابية. الناس يغنون أبياته و أناشيده حتى الآن بحماسة كان الشاه ملما بالقرآن و جرنث صاحب، و حمل مشعل الثقافة العلمانية مثلما فعله بابا فريد في القرن الثاني عشر، و نظام الدين أولياء في القرن الثالث عشر. و فيما يلي أنشودة من السندية إنها أغنية مقدسة من الصحراء: من SHAH JO RISALO الكلام الكلاسيكي و الرسالة عن الحب.

إنني مت مثل بابيو (BABIO)
في هبة رياح حار.
لو كان في مقـدوري أن أنسى حبيبي للأبد.

Converted by Tiff Combine - unregistered

يتجلى أثر " جيتا " في شعره. و هو يريد من أتباعه أن يستمروا في العمل بدون أمنية في الجزاء لأن الله دائما في عـــون من يكافـح و يعمـل. و الجبال لا تجزيه بالألماس للمتكاسلين و البطالين.

أنتج الشاه الرجل المتواضع و الشغوف أبيات سلسة و رقيقة و غناها بطريقة حساسة جدا. و قال : الإتكال على أحد إثم ما عـدا التوكـل على الله و إنه لم يوافق على التوكل على الله أيضا إذا كان مع الكسل. بل أراد التوكل على الله مع العمل. و قال : من أجل السباحة عبر التيار، لا بد أن تعرف السباحة جيدا، و عندئذ فقط يكون الله في عونك. إن الدينامية و الحركة هما ميزتان بارزتان لفلسفة الشاه فلو إستطاعت زهرة حقيرة أن تلقن دروس الإنسانية للقلب ورد زورث الجريح، فإن ذرة هشيلة في التيار كانت درسا للشاه.

أنظر إلى وريقات الأعشاب هذه
إما إنها تنقذ الرجل على وشك الغرق
أو تغطس معه في التيار.

كواحد من الرجالات الأفذاذ في القرن الثامن عشر في الهند، حمل الشـاه عبـــد اللطيف، مثل بوليه شاه (BULLEEH SHAH) و وارث شاه (WARIS SHAH) في البنجاب مشعل الثقافة المركبة في الهند و التي توارثها من الدراويش و الصوفية في العصور الوسطى. و مثل السانت فـرانسيس (ST. FRANCIS) من أسيسي أولا و المهاتما غاندي فيما بعد، قد نشر رسالة الحب و عدم العنف و تطلع إلى مجتمع يكون فيه القوي عادلا و الضعيف مستحقا لعدم العنف و عدم الإستغلال و العدالة الإجتماعية و الإقتصادية. كان هو نفسه أميا و لكنه ناضل من أجل التعليم للجميع، و رفع صوته ضد الجور و عدم المساواة في عصره . و حتى في لغته المجازية عن الطيور كان يعطف على الطيور الضعيفة و الهزيلة و الجريحـة و التي يسيل منها الدم، و حذر الصياد من أن يصيد الطيور الضعيفة لأن هناك صائدا أكبر. و هو الموت الذي سوف يصيد كل واحد و قال : لا تقتل الطير لأنك لن تنال إلاّ جسدها فقط لا الطير.

مات الشاه عبد اللطيف في ١٧٥٢م و دفن في بهيت في حيدرآباد السند ولكنه خالد الذكرلم يفتح الموت فاتح القلوب هذا، فإنه يعيش في مجد.

يقول سوين بوم (SWINBUM) إن أعلى شعر لابد أن يتمشى مع الموسيقى، فنظرا لهذه الميزات كان الشاه عبـــد اللطيف شاعرا عظيمـــا. و يقول الأستاذ إن. ايه بلوتش (N. A. BLOCH) فـــي بحثه الرائـع بعنـوان " شاه عبد اللطيف - مؤسس موسيقى جديدة " طبعته إدارة الإعلام في باكستان في ١٩٦٢م: ابتكر شاه عبد اللطيف آلة موسيقية جديدة و أسلوبا

Converted by Tiff Combine - unregistered

جديدا للتأنية و أسس تقليدا جديدا فى الموسيقى مبنيا على تاليف فن اعلى و فن شعبى. و الآلة الجديدة التى ابتكرها هى "الطنبورة" مع سلك اضافى. فالطنبورة السابقـــة لها أربعـــة اســـلاك. وإنه زاد واحدا بجـــوار " زبان " إن " شاه - جو رسالو " (SHAH-JO-RISALO) عمل فنى موسيقى رائع إلى جانب كونه عملا أدبيا كلاسيكيا.

و فى رأى الدكتور موتى لال جتوانى انضم شاه عبد اللطيف متأخرا إلى حركة بهكتى فى الهند. و لكنه نهض بها بافكاره النيرة و عمق إحساساته. و قال الدكتور ك. م. سين. فى كتابه بعنوان " الهندوسية " إن مثل تصوف المناطق الأخرى فى العصور الوسطى تاثر البهكتى بالأفكار الصوفية. و فى الهند لم يبق طريق صوفى بدون أن يتاثر بأفكـار بهكتى. و قد أنجب القـــرن السابع عشـــر شاه عبـــد الكريم و شاه عنايت و شاه عبد اللطيف و هذه الحركة مستمرة حتى الآن.

منح شاه عبد اللطيف اتباعه أملا و فرصة جديدة للحياة و نفخ فيهم روح الاحترام الذاتى و حب الله. و خلص أهل بلاده من عبوديـــة رجال الديـــن و لعب دور جسر بين فئات مختلفة فى شمال الهند. إن كلماته و أبياته مليئة بالأخيلة العلمانية و الثقافة المركبة فى الهند. و لما دخل معبدا هندوسيا فى ثاتا (Thatta) قال "نحن ندخل الضريح بمعية إلاهـه و ستجرو المقدسين .

الأحداث التاريخية :

١٦٨٩ - ولد بقرية هالا هويلى بمقاطعة هالا، بحيدر اباد (السند) باكستان الآن.

١٦٩٤ - أرسل للتعليم إلى أخوند نور محمد بهتى بقرية فالى. رفض الطفل أن يتعلم شيئا أكثر من الحرف الأول من الأبجدية العربية و هو الالف.

١٧٠٨ - فشل فى الحب بسبب كونه درويشا.

١٧١٢ - ١٧٠٩ - تجول فى الصحراء وزار لا كبات، و سيرنار، و دوارکا، و جيسلمير، و بيكانير، و ثار، و غجرات، و هارو. و لاهوت. و لاماكان، و كابول، و هنجلاة، و كراتشى، و بهامبور، و موفابهيم، و فوربندر، و ثاتا.

١٧١٤ - تزوج من سعيدة بيجوم بنت الميرزا مقول بك.

١٧٢٠ - مات شاه عنايت خان.

١٧٢١ - زار ملتان، دير حاكم ملتان، ميان نور محمد، مكايد عديدة لقتله. و بعد أن فشل فى هذا العمل و أدرك بعظمة الشاه، خرّ ملسى قدمـه و طلب العفو منه.

١٧٤٢ - مات أبوه شاه حبيب.

١٧٥٢ - مات فى بهيت فى ١٧٥٤، أقام ميان غلام شاه كولهورو ضريحا فوق قبره من و مبنى الضريح تصميم إيدان، الفنان الكبير فى ذلك الوقت.

Converted by Tiff Combine - unregistered

مراجع البحث المختارة
(الإنجليزية)

١ ـ الوادى الحزين : ريتشارد بورتون، لندن (١٨٥١)
٢ ـ الرسالو . أرينست ترومب، ليبزيج (١٨٦٦)
٣ ـ حياة شاه عبد اللطيف بهيتائى : ميرزا قالش بك (١٨٨٧)
٤ ـ حياة شاه عبد اللطيف و ديانته وشعره : ليلا رام و أنا غيل (١٨٨٩)
٥ ـ السند جازيت . أى . اتش. ابتكين. بومبائى (١٩٠٧)
٦ ـ قصص السند . سى. ايه. كينكائد (١٩٢٢)
٧ ـ شاه عبد اللطيف : إم. إم. جيدوانى، إنديا سوسائتى لندن (١٩٣٢)
٨ ـ السند و صوفياؤها : جيثمال بوسرام، حيدر اباد (١٩٣٤)
٩ ـ شاه عبد اللطيف من بهيت : اتش. تى . سورليه لندن (١٩٤٠)
١٠ ـ السكان الربانيون فى الصحراء . مليك غوردیال (١٩٤٩)
١١ ـ روح الأدب السندى : فى . ال. ثاسوانى (١٩٥٤)
١٢ ـ الشاعر النابغ فى السند : كريم بخش خالد، حيدر اباد (١٩٦١)
١٣ ـ أغنية العقد : فيراث داس هو شاند، حيدر آباد (١٩٦١)
١٤ ـ الصوفية و المتصوفون و اليوجيون فى الهند : بينكيه بيهارى، بومبائى (١٩٥٢)
١٥ ـ تقديم الشعر الباكستانى : جى. ألانا، كراتشى، (١٩٦٢)
١٦ ـ شاه عنايت شهيد الجوك : انيه ماري شيميل، لندن (١٩٦٩)
١٧ ـ شاه عبد اللطيف : حياته و أعماله : موتيلال جوتوانى، جامعة دلهى (١٩٧٥)
١٨ ـ شاه عبد الكريم، الشاعر الصوفى من السند، موتيلال جوتوانى، نيو دلهى (١٩٧٠)
١٩ ـ شاه عبد اللطيف : كليان إدوانى : ساهتية أكاديمى، نيو لهى.
٢٠ ـ الشعراء بالفارسية فى السند اتش. جيه. سدارنجانى.
٢١ ـ التصوف فى السند : اتش. جيه. سداربخانى، جورنال جامعة البنجاب للأدب الهندى فى العصور الوسطى.
٢٢ ـ المهاراجا رنجيت سينغ، باب السند . ك. ك. كهوللر نيو دلهى (١٩٨٠)
٢٣ ـ التصوف الاسلامى : تارا شاند رستوجى، استرلينج (١٩٨٣)

الأردوية

١ ـ عكس لطيف : أغا تاج محمد . حيدر اباد (١٩٥١)
٢ ـ مفكر مهران : اختر انصارى : كراتشى (١٩٥٣)
٣ ـ نظر لطيف . كراتشى (١٩٥٤)
٤ ـ روح لطيف : رشيد أحمد لاشارى حيدر آباد (١٩٥٤)
٥ ـ نغمات لطيف : كراشتى (١٩٦٠)
٦ ـ شاه جورسالو . الشيخ أياز: حيدر آباد (١٩٦٣)

الهندية

١ ـ شاه لطيف كاويا : موتيلال جوتوانى، نيو دلهى (١٩٦٩)
٢ ـ شاه لطيف : كليان ادوانى، نيو دلهى (١٩٧١)

تعريب : شميم الحسن أمانة الله

Converted by Tiff Combine - unregistered

قصة قصيرة :

عقـــار الغابـــة

بقلم : اميريتا بريتم

كانت أنجورى زوجة جديدة لخادم فى بيت جارلى بجوار جيرانى. جديدة لأنها كانت زوجة ثانية لزوجها. على هذا كان زوجها ذو زواجين. فإنه دخل عالم الزواج الثانى و أنجورى جديدة لأنها كانت حتى الآن فى عالم الزواج الأول و جديدة أيضا لأنها لم تمض على زفافها سنة كاملة.

مضت خمسة أعوام منذ أن ذهب بربهاتى إلى قريته فى إجازة للاشتراك فى جنازة زوجتها الأولى و المراسيم الأخيرة لها . يقولون إن والد أنجورى قد عصر منديل بربهاتى يوم المراسيم الأخيرة فى القرية. فمن لم يتبلل منديله بدموعه بموت زوجته ، فيتبلل فى اليوم الرابع أو يوم المراسيم الأخيرة بمسح جمعها. و عندما ينهض والد بنت فى ذلك اليوم ليعصر ذلك المنديل فكأنه يقول " إننى أعطيك إبنتى مكان تلك الزوجة الميتة. فلا داعى لك الآن للبكاء. إننى جففت منديلك المبتلة.

هكذا تم زواج بربهاتى الثانى بأنجورى. و لكن لكونها صغيرة و إصابة أمها بمرض وجع المفاصل تأخر زفافها لمدة خمس سنين. على أى حال مضت تلك السنون، الواحدة تلو الأخرى. و كان قد أخبر بربهاتى مستخدميه عند ذهابه إلى قريته للزفاف بزوجته هذه السنة بأنه إما أن يأتى بزوجته لتسكن معه فى المدينة أو أنه لن يرجع من قريته. فتردد مستخدموه أولا لأنهم لم يريدوا أن يتحمّلوا نفقة أكل شخصين مكان شخص واحد. و لكنهم وافقوا بعد ما سمعوا خادمهم يقول إنه سوف يتخذ المكان الخلفى غير المبلط لغرفته مطبخا لزوجته بعد تنظيفه. هكذا جاءت أنجورى إلى المدينة. إنها لم ترفع قناعها لمدة أيام أمام رجال الحىّ حتى أمام النساء. و لكن بعد ذلك تخفف تدريجيا. كانت أنجورى تضيف إلى رونق الحى عندما كانت تمشى لابسة حلاها الرنانة. و كذلك تزيد البهاء هناك بابتسامها العذبة الخلابة. و مع أنها كانت تنفق معظم أوقاتها فى غرفتها ، إلا أن رونقا عجيبا تصاحبها لما كانت تخرج من بيتها.

" أية حلية هذه فى قدميك يا أنجورى ـ؟ "

" إنها حلقات فضية "

Converted by Tiff Combine - unregistered

" و ما هذا فى أصابعك ...؟ "
" إنه خاتم "
" و فى ذراعيك ...؟ "
" إسمها بشيلا "
" و على جبينك ...؟ "
" يقال لها على بند "
" اليوم لم تلبسى شيئا فى خصرك ...؟ "
" إنها ثقيلة جدا ألبسها غدا ، اليوم أنا ما لبست الطوق أيضا. فقد انكسر لحامه. أذهب غدا إلى المدينة لأستصلحها. كما أشترى مسمارا لأنفى. كانت عندى حلية كبيرة لأنفى أعطتها لى أم زوجى."

هكذا كانت أنجورى تلبس حلاها الفضية بتدلّل و تريها بتدلل.

و بعد قليل لما تغير الجوّ و صارت أنجورى تختنق فى غرفتها ، كانت تجلس أمام بيتى ، عند أشجار النيم.

و كانت بئر قديمة على مكان مرتفع بالقرب من تلك الأشجار و كانت البئر مهجورة فلم يكن أحد يجلب الماء منها إلاّ أن شارعا كان يمتدّ بالقرب منها على نفقة الحكومة. و العمّال كانوا يستعملون ماء البئر. لذلك كان يوجد هناك وحل فى معظم الأوقات.

" ماذا تقرأين يا سيدتى ... ؟ "
" يوما لما جاءتنى أنجورى ، كنت أقرأ كتابا تحت أشجار النيم "
" هل تعرفين القراءة يا أنجورى ...؟ "
" لا أعرف "
" فتعلّمى . ؟ "
" لا "
" لماذا ..؟ "
" إن تعلم القراءة إثم بالنسبة للمرأة "
" هل القراءة إثم للمرأة فقط و ليست إثما للرجل ...؟ "
" لا ... ، ليست إثما للرجل "
" من قال لك هذا ..؟ "
" أنا أعرف ذلك "
" لكننى أقرأ ... هل أنا آثمة ...؟ "
" النساء فى المدن لا يرتكبن الإثم و لكن نساء القرى يرتكبنه "

انفجرت أنا ضاحكة و ضحكت أنجورى و لكن كل ما كانت أنجورى قد سمعت و اعتقدت ، كانت حقيقة. لذلك لم أقل لها شيئا. فلو كان بإستطاعتها أن تقضى أوقاتها فرحة مسرورة داخل حدود حياتها ، فكان ذلك شيئا حسنا. كنت حينذاك أحدق فى وجه أنجورى. إنها كانت ممتلئة الجسم سمراء اللون. يقولون إن المرأة مثل عجينة الدقيق و البعض منهن يكن اللين من العجينة حتى لا يمكن جعلها خبزا مدورا و لكن جسم البعض فقط يكون مثل خمير

Converted by Tiff Combine - unregistered

الدقيق و يصعب طلمها بمطلمة. و إن لعم بعض المرأة يكون صلبا بحيث يسهل صنع أى شكل من الخبز منه.

ظللت أحملق إلى وجه أنجورى ، و إلى صدرها و إلى أرجلها. إنها كانت متماسكة الجسم متناسقة الأعضاء. و كنت قد رأيت زوجها بربهاتى أيضا فإنه كان قصير القامة ، منخفض الوجه.

فلما رأيت شكل أنجورى ، خطرت لى فى نفسى مقارنة عجيبة بأن بربهاتى لا يستحق أكل هذه العجينة المتصلّبة. و إنّ من يضع هذه العجينة مطليا بغطاء كثيف ، فهو قاسى القلب. فضحكت بنفسى على هذه المقارنة. و لكننى ما شئت أن أشعر أنجورى بهذه المقارنة.

فانتقلت بحديثى إلى أمور بسيطة متعلقة بقريتها و أبويها و إخوتها و أخواتها و حقولها و مزارعها ، فسألت :

" ما هى طريقة الزواج فى قريتك ...؟ "

" عامة تكون البنت صغيرة فى عمر خمس سنين تقريبا حينما تعبد هى قدم شخص."

" كيف تعبد القدم ...؟ "

" يحمل والد البيت صينية مملوءة بالزهور و فيها روبيات فيضعها أمام الولد."

" إنها عبادة الأب و ليست عبادة البنت ...؟ "

" لكن الوالد يعبده نيابة عن البنت "

" و هل تنظر البنت زوجها المنتظر...؟ "

" لا ... ، البنات لا ينظرنه "

" هل البنات لا ينظرن أزواجهن ...؟ "

" كلا ... "

" ألا ترى أى بنت أبداً ...؟ "

" لا أبداً "

" قالت أنجورى أولا " لا " ثم سكتت قليلا فقالت :

" البنات العاشقات، ينظرنه "

" هل بنات قريتك يعشقن ...؟ "

" بعضهن "

" هل البنت التى تعشق شخصا ألا تكون آثمة ...؟ " (فى الحقيقة ، أنا تذكرت كلام أنجورى بأن المرأة تكون آثمة لو تعلمت القراءة. فاتذكرت أن الحب أيضا على هذا يكون سببا للإثم). فقالت أنجورى فوراً :

" إنه إثم ، إثم كبير "

" إذا كان الحب إثما فلماذا هن يحبين أحدا ...؟ "

" فى الحقيقة ... يطعم شخص البنت شيئا. فيتولد فى قلبها الحب له "

" ماذا يطعمها ...؟ "

" عقارا من عقاقير الغابة. يطعمها فى الحلاوة أو فى التنبول فتبدأ البنت

Converted by Tiff Combine - unregistered

تحبّه و تفضله على كل رجل فى العالم."

" صحيح ...؟ "

" نعم أنا أعلم. فقد رأيت بعيونى "

" رأيت من ...؟ "

" كانت لى زميلة ، تكبرنى قليلا فى السن"

" إذن ، ماذا حصل ...؟ "

" إنها ، صارت مجنونة. و هربت معه إلى المدينة "

" لكن كيف علمت أنه أطعم زميلتك عقارة ..؟ "

" هل أطعمها فى حلاوة ..؟ أ تظنين أنها هجرت أبويها و ذهبت معه إلى المدينة ...؟ "

" إنه كان يعطيها أشياء كثيرة ! يعطيها السارى، و أسورة زجاجية و عقودا من الدّرر."

" هذه أشياء ! و لكن كيف علمت أنه أطعمها عقارة ...؟ "

" إذن كيف أخذت تحبها إذا لم يطعمها شيئا ...؟ "

" الحب قد ينشأ له بدون ذلك أيضا "

" كلا ... ، كيف يمكن لأحد أن يحب شخصا يكره ابويه ...؟ "

" هل رأيت ذلك العقار...؟ "

" لا ... ، ما رأيته ، هم يجلبونه من بعيد جدا و يخلطونه خفية فى الحلاوة أو فى التنبول. لذلك نصحت لى أمى بألا آكل شيئا من يد أحد."

" استحسنت جدا بانك لم تأكلى شيئا من يد أحد ، و لكن كيف أكلت زميلتك ...؟ سوف تجد ما عملته ...؟ "

" نعم ... تجد ما عملته " قالت أنجورى ذلك و لكنها أحست بعد ذلك بشفقة على زميلتها. فقالت فى حزن :

" أصبحت المسكينة مجنونة. فلم تكن تمشط شعرها. كانت تنهض مرات فى الليل و تغنّى."

" ماذا تغنى ...؟ "

" لا يعلم أحد ماذا كانت تغنّى. إن التى تأكل عقارا تغنى كثيرا. و تبكى أيضا كثيرا."

انتقل الحديث من الغناء إلى البكاء. فلم أسأل بعد ذلك من أنجورى شيئا أخر.

لم تمض إلا أيام قليلة. لما جاءت أنجورى يوما و وقفت أمامى ساكتة. قبل ذلك كلما أتت كانت حليتها ترنّ " شم شم " نسمعها و هى على بعد عشرين قدما. و لكن اليوم لا يعرف أحد أين اختفت رنّة قدميها. فرفعت رأسى من الكتاب و سألتها: " ماذا حدث يا أنجورى ... ؟ ظلت أنجورى تنظر إلىّ برهة ثم قالت بصوت خفيف :

" علمينى القراءة يا سيدتى ...؟ علمينى كتابة الإسم ...؟ "

" هل تكتبين رسالة إلى أحد ...؟ "

Converted by Tiff Combine - unregistered

" لم تجب أنجورى شيئا. و ظلت تنظر إلى وجهى لمدة "
" ألا تكونين آثمة بسبب القراءة ...؟ "
" لم تجب أنجورى بعد ذلك أيضا و بدأت تتفحص في السماء "
كان ذلك عند الظهر. أنا ذهبت إلى داخل البيت تاركة إيّاها تحت شجرة النيم. و لما خرجت مساءاً مرة أخرى رأيت أنها مازالت جالسة تحت شجرة النيم. كانت منكمشة جدا. لعل الهواء البارد فى المساء أثرت فى جسمها أنا كنت وراء ظهر أنجـورى. و كانت على شفتـى أنجورى أغنيـة. كأنها تبكـى و تقول : " لا أدرى كيف أقضى عمرى الباقى و خاصة شبابى"
و لما أحست أنجورى بمجيئ"ى خففت من غنائها و أدارت وجهها إلىّ"وهى ترتد أغنيتها تحت شفتيها بخفية.
" أنت تغنين جيداً ، يا أنجورى "
و ظهر لي أن أنجورى قد حبست دموعها المرتجفة و وضعت مكانها ابتسامة مرتعشة.
" أنا لا أعرف الغناء "
" أنت تعرفين "
" إنها ـ "
" هل سمعت هذه الأغنية من زميلتك ...؟ "
" غنى لى مرة "
" إنها ليست إلاّ أعـــدادا. فى السنة، يكون موسم المطر لـمدة أربعة شهور، و الصيف لمدة أربعة شهور و الهواء البارد لمدة أربعة شهور."
" لا هكذا. بل اسمعينى بالغناء ...؟ "
لم تغن أنجورى. و لكنها عدت الشهور الإثنا عشر على أصابعها. كأنها تعد كل الحساب بها.
" يكون الموسم باردا لأربعة شهور يا حبيبى فيرتعش منه القلوب. و يكون الموسم حاراً لأربعة شهور يا حبيبى فيرتعش منه الهواء. و يكون الموسم مطيرا لأربعة شهور يا حبيبى فيرتعش منه السحاب."
و جعلت أنجورى تنظر إلى وجهى. أردت أن أضع يدى على كتفها لأسألها. " هل أكلت عقار الغابة يا مجنونة ...؟ " و قد وضعت فعلا يدى على كتفها و لكنى سألتها بدلا من ذلك :
" هل أكلت الطعام ...؟ "
" الطعام " رفعت أنجورى وجهها و رأتنى و أنا شعرت بيدى الموضوعة على كتفهابأن جسم أنجورى كلها ترتعش. لعل الأغنية التى غنتها الآن عن السحاب المرتعش فى موسم المطر، و الهواء البارد المرتعش فى موسم الصيف ، و القلب المرتعش فى موسم البرد ، قد أثرت أثرا واضحا فى جسمها.
كنت أعرف أن أنجورى تطبخ طعامها بنفسها. و زوجه بربهاتى كان يطهو الطعام لمستخدميه. و كان يأكل هناك ولذلك ما كانت تنتظره أنجورى للأكل. فسألتها مرة أخرى.

Converted by Tiff Combine - unregistered

" هل طبخت الطعام اليوم أم لا ...؟ "
" ما طبخته حتى الآن "
" هل طبخت صباحا و هل شربت الشاى ...؟ "
" الشاى ...؟ اليوم لم يكن اللبن موجوداً "
" لماذا لم تأخذى اللبن اليوم ...؟ "
" أنا لا آخذ اللبن. بل ....."
" ألا تصنعين الشاى كل يوم ...؟ "
" إنما أشرب "
" إذن ماذا حدث اليوم ...؟ "
" اللبن ، فى الأصل رام تارا ..... "

رام تارا خفير فى حيّنا. و هو حارس مشترك لكل واحد. يحرس البيوت طوال الليل. و يشعر بالنوم العميق صباحا. تذكرت أنه لما لم تكن أنجورى قد جاءت ، كان يأخذ رام تارا كوبا من الشاى من بيوتنا صباحا. من بيت يوما و يوما آخر من بيت و يشربه ثم ينام على سريره عند البئر. و منذ أن جاءت أنجورى ، كان يأتى بلبن من صاحب جاموس. ثم يضع على موقد أنجورى قدر الشاى. و كان بربهاتى و رام تارا و أنجورى كلهم يشربون الشاى جالسين حول الموقد. و لعلى أذكر أن رام تارا كان قد أخذ إجازة و سافر إلى قريته منذ ثلاثة أيام.

شعرت بضحكة مؤلمة ثم قلت لها:

" و أنت يا أنجورى ! ألم تشربى الشاى منذ ثلاثة أيام "
" لم تقل أنجورى شيئا بل هزت رأسها بالنفى فقط "
" ألم تأكلى الطعام أيضا ...؟ "

لم تعرف أنجورى الكلام و بدا لى أنها إما لم تأكل الطعام مطلقا أو إن أكلت فقدراً يسيراً منه.

و قد تمثل أمام عينى شكل رام تارا تماما. وسيم القامة ، سليم البنية ، و صاحب عيون جذابة خجولة ، و ذا أسلوب خاص للتكلم.

" أنجورى...؟ "
" نعم يا سيدتى "
" هل أكلت عقار الغابة ...؟ "

سالت دموع على وجه أنجورى. فبللت شعرها و شفتيها. و كانت الكلمات الصادرة من فمها أيضا مبللة " أحلف لك بأننى لم أكل أبدا حلاوة من يده. و لم أقبل التنبول أيضا ، ماعدا الشاى ، يمكن أنه قد ....." ثم غرقت أصوات لنجورى كلها فى دموعها.

تعريب : سراج الحسن

Converted by Tiff Combine - unregistered

استعراض الكتب

إسم الكتاب : فلسفة الحب في "طوق الحمامة" دراسة تحليلية

تأليف : عبد الله كوتى . سى . ثى.

الناشر: مكتبة الهدى . تيرورانكادى . كيرلا، الهند

عرض : د/ شميم الحسن أمانة الله ،
جامعة جواهرلال نهرو . نيودلهى.

يتناول هذا الكتاب بدراسة تحليلية أحد المنجزات المهمة في الفكر و العلم لمفكر اندلسى إسلامي كبير و هو كتاب طوق الحمامة الذى ألفه ابن حزم الفقيه و الطبيب و الشاعر و الفيلسوف و المؤرخ (٩٩٤ - ١٠٦٤) في علامات الحب ونشره المستشرق بتروف في ليدن في ١٩١٤م و مما تتبين أهمية هذا الكتاب انه ترجم إلى لغات عالمية عديدة مثل الإنجليزية و الروسية و الألمانية و الإيطالية و الفرنسية و الأسبانية كما حلل و طبع في البلاد العربية مرات.

قسم الباحث هذا الكتاب إلى أربعة فصول فدرس في الفصل الأول تاريخ الأندلس ثم حياة ابن حزم و شخصيته و البيئة التي عاش فيها. و في الفصل الثاني تناول تحليل طوق الحمامة من كل النواحي تحليلا علميا دقيقا. وبهذا الشان ذكر نظرية الفلاسفة و المفكرين في الحب منذ افلاطون إلى الوقت الحاضر. و نقل ما قاله افلاطون . " بأن محبة الله هو الحب المثالي " و قول ابن حزم " إن محبة الله هي الدرجة العليا في الحب .

ثم تحدث الباحث في الفصل الثالث عن الحب و أقسامه مثلا الحب الجنسي و غير الجنسي ثم الرومانطيقي و الرفاقي و ما إلى ذلك .

و في الفصل الرابع يبحث في الاتصال الشعرى و الإتصال الوجودى و الاتصال بالكلام و الاتصال بالإشارة و الاتصال في القرآن وغيرها.

و هكذا حلل الباحث كتاب طوق الحمامة تحليلا جيدا و استنتج من ذلك بأن ابن حزم مع كونه فقيها، فقد كان من أوائل الكتاب الذين كتبوا عن الحب و أقسامه في ضوء العلوم الحديثة و علم النفس بصورة خاصة . و إن النظريات و الآراء التي ذكرها في هذا الكتاب تتوافق تماما مع ما توصل إليها علماء النفس في موضوع الحب في العصر الحديث.

Converted by Tiff Combine - unregistered

Converted by Tiff Combine - unregistered